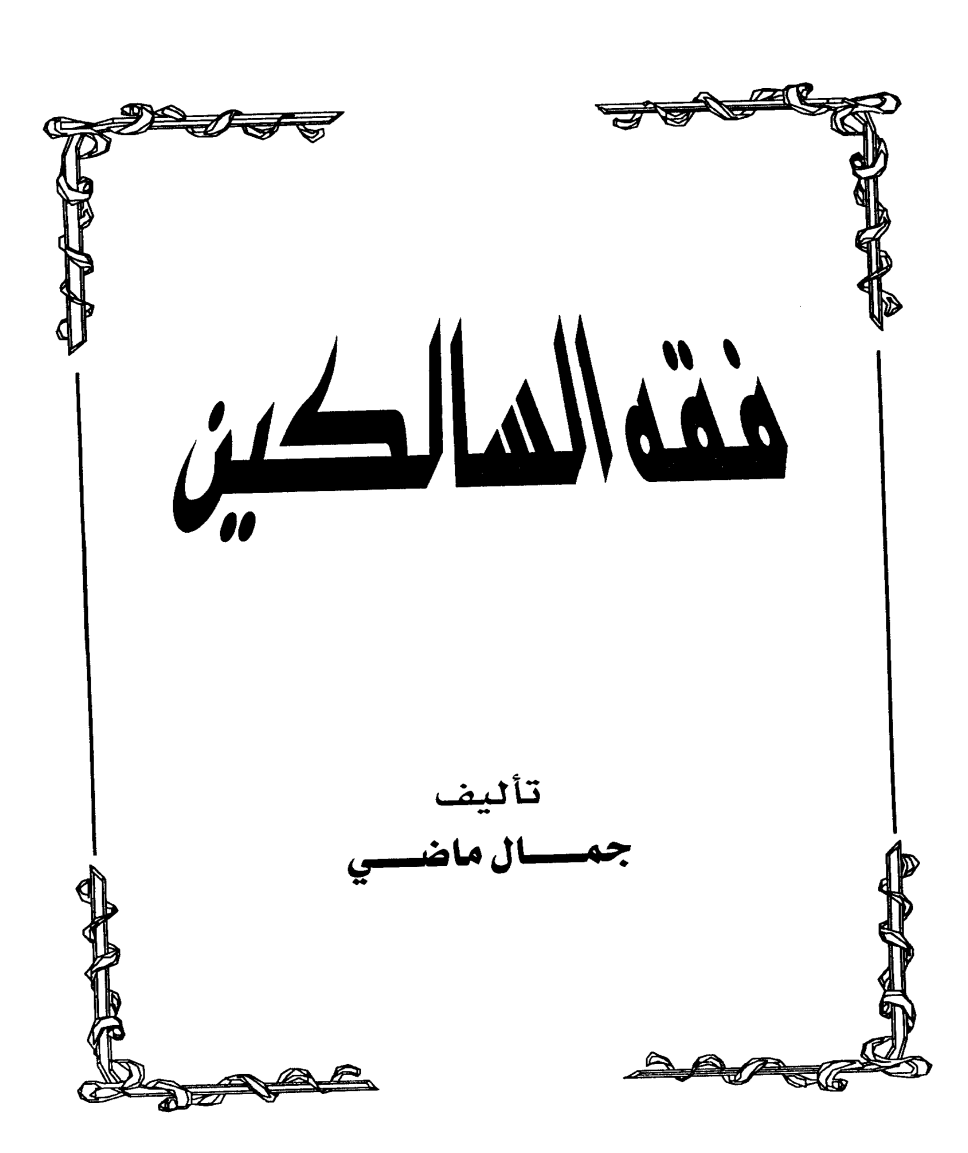


فقه السالكين

تأليف
جمـــال ماضـــي



الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ماضي، جمال
فقه السالكين/ تأليف جمال ماضي..- ط١-
القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ٢٠٠٦
٢٤٧ ص، ٢٤ سم
تدمك: ٢ ٧٤٢ ٢٦٥ ٩٧٧
١- التصوف الإسلامي
أ. العنوان
٢٦٠

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٣٢٣١
الترقيم الدولـــي: I.S.B.N
977 - 265 - 742 - 2

مركز السلام للتجهيز الفنى
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

دار التـــوزيع والنشـــر الإســلا مـيــة

مصـــر - القاهـــرة - السيدة زينـب ص.ب ١٦٣٦
٢٥١ش بور سعيد ت:٣٩٠٠٥٧٢ - فـاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة : ٨ ميدان الســيدة زينـب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

مقدمـــة:

إن القلب هذا الأعجوبة في تقلبه وفي أحواله وفي تأثيراته، وفي علاقته بالكون والنفس والحياة والعوالم أجمع، إن هذا القلب بهذه الأوصاف يسير وفق فقه دقيق، وعلم أدق، مقصوده إصلاح القلب فيصلح الإنسان كله، وإصلاحه يعني صفاءه وعلاجه مما يعتريه من أمراض، هذا العلم لا يتذوقه إلا المسلمون، وهذا الفقه لا يعرفه إلا المؤمنون، فالكافرون محبوسون في ظلمات أنفسهم لا ينفكون عنها ولا يخرجون منها: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۞ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

وحقيقة السير إلى الله أو سلوك الطريق هو سير القلب، وليس بيننا وبين الله مسافات تُقْطَع، وإنما السلوك هو تحقيق معان، والتحقق بها، وقطع عوائق وعلائق، وعلامات السير الحقيقي في الراحة بعد التعب والصفا بعد التخبط والمعرفة بعد الإنكار.

وعلي هذه الحقيقة فإن المؤمن ما يزال يجاهد ويكابد، ويواجه

العوائق من دنيا ونفس وهوى وشيطان متسلحًا بذكر وفكر وتوجه صادق لله وحب خالص لمولاه، حتى يصل إلي ربه، ومعني الوصول إلي الله هو الوصـول إلـي العلـم به، والمراد به علم القلب عن طريق ما أوجده الله من آثار تدل على أسمائه، وأسماؤه تدل على صفاته، وصفاته تدل على ذاته فمتى وجد الوصف فقد وجد الموصوف. وهذا الكون المفتوح آثار الله لمن يقرأها فيتعرف على أن الله متصف بالعلم والإرادة والقدرة والحكمة والإبداع والإحياء والإماتة والإعزاز والإذلال والوحدانية والصمدانية والأولية والبقاء والمخالفة للحوادث والسمع والبصر.. فاقرأ الكون باسم الله تصل إلي الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥].

وآثار ذلك في القلب أنوار هي مطايا القلوب في سيرها، لها حلاوة يتذوقها المؤمنون، وبها يرقون، وفي عوالمها يقتربون من الله تعالى.

ومن خلال [الحكم العطائية] لابن عطاء الله السكندري وما واكبها من شروح عدة للشيخ زروق والشيخ ابن عجيبة والشيخ ابن عباد والشيخ الشرقاوي وللمحدثين كالشيخ سعيد حوي وما كان حولها من تعليقات عدة للشيخ عبد الحليم محمود والمحقق محمد أحمد حسب الله والشيخ الإمام الشهيد حسن البنا في توضيحاته عن علم التربية والسلوك.

وجدت من خلال ذلك كله قواعد ومنهجا وعلما ودعوة إلي العمل والتحقق بالمعاني أسميته (فقه السالكين)، وقبل أن أشرع في جمع مادته ألزمت نفسي بقواعد لعرض هذه المعاني الهدف منها توضيح السلوك وتجميع الهمم لكل مسلم يعيش على أرضنا، وفي عصرنا، ويواجه المعاناة اليومية التي تمر بها أمتنا المسلمة لينهض إلى ربه عن بينة، ويحقق المعاني بسلوكه وتتحول في أكيانه ودمائه إلي تنفيذ وتطبيق، وذلك عن طريق محاور واضحة كيف يخرج من سجن الهوى ويدخل علي المولي؟

- كيف يجلو مرآة قلبه حتى تتجلى فيه أنوار ربه؟
- كيف ينهض إلى الله ويسير في طريقه حتى يصل إلى الله؟
- كيف نسير معا يحاذي بعضنا بعضا حتى تقف بين يدي ربك، وهنالك نقول لك: ها أنت وربك!!

أما القواعد فهي:

أولاً: الابتعاد عن الألفاظ التي قد تسبب مفهومات مختلفة:

فقد درج الذين تحدثوا أو تحققوا أو تدارسوا هـذا العلـم علـى اسـتخدام ألفـاظ تحتاج إلى شروح، وقد تسبب مفهومات مختلفة أمام تبـاين النـاس في مراحـل العمـل والعبادة مثل: المريد والسائر والسالك والعابد والزاهد والعـارف وغيرهـا، أو الحـال والمقام أو الرؤية والشهود أو الأذواق والمكاسب والمواهب أو النفس والقلب والروح والسر أو الملك والملكوت والجبروت أو عالم الغيب وعالم الشهادة، وغـير ذلـك كـثير ليس المجال حصره بقدر أن قاعدتنا في ذلك الابتعاد بقدر الإمكان عن استخدام هـذه الألفاظ.. فالعبرة بالمسميات وليست بالأسماء وبالتحقق بالمعنى ولـيس بحفـظ اللفـظ ومعرفة المعنى، فالأشكال والصور والرسوم لا معنى لها إن لم تكن في واقع ملمـوس، وكلما قرَّبنا من هدف الكتاب ومحاور البحـث فيـه بقـدر الإمكـان جعلنـاه قاعـدة في الجمع والتبويب والعرض.

ثانيًا: الإسقاط على واقعنا ولغة عصرنا وما يعانيه المسلم في يومه مع إيمانه:

إذ كيف يتحقق المقصود حينما ننقل القراء إلى عصر غير عصرهم، وإلى حياة غير حياتهم، وإلى واقع يصطدم مـع واقعهـم، إن مـا يعانيـه المسـلم مـع قضـية الإسـلام والإيمان والإحسان في يومه هو ما يريد الإجابة عنه، خاصة أن هذا العلم ظل حبيسـا لبيئة واحدة، وعندما تم عرض أجزاء منه عرضت كمـا هـي في عصـر طابعـه التطـور والتقدم والابتكار والاتصال والمعلومات والمعرفة، فكان لابد لبيئاته أن تختلف، ولكن ذلك لا ينسينا الثوابت والمتغيرات، فهناك في كل علم ثوابت لا يختلف عليها اثنان في أي زمان أو مكان، ولكن المتغيرات هـي بـالطبع مـا نتحـدث عنـه، وسـتجد خـلال العرض شواهد عدة من القرآن والسنة لمسايرة المتغيرات والإسقاط عليها.

ثالثًا: الضرب بأمثلة الواقع الملموس القريبة إلى الأذهان وحياة الناس:

فإذا اتفقنا على القاعدتين الأولى والثانية كان طبيعيا أن نفهم هذه القاعدة، فكان من الطبيعي أن تكون الأمثلة الواردة في هذا العلم مرتبطة بألفاظ وبيئات العصور التي

دونت فيه، لذلك كان من الواجب علينا أن نقرب الأذهان إلى تلقي هذا العلم بضرب أمثلة من واقع الناس وحياتهم، فتحقق هدفها من استحضار المعنى والاقتناع به، وهذا ما يدفع الإنسان نحو العمل والمداومة عليه والثبات في تحقيقه.

وليس معنى ذلك أن نضرب عرض الحائط بكل الأمثلة التي اجتهد فيها علماء هذا العلم فربما كان المثل لا شبيه له، أو عقل الإنسان وفكره لا يقبل إلا إياه، فسقناه كما هو ما دام يحقق المقصود.

رابعًا: التقاط (المعنى) وتوضيحه وتقديمه بصورة ميسرة غير جافة ولا مخلة به:

الواضح أن كل الذين كتبوا في ثنايا هذا العلم سواء كان في الوعظ والتذكرة مثل ابن الجوزي والمحاسبي والإحياء وقوت القلوب ورسالة القشيري، أو في مجال الأعمال وتصحيحها ومنازل السير إلي الله مثل مدارج السالكين لابن قيم الجوزية وكتب الحاتمي في المعاملات أو في المعارف والعلوم القلبية ومن أجمعها الحكم العطائية والتنوير ولطائف المنن اللذان هما كالشرح لجملة الحكم. كما قال الشيخ ابن عباد في وصف التنوير: وهما أخوان من أب واحد وأم واحدة وهكذا ألمح أيضا الشيخ زروق في بعض شروحه.

الواضح أنهم جميعا كانوا يتفقون علي أن يصل معني من خلال العرض إلي المسلم ليحققه، ولذلك جاءت هذه القاعدة بغض النظر عن الألفاظ والعبارات والشروح والأمثلة والتعليقات التي تخرج عن المعني ولكي نحقق مقصود هذه القاعدة، كان الالتزام بتيسيرها في العرض لتبعد عن الجفاف الذي لا فائدة معه، أو الخلل المعكر لصفو المعني ووضوحه، وكلما وضح المعني كان الفهم وإذا تحقق الفهم كان العمل، فإذا رزقك الله الفهم، ألهمك كيف تصنع؟

خامسًا: تعميم هذا العلم فهو ليس حكرا على أحد أو خاصًا بأناس فقط.. فأبواب الوصول مفتحة:

ومعني هذه القاعدة أنه في عصور الترف حاول العلماء أن يجلبوا الناس إلي حلقاتهم، وإلي تلقي العلم وإلي العمل به وتطبيقه، ولم يكن الانحراف إلا على

مستوي الأفراد أما الدولة فكانت تحتكم إلي الشريعة وتلتزم بالقرآن وتدعو إلي الإسلام ولم تعطل الجهاد، وإنما كان علي مستوي الأفراد الذين وقعوا فريسة للترف الذي أفسد أنفسهم وقلوبهم وأحوالهم، فكان على العلماء أن يصنعوا قواعد أقرب إلي الغموض وذلك حتى يتمني الناس الرجوع الدائم إليهم في شرح هذه القواعد وأصبحت شروحها خاصة لا يتلقاها إلا المتقدمون فقط وليست لجميع الناس، ومع أن الغرض كان نبيلا، إلا أنها أصبحت محدودة الفائدة، ولذلك فهذا العلم مع أهميته لا يخرج عن دوائر الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ للعالمين والناس كافة، وللمؤمنين كل المؤمنين، فالوصول إلي الله تعالى ومعرفته وفهم هذا العلم به تعالى، مفتحة أبوابه لكل مسلم متجرد لله يريد وجهته وحده، ولذلك جاء النشر لعامة المسلمين، وقد نكون بتحقيقنا للقواعد السابقة قد أجبنا عن سؤال يقول: ولكن هذا العلم لا يفهمه كل الناس، وقد يجعلهم في حيرة من أمرهم فليطمئن سائلنا فقد توخينا ذلك بالفعل، فهو تعميم بما يضمن النهوض إلي العمل، والتقدم في السلوك، والرقي في الأحوال.

سادسًا: عرض الحقائق بغض النظر عن أفكار حامليها وأشخاص قائليها دون تعصب لأحد سواء كان ذلك رأيًا أو شخصًا:

الحقيقة هي ما يجريه الله على لسان أو قلم صاحبها، وهو أول المستفيدين بها قبل سامعيها أو قارئيها والحقيقة هي التي يتلقاها الناس فتنقلب بالتأمل والوعي إلي بيان وقناعة على ضوئها يكون العمل والتنفيذ، ولما كانت من الله تعالى، فلم نتعصب لقائلها أو راويها أو ملقيها، فقد يجعلنا التعصب لقائلها بمنأى عن الوعي بها أو استيعابها أو معرفة معانيها، وربما أدخل الكثيرين في دوائر الجدل والمراء الذي لا يأتي من ورائه خير.

ولذلك توخينا عرض الحقيقة دون تعصب لجماعة أو شخص أو رأي ، ولا يمنع ذلك بإحالتها إلى قائلها أو مصادرها المعتمدة، فهذا أصل آخر متفق عليه.

سابعًا: استكمال محاولة الشيخ الإمام الشهيد حسن البنا فيما أطلق عليه (علم السلوك والتربية):

وكذلك أمنيته في إتمامه لولا قدر الله تعالى، فقد قتله رصاص الغدر والإرهاب

وعمره اثنان وأربعون عاما، وهذه محاولة لاستكمال محاولة صاحب فكرتها الإمام الشهيد، وقد تواكبها محاولات أو تتلوها محاولات وكلها ناجحة لحاجة عصرنا إليها، وحاجة كل مسلم للتعرف علي ربه والاهتداء إليه، وهي ليست مرتبطة بفكر معين أو التصوف كحركة، وإنما ارتباطها المباشر -كما أراد الإمام البنا- بالإسلام والإيمان والإحسان، حتى نضمن لها النقاء والصفاء الذي كانت عليه الرسالة كما أرادها الله تعالى وبيَّنها رسوله الكريم ﷺ.

ثامنًا: مباسطة الأحوال المتقدمة في الوصول إلي الله ومعرفته دون تضخيم:

وذلك بعرضها على الكتاب والسنة ودون تحقيرها أو إنكارها ما دامت لا تخالف الأصول الشرعية. فكما تبين لنا أن التضخيم والعبارات الغامضة وخاصة لمدارج السالكين ومنازل السير والأحوال المتقدمة في معرفة الله تعالى كانت ضرورية في عصور بعينها لأغراض نافعة، أما وقد وضح السبيل، وتبين الصراط المستقيم، وليست هناك صغيرة ولا كبيرة إلا وقد بينها الكتاب وأوضحتها السنة، فلماذا لا نتناول هذه الأحوال من خلال هذا الإطار ولا نحقرها أو ننكرها إن خالفت عقلنا وفهمنا وعلمنا وحالنا ما دامت لا تخالف أصلاً شرعيًا، فربما لم نصل نحن إليها بعد. إن الأمة بأسرها تصوم رمضان لعدل رأي الهلال فتسلم له ولم تر الهلال معه؟! فلم لا نسلم لأناس ذاقوا حلاوة تتفق مع الإسلام ولا تخالف أصوله، بمجرد أننا لم نذق تلك الحلاوة؟ فلمَ لا نجتهد ونكون مثلهم حتى يمن من منَّ عليهم بالعطية؟!

تاسعاً: ما كان عليه السلف أن نجاح الأمر بعون الله وتوفيقه:

ولذا نسأل الله عونه وفتحه وتسديده، فنية الخير رائدنا، والله غايتنا ومقصودنا، والأمر أمره من قبل ومن بعد، عليه نتوكل وبه نستعين، وحاولت بقدر الاستطاعة قبل التدوين والكتابة أو الجمع والدراسة أن ألزم نفسي وقلبي بالدعاء والمناجاة والصلاة والتضرع والأدب أن يتقبل الله منا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتنا، وأسأل القارئ الكريم الدعاء مع كل معنى ومع كل عمل، جمعنا الله جميعا في جنته.. اللهم آمين.

وبعد..

وعلى ضوء ما سبق جاء الكتاب على ستة فصول:

الفصل الأول: بدايات السلوك.

الفصل الثاني: أصول طريق السالكين.

الفصل الثالث: علامات على الطريق.

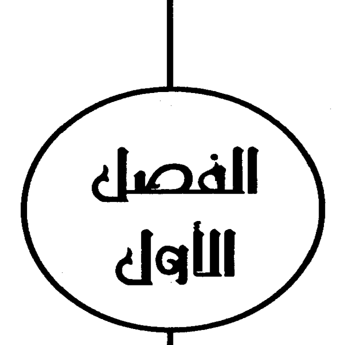
الفصل الرابع: طبيعة طريق السالكين.

الفصل الخامس: عقبات على الطريق.

الفصل السادس: فن التعامل مع الناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

جمال ماضي



بدايات الســـلوك

١- كما تقابله يقابلك.

٢- آداب السالكين.

٣- إعرف عيوبك.

٤- بدايات المعرفة.



الفصل الأول : بدايات السلوك

١- كما تقابله يقابلك

*** الاعتماد على الله :**

البداية الناجحة تنبئ بنهاية مشرقة، ونبض البدء الصالح إنما يكون في الاعتماد على الله وحده، فلا العمل ولا السعي ولا الحول ولا القوة ولا النفس بمنجاة إن اعتمد عليها الإنسان، إنما الاعتماد على فضل الله ورحمته وهدايته وتسديده، وإن كان فضل الله لا يناله إلا العاملون فإنهم لا يصلون إليه إن اعتمدوا فقط على عملهم فقد روت السنة قول النبي ﷺ: «**سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة منه**».

ومن علامات الاعتماد على الله أن يستوي الخوف والرجاء، فاحذر من اعتمادك على عملك؛ لأن الرجاء يقل إذا قل العمل ويكثر إذا كثر العمل، فإن قلَّت ثقتك بالله إذا أخطأت فاعلم أن ذلك نتيجة لاعتمادك على عملك.

أما الاعتماد على الله فمعناه العمل المتواصل، يقول تعالى: ﴿**لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ**﴾ [الحجر: ٤٨] أي تعب، ولكن لا تدرك الراحة إلا بعد التعب ولا يحصل الظفر إلا بالطلب «**حفت الجنة بالمكاره**».

أيها العاشق معنى حسننا	مهرنا غال لمن يخطبنا
جسد مضني وروح في العنا	وجفون لا تذوق الوَسَنَا
وفؤاد ليس فيه غيرنا	وإذا ما شئت أدِّ الثمنا

*** ارْضَ بما أنت عليه :**

مَنْ لا يحب أن يكون داعية أو زاهدًا أو مجاهدًا أو عالمًا؟ ولكن ماذا لو أن الله تعالى حباه موهبة وعملا ومهارة في سبب من الأسباب؟ كطبيب حاذق أو صانع مبدع

أو زارع نشط أو تاجر أمين؟ فما عليه أن يفعل؟ هل يترك عمله باسم ترك الدنيا ليعمل للآخرة؟ إن إجابة شيوخ التربية تحمل الفهم الهادئ للواضع قدمه في طريق السالكين الرافع لراية: (الوصول إلى الله) تقول: من يفعل ذلك فإنما تدفعه (شهوة خفية) يبغي الراحة تحت رداء التبتل والانقطاع، فهي ليست عن رغبة أخروية خالصة.

أما هؤلاء المخْصُوصُون بالعلم أو الزهد أو الدعوة أو الجهاد وليس كل الناس كذلك، فلو تركوا ما هم عليه وانشغلوا تمامًا بالدنيا حيث يندرس أثرهم، فقد قيل عنهم وعن عملهم: (انحطاط وانتكاس وهبوط ونزول عن الهمة العَلِية).

فاحذر من أن تقع في شهوة وحظ للنفس، أو أن تنتكس همتك من مرتبة سامية، والحل في أن ترضى بما أقامك الله فيه، واسمع لابن عباد:

(افهم رحمك الله أن من شأن العدو أن يأتيك فيما أنت فيه مما أقامك الله فيحقره عندك بتطلب غير ما أقامك الله فيه فيشوش عليك قلبك ويكدر وقتك).

ولابن عطاء قول جامع في التنوير: (والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك، حتى يكون الحق هو الذي يتولى إخراجك كما تولى إدخالك، وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب).

إن نجاح الرضا يكون بالهمة، ولكن مهما كانت الهمم عالية فهي ليست هدفا ومرادا، لأن هناك قدرا لا يستطيع أحد أن يخرج عنه، وهذا كما علَّمنا ديننا لا يتنافى مع الأخذ بكل الأسباب، ظل النبي ﷺ خمسة أعوام في عمل متواصل ودعوة لا تتوقف، فما آمن بدعوته أكثر من أربعين فقط، وهذا أول الغيث في طرق باب المعرفة. قيل لأحدهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، نعم أعمل بأعلى همتي، وأرضي بقدره، وإن نقض سعيي، لأنه تحقق معرفة الله.

*** كن على بصيرة:**

سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار، ومع ذلك أحكم قدوة السالكين تدبيره للأمور كلها، فقد كان من سنته ﷺ تنظيم الأحوال وإحكام تدبيرها ولكن على بصيرة.

فما معنى بصيرة التدبير؟

الناس كلهم يدبرون لصحتهم ولطعامهم ولشرابهم ولأرزاقهم ولسائر أعمالهم، وهذا تدبير مباح، ولكن البصيرة في التدبير هي: معنى التدبير وحقيقته إنما تكون فيما طلب منك وليس فيما ضمن لك، فقد ضمن الله لك الرزق وكفله لك كما كفل الحياة، فاجتهادك فيه وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك.

وليس معناه ترك الأول وإنما هو تقديم الأهم على المهم، لأن المطلوب منك كل ما يسع الدنيا والآخرة ولكن شتان بين أن تدبر من خلال قيامك بتكليف رباني وبين أن تدبر لتحظى بحظ دنيوي لنفسك.

فبصيرة التدبير: أن تجتهد في المطلوب منك ولا تترك المكفول لك.

وعلامة انطماسها: أن تجتهد في المكفول لك وتترك المطلوب منك.

أو بمعنى آخر: تدبيرك ما كلفت به من طاعات وواجبات وعبادات مع التفويض إلى الله وقدره يسمى النية الصالحة وكما قال ﷺ: «**نية المؤمن خير من عمله**» فهذا هو التدبير البصير، الذي يؤدي بك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله.

وقد قال الشيخ زروق: (إذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله في الظاهر بخدمته، وفي الباطن بمحبته، فكلما عظمت المحبة في الباطن والخدمة في الظاهر قوي نور البصيرة حتى يستولي على البصر، فيغيب نور البصر في نور البصيرة فلا يرى إلا ما تراه البصيرة من معان، وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله في الظاهر بخدمة الأكوان وفي الباطن بمحبتها فلا يزال كذلك حتى يطمس نور بصيرته فيستولي نور بصره على نور بصيرته فلا يرى إلا الحس ولا يخدم إلا الحس، فيجتهد في طلب ما هو محتوم من الرزق المقسوم ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم).

* الرضا باختيار الله والثقة بوعده

قالوا: (إذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله واقنع بعلم الله، ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلة)، وكان من فقه العارفين قولهم:

(الناس تقضي حوائجهم بالحرص فيها والجري عليها، ونحن نقضي حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها).

رأينا هذه الحقيقة وعشنا بمشاعرنا في أجوائها، فما وجدنا إلا خيرا عظيما، وكان من حلو دعائنا: اللهم صب علينا الخير صبا. نقولها في نشوة مبتهجين بنعم الله التي تترى.

وفي جو الرضا باختيار الله والثقة بوعده يتنسم المؤمنون عطرًا ريحانًا تنشط به روحهم، وتنفسح له صدورهم، ويكونون أسعد خلق الله بالله، فتراهم وإن لهجت ألسنتهم بالدعاء، كان دعاؤهم عبودية، لا طلبا للحظ، وهل يرفعهم الحظ مهما انتفش إلى هذا الحال الرقراق؟ بل دفع بعضهم إلى قوله: (إن تركت الحظوظ صُبَّت عليك الحظوظ).

وفي جو الرضا باختيار الله يلِّحون ويتضرعون بين يدي مولاهم طالبين، وقد يتأخر وقت العطاء من ربهم، فتراهم مستبشرين بوعده الجميل. ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠]، لا مكان ليأس، وهم يعيشون في رفده وينعمون بنواله، وكيف وقد ضمن الحبيب الإجابة!! فقد يمنعك لطفا بك لسر قوله تعالى كما قال المفسرون: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾ قالوا: ما موصولة، أي ويختار الأمر الذي لهم فيه خيرتهم، فقد يكون في التأخير اختيار الأصلح والأنفع، لقوله ﷺ: «**ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث: إما أن تُعجَّل له طَلِبَتُهُ وإما أن يُدَّخَر له ثوابُها، وإما أن يُصْرَف عنه من السوء مثلها**»، فقد ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد..

وفي جو الرضا باختيار الله لا تستعجل الثمرات قبل أوانها فمن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، فإن أُبطِأَت الثمرات تراهم لا ييأسون أو يفترون أو يتركون العمل، وإنما تسري في كيانهم روح عاقلة تحدوها الثقة وترمق الوعد الجميل، تقول للنفس: كفاك تقصيراً.. ألا تشمرين.. ألا تصبرين لا حل إلا بالعمل، وفي العمل حياتك... انهضي... يا نفس صبرا لا تجزعي، وفي مسامعها قول المولى عز وجل:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧].

فإن قال قائل: وعدنا بالنصر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].. فما لنا نعمل ونعمل ولم يأت النصر؟ ترى الراضين يجيبون وقد علت وجوههم بسمة الرضا وانفرجت سريرة الثقة لما تعمق من معنى، فلا يشكون في وعده، إن مهمتهم الاستمرار في العمل، وهذا وجه أبي بكر الصديق يعلوه هذا الحال وهو يرد على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حينما كانت رؤيا النبي ﷺ بدخول مكة... ولم يحدث في العام ويسأل عمر ويرد الصديق: أقال لك في هذا العام؟ قال: لا، وقد اعتمروا في العام المقبل، وهل يشك الصديق في وعد الله، فليطول الزمان أو يقصر فإنه واقع لا محالة، قيل: ما بين دعاء موسى وهارون عليهما السلام على فرعون بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، وبين تنفيذ الدعاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٦]، كانت أربعين عاما، فإن ألححت على الله بالدعاء، وكان على غير ما أردت العطاء، أو لم يعجل لك النداء، فتذكر الصديق... وكأنه يقول لك: يكفيك التصديق بأن تستمر في العمل مهما كانت الأحوال، أقبلت أم أدبرت، أمطرت أم حبست، يقول بعضهم: إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة.

ويقول ﷺ: **«يستجاب لأحدكم ما لم يُعَجِّلْ فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي»**.

وهذا سر مناشدة النبي الكريم لربه الأعظم بالثقة في وعده والرضا باختياره، في يوم بدر حينما سقط رداء النبي ﷺ وهو يقول:

«اللهم عهدك ووعدك. اللهم إن تَهلك هذه العصابة لم تُعبد بعد اليوم».

نعم... الإجابة أمرها إلى الله تعالى يجعلها متى يشاء ولكنها حاصلة لكل داعٍ بحق حسبما ورد الوعد الصدق، فأين الصديقون؟!.

أبجديات في المعرفة:

ما زال الإنسان يعمل ويسعى في الخيرات بل ويكثر منها لنداء الله لكل مسلم في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وملبيا قول النبي ﷺ: «بادروا بالأعمال...» رواه مسلم فتراه يتقرب بالنوافل بعد أدائه للفرائض باحثا في بحر الأعمال، يغوص ليلتقط الباقيات مشمرًا دومًا في الخيرات، يهديها لمولاه، ليكون إليه بها واصلا.. فهل بهذا يكون قد تعرف على الله؟!! وهل المعرفة في أن نتعرف على الله؟ أم أن يتعرف الله علينا؟ أم الاثنان معا؟ (إذا تعرفت على الله تعرف عليك، وإذا تعرف عليك تعرفت عليه) نعم بهذه البساطة فقد قال قائلهم: (إذا فَتَحَ لك بابا ووجِهة لتعرفه منها، فاعلم أن ذلك من الله اعتناء، ولك اجتباء، واصطفاء) ومن يعتني به ربه ويصطفيه يقابله بالرضا والتسليم بل بالفرح والسرور، ومع الأعمال التي يقدمها لربه، يفتح بابا جديدا من أعمال قلبه حيث تستقر المعاني وتودع الحقائق وتثبت العقائد وتقر المعرفة، فقد رفع الله بينه وبين عبده الحجاب، وطوى مسافة الإبعاد، فتتنزل المعارف الربانية ومعها الأنوار. ومع الاهتمام بالأمرين يفقه العاقلون بأن أعمالهم وأحوالهم مهما بلغت فشتان بينها وبين ما يودعه الله في القلب من معارف، وعلى ضوء ذلك طابت أنفسهم حينما تنزل عليهم من ربهم نوازل قهرية كالأمراض والأوجاع والشدائد والأهوال وكل ما يثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذل وإيذاء الخلق من ظلم وقهر وسحل وسلب للحريات، فلا يعجب المتعجبون من أمر الله!! بينما هم في حيرتهم ودهشتهم تدور أعينهم عجبا!! إذ بهؤلاء ينظرون إليها أنها نعم من ربهم كبيرة يختبرون في صدقهم بها فقد قالوا: (بقدر الصدق يعظم التعرف).

(أشدكم بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل)

يقولون: إذا أراد الله أن يطوي مسافة البعد بينه وبين عبده سلط عليه البلاء، حتى إذا تخلص وتشمر صلح، وما زال العارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها..

إذا طرقت بابي من الدهر فاقة ... فتحت لها باب المسرة والبشر

وإني بهؤلاء الذين يظنون أن المعرفة واليقين ما هي إلا متون تلوكها الألسن، ومن كثرة ما ظهرت على ألسنتهم توهموا تحققهم من ذلك، مساكين هؤلاء، ضحايا الغفلة، وصرعى الجهل، فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار، ألقتهم في مهاوي القنط والإنكار، وقد قيل: (من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان).

يقول أحد العارفين:

(العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله ويحرص عليه فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره).

وفي أجواء التعرفات من الله الجليل، يتعرف العبد على مكانته من ربه إما عقوبة وطرد أو تأديب وتربية أو زيادة وترقٍ... وكلها أبواب للمعرفة.

فهل تهرب أم تقر؟ أم هل تنكر أم تصدق؟ نعم.. كما تقابله يقابلك.

ولكي تشرق المعرفة وتزهر، نظر الصادقون إلى أعمالهم مهما قلت أو كثرت، مهما عظمت أو صغرت، أنها ليست سببا في المعرفة وأن المعرفة ليست أثرا لهذه الأعمال، إنما هي نعمة من الله تعالى وفضل، فنأوا بأنفسهم عن الغرور بعملهم أو الشعور بالعجب به، ولما تعمق ذلك في كيانهم امتلكهم شعور التعامل المباشر مع ربهم، فالقضية ربانية محضة، فازدادت عبوديتهم فأشرقت المعرفة، فأغدق الرب عليهم بألوان من العمل، لكل تأثيره في القلب، فما زال يعمل فيه حتى صفا، فلما صفا سلم ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، فتراهم بين صيام وصلاة وجهاد وزهد وعبودية وورع وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، أو عبادات مالية وأخرى لسانية أو حركية، والقلب من كل ذلك يتزود وفي الحديث:

«إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

*** نفع العمل والقلب:**

العمل ينفعه الإخلاص والخفاء، والقلب ينفعه التفكر والاختلاء والعزلة، ووفق

هذا تدور الأقاويل، وتكثر الصياغات، وتتنوع الأساليب، ويبقى المعنى لمن أراد وأراد... الكل يعمل ويحب العمل ولكن لماذا نقدم أعمالا لا روح فيها؟ أعمالاً هامدة فارغة بناصية كاذبة خاطئة!! فالأعمال تحيا بالإخلاص وتموت بعدمه، ولا عبرة بها إن نزع منها روحها يقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وفي الحديث القدسي يقول تعالى عن الإخلاص: «**هو سر من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده**» بل قالوا: به يتحقق مقام الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه**».

يقول بعض العارفين: صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة.

وأعمال الدعاة بالإخلاص روح تسري في قلوب الناس تحييها وتبث فيها الحركة، حيث تتحقق أهداف الإيمان، أما إن خلت من الإخلاص فلا حياة لمن تنادي وتتحول الأعمال الدعوية إلى صيحات عرجاء وصرخات فارغة.

وقد تتوج الإعمال بالإخلاص ولكنها لا تؤتي ثمارها ولا تحقق نتائجها، ويراجع أحدنا إخلاصه فيجده متوافراً فما سر ذلك؟ إن الإخلاص نفسه له روح إن توافرت حقق العمل نتائجه، وروح الإخلاص في تعهد الأعمال بالكتمان والخفاء، فقد قال العارفون: لا تجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبداً، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه... والحبوب إذا ألقيت في الأرض ولم تدفن دفنا كاملا يكون نتاجها ضعيفا أو لا يتم أصلا، قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض. قال: كذلك الحكمة لا تنبت إلا في القلب كالأرض، وقد قال قائلهم: كلما دفنت نفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماءً سماءً، يقول ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طِمْرَين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره في قسمه**».

وكان ﷺ جالسًا مع الأقرع بن حابس كبير بني تميم، فمر عليه رجل من فقراء المسلمين فقال ﷺ للأقرع بن حابس: **ما تقول في هذا؟** فقال: يا رسول الله من فقراء

المسلمين، حقيق إن خطب ألا يُزوج، ،إن استأذن ألا يؤذن له، وإن قال ألا يسمع له، ثم مر بهما رجل من المترفين، فقال له ﷺ: «**وما تقول في هذا؟**» فقال: هذا حقيق إن خطب أن يُزوج، وإن استأذن أن يؤذن له، وإن قال يسمع له، فقال ﷺ: «**هذا** (يعنى الفقير) **خير من ملء الأرض من هذا** (المترف)».

ورحم الله صاحب النقب، فما خلا دعاء الأمير بعدها إلا من قوله: (اللهم اجعلنا مع صاحب النقب) الذي غيَّر المعركة إلى نصر دون أن يعرفه، فمن سعى إلى أن يعرفه الناس سقط من عين الله، ومن سقط من عين الناس ارتفع في عين الله، ويكفي العبد أن يعرفه ربه، وتحقق فيه شعار جميل: الخفاء في الظهور والظهور في الخفاء، مما دفع الشيخ الشرقاوي إلى قوله واصفا هذا النموذج الفريد: (فمبنى أمره في الابتداء على الفرار من الخلق، وإخمال الذكر وعدم حب الشهرة، حتى إذا لقي ربه كان مع مولاه إن شاء أظهره وإن شاء أخفاه).

وكذلك العمل القلبي لا ينتفع إلا بالتفكر والخلوة وما أحلى أن يجتمعا معا، بل هما متلازمان تلازم الداء والدواء، فلا خير في خلوة لا فكرة فيها، والتفكر هو سير القلب إلى مولاه؛ تصديق وإيمان ثم شهود وعيان. كذلك لا نهوض لفكرة لا خلوة معها، إذ مقصود الخلوة تفرغ القلب للتفكر والفهم عن الله ثم تمكن العلم بالله الذي هو دواء القلوب، ومنتهى صحتها.

والخلوة ركن من أركان السير الخمسة: الخلوة والصمت والسهر والجوع والذكر، وليس الهدف منها أن تكون هدفا في حد ذاتها بل هدفها الانقطاع لصلاح القلب، وجمع شعثه من ميادين مختلفة إلى ميدان واحد، فإنه مالم يجتمع على الله يجر إلى الميادين، وقد تتحقق الخلوة ولا يجتمع القلب على ربه، لذلك يقول كعب: من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر، وقيل لأم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء قالت: التفكر...، وبالتفكر يجتمع القلب على ربه، حيث يرى نفسه بحسنها وقبحها، ويرى عظمة ربه وجلاله، ويطلع على آلائه الجلية والخفية فيستفيد بذلك أحوالا سنية يزول بها مرض القلب... وهكذا كان فقه الحسن البصري ﷺ.

والخلوة لا فائدة لها بدون فكرة، وقد تكون إحدى ثلاث: خلوة قلب بمعنى أنه مع الناس بشخصه ومع ربه بقلبه، أو خلوة شخص دون القلب، أو الاثنان معا. وقد أجمع أهل السلوك على نفع الخلوات الثلاث ولكن الأولى والثانية تحتاج إلى شروط وضوابط للسلامة أما الثالثة فكلها نفع بل قل هي درجات في النفع يرتقى صاحبها بسعيه وعمله ونشاطه وفكره بين ثلاث:

خلوة ليسلم: صاحبها يقوم بواجبات وقته ويحسن الظن بالناس جميعا.

خلوة ليغنم: يضيف إلى الأولى الالتزام بالسنن مع الجد والتشمير في العمل.

خلوة لينعم: يضيف إلى الأمرين السابقين تحقيق الأحوال فيحقق المعاني ويبتعد عن الأقوال والأوهام.

وبذلك تتحول كل الأجواء -المحابس والسجون- إلى أجواء نعيم وارتقاء ونعم وأفضال، لو علمها السجان ما فعل فعلته، أرأيت حينما يحقق الإنسان ما ينفع عمله وقلبه يحظى بنعيم في وسط كل الأجواء والظروف.

*** موانع السير:**

عالم القلب عالم عجيب، والسائر يريد الوصول، قد يقف في مكانه لا يتحرك، أو يسير فلا ينهض، أو ينهض فلا يسرع، أو يسرع فسرعان ما يرتد لا يأمن العثار، وموانع السير في القلب أربعة:

أولاً: دنيا:

للقلب وجه واحد، ومرآته هي بصيرته، إذا أشربت بالنور أشرقت، وإذا أشربت بالدنيا أظلمت، وظلامها في الاعتماد عليها دون الله من حيث نفعها وضرها أو العبودية لها من حيث حبها واستحسانها أو الغفلة بها من حيث التعلق بشهوتها.

فإذا استولت الدنيا على القلب لا يرى شروقًا وإشراقًا أو إيمانًا وإحسانًا، لأن الضدين لا يجتمعان، يقول تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]،

وبذلك لا يستطيع صاحب الدنيا أن يقوم من مكانه ناهيك عن السير.

ثانيًا: شهوة:

أف لهذه الشهوات الفتاكة القاتلة، فما دام القلب محبوسًا بالميل إليها، فهو مقيد ومكبل في وطنه لا يرحل إلى ربه أبدا، وأني له أن يقوم وهو مكبل! وأني له السير وهو مقيد! فالترحيل والتكبيل لا يجتمعان، وإن كانا قد يجتمعان في الدنيا فلا يجتمعان نحو الآخرة، وهذا فضل وعفو كريم من المولى يريدنا أحرارًا نسير في خفة، ونسرع بلا علة لنصل إليه أصفياء قد حققنا العبودية، ولذلك كان يقول بعضهم: إن شئتم أن نقسم لكم: لا يصل إلى الله من في قلبه علقة.

ولقطع التعلق بالشهوات ينصحون بالرحلة والسفر والسياحة والهجرة، فيكون العبد كالماء إذا طال في موطن واحد تغير، وإذا جرى عَذُبَ، وهنالك لا يتعلق بعائق، وبقدر ما يسير في القالب يسير في القلب، ولنا في رسولنا ﷺ القدوة والأسوة فمنذ أن هاجر لم تكن له راحة إلا في السفر والجهاد حتى كان الفتح المبين ونصر الله، وكذلك كان الأصحاب رضوان الله عليهم لم يستقر في وطنه إلا القليل منهم حتى فتح الله على أيديهم سائر البلاد وهدى الله بهم العباد، وفي الشهوات يتوقف عقل القلب عن الفهم فيحجب صاحبه عن ربه، ففيما أوحى الله إلى داود عليه السلام: (أن حذر قومك كل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنى) فما فائدة قلوب لا يعقل بها صاحبها؟!!

ثالثًا: غفلة:

المسلم إذا أراد أن يقف بين يدي ربه فلا بد أن يتطهر من الجنابة أولاً، وقالوا: كذلك القلب إذا أراد أن يحضر الرب فلا بد أن يتطهر من الجنابة، وجنابة القلب هي الغفلات، وطهارتها بالمجاهدة والمكابدة ثم التأمل والتفكر، وبذلك يخرج القلب من غفلاته التي تمنع حضوره مع ربه.

وكما أن الجسد يمتحن فالقلب يمتحن، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣]، فالجسد بالمرض، والقلب بالفتن، ففي الحديث قول

النبي ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مُجخّيًا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه**» رواه مسلم.

رابعًا: هفوة:

المحبوس من حبسته الدنيا والشهوة والغفلة ولم يتب من هذه الهفوات، ولم يتحرر قلبه من رقها، فهل يطمع في الفهم عن ربه، وإنما الفهم عن ربه من ربه، فكيف يُنْعِم الله عليه بذلك وقد غمره الران فأعمى قلبه عن الفهم؟!

في وصية مالك للشافعي ـ رحمهما الله ـ: (اتق الله ولا تطفئ هذا النور -الذي آتاك الله- بالمعاصي)، ويقول أبو سليمان الداراني: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام، جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما.

فعلامة نجاحنا أن تتحرر قلوبنا في الخلوات والجلوات من الزلات والشهوات والغفلات، وأن تسرع بتوبة من كل هفوة، فتشرق فيها الأنوار وتشهد الله تعالى في كل لحظة.

فالأصل أن نرى الله في كل شيء وأن نرى الله قبل كل شيء وأن يكون القلب مجموعا على الله عز وجل، وأن يكون مستغرقا بالله عز وجل، والأصل كذلك ألا يحجب شيء قلبك عن ربك، فإن كان القلب محجوبًا فلعلة في القلب يجب التخلص منها والتوبة عنها... حقا عالم القلب عالم عجيب... والله تعالى كما تقابله يقابلك وبتحقيقك لذلك، وبتعميق فهمها، وبثبوتها في وجدانك نتركك على خير قائلين لك:

ها أنت وربك...فماذا أنت فاعل؟ وهذه جملة آداب لنبدأ السير وسلوك الدرب، جمعنا الله في جنته.. اللهم آمين.

***

٢ - آداب السالكين

*** الاستسلام والتسليم: (تسليم الرضا)**

الإنسان يتمنى أن يسلك الطريق إلى ربه، ولكنه يحجز نفسه عن الانخراط مع السالكين، بما أودع في نفسه من رغبة قلقة، فتراه ينكر على الناس ما هم عليه وما أقامهم الله فيه، بل ينكر على نفسه حاله ولا يرضى به، فإذا به مضطرب بلا علة، قلق بدون أزمة، نعيه دائم، وشكواه تتجدد، يكدر وقته، ويتعب كيانه، ولو علم أن مفتاح الراحة بيديه، لا ستراح بالتسليم والاستسلام لتصريف الله في الأيام والزمان، إنه الجهل بعينه، هل يستطيع أن يغير ما صرفه الله في الأوقات؟ جهل عقلي إذ كيف يغير واقعاً ويوقع ممتنعاً!! وجهل إيماني لأنه يعارض القدر وينازع القادر ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وجهل في خبرته بالحياة إذ يصطدم بسنة الله في عباده وحكمته في خلقه، فقد قيل: من طلب مالم يُخلق (يعنى الراحة في الدنيا) أتعب نفسه ولم يرزق، والخروج من دوائر الجهل أن يقر السالك الأشياء كما أرادها الله وأن يسير معها على سيره، فما كان عليه الناس من أحوال فهو في غاية الكمال والإتقان، وكذلك ما كان هو عليه، فمراد الله من خلقه ما هم عليه، ورحم الله أبا عثمان يقول: (منذ أربعين عاماً ما أقامنى الله تعالى في حال فكرهته، ولا نقلني على غيره فسخطته وصلى الله عليك يا قدوة السالكين، ما أنكر على أحد ما هو عليه بل رغبهم فيه، فقد ترى الأحاديث متعارضة ولا تعارض في الحقيقة، خاصة حينما يكون السؤال واحدا، والسائلون مختلفين، فكل سائل يخرج بحكمة النبي ﷺ التي رغبه فيها حتى يقول: لا أفضل منها، وإنما ذلك تطييباً لخاطرهم، وليكونوا راضين مُسَلّمين بما هو عليه ولم يأمرهم بالانتقال عنها قط.

*** المبادرة بالعمل: (بادروا بالأعمال)**

إذا كان - كما تبين- ترك الاستسلام في مجاله جهل، فترك العمل في وقته حمق،

وقد أطلقوا عليه (من رعونات النفوس) و(مراهقة نفسية)، وأسماه النبي ﷺ (الأحمق) في قوله: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

فمن آداب السالكين أن يكون كامل العقل ثاقب الذهب، ومن علامة ذلك انتهاز الفرصة في العمل، والفرصة تأتينا ولا نصنعها، والمبادرة بالعمل غير تسويف ولا أمل، إذ ما فات منه لا عوض له، وما حصل لا قيمة له.

وتأخير الأعمال إلى وقت تكون فيه فارغا من علامات الحمق والرعونة والغرور، إذ من أين لك أن تصل إلى ذلك والموت هاجم عليك من حيث لا تشعر؟! وكيف تحيل العمل إلى محال وهو تفرغك في هذه الدار؟ كأن لسان الحال يقول: لا أتفرغ إلا بالعمل، وأنت تقول: لا أعمل حتى أتفرغ..!!

وكيف تثق بنفسك في نزعاتها التي لا تفي بتنفيذها؟ إن الخروج من تلك الرعونة بتحقيق (ها أنت وربك!!) كما في الفصل السابق، فالدنيا واجتهادك فيما ضُمن لك دون ما طُلب منك هو الموجب لذلك. فكن من المغبوطين الذين يعملون في فراغهم وشغلهم، ولا تكن من المغبونين الذين يجدون فراغاً ولا يعملون لقوله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**». وإياك إياك أن تكون من المغترين الذين لم يجدوا فراغا فجعلوه علة أحالوا عليه العمل تأجيلا وتسويفا. والأدب المبادرة بالعمل والمداومة عليه و هذا من سنة النبي ﷺ: (كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما داوم عليه صاحبه)، (وكان آل محمد إذا عملوا عملا أثبتوه).. وفي سبيل ذلك وعلى ضوء احتياجات قلبك ووضعك ينصحك خبراء الأعمال بإلزام نفسك ببرنامج يومي من ذكر وقرآن ومطالعات وصلوات نافلة مع ترتيب أداء الفرائض، ويقولون: عليك أن تحتال لإقامة الأوراد كلما أتيحت لك فرصة، وابتعد عن قول: أنا مشغول فتقع في وهمها. وبهذا الأدب تدخل في تصرفات الحكماء.

*** الاستقامة بعد العمل: (استقامة العاملين)**

إذا من الله عليك بالمبادرة بالأعمال، وأقامك في هذا الخير واستعملك فيها، فإما

أن تثبت وتداوم، وإما أن تمانع وتقاطع، وفي الممانعة وقف للخيرات، وبالمقاطعة سوء أدب مع الرحمن، ومنازعة لجميل قدره لك، ولذلك كانت وصية الحبيب لحبيبه ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].. ولو سألت السالكين الذين نفذوا هذا الأدب لوجدتهم في هناء ورخاء، ورضا وراحة وتيسير وسلام، ويفصحون عن سر ذلك: فبالرضا والتفويض حققنا العبودية وعشنا في أجواء نسماتها وبالاستسلام والتسليم وجدنا الراحة من نكد التطلع والتغيير، وقد رأينا من طلب وغيَّر وتطلع، ينشد الراحة كيف أن الله أعطاه مطلوبه من التغيير وسلبه الراحة والهناء.

هؤلاء السالكون قد علموا أن الأمر بيد الله وحده، وأن الذي يستعملهم هو الله، ولا يستعملهم إلا إذا أرادهم فعلام يقلقون؟ ولم يضطربون؟ وإن كان حظ النفس حائلا نسفوه بالتفويض والتسليم، فبينما غيرهم يستحقرون أحوالهم وينكرون أوضاعهم ويطلبون الانتقال وينشدون الخروج، تدفعهم حظوظ النفس..أما السالكون بالاستقامة بعد الأعمال فيرتقون ويتطلعون ويزيدون ويحرصون، كل ذلك بالله ومن الله، وقد لخص أحدهم أجواء الاستقامة بعد الأعمال في ثلاث:

(جو فيه الرضا بالمقام والاستقامة عليه وهذا جو السلامة والرحمة، وجو توفر فيه الأول مع استعمال الله لك في طاعات وعبادات وجهاد وأعمال أخرى، وهذا جو الغنيمة وقد فاز صاحبها بأجرين وفائدتين، أما الجو الثالث فيتخلف صاحبه عن الاستقامة فهو دائم القلق والإنكار تدفعه نفسه إلى التطلع غير المحمود يطلب منزلة أو قيادة أو جاهاً ولم يستقم فيه بممارساته غير الشرعية، في هذا الجو قد أخل صاحبه بشروط الإقامة والسكن، فكتب له الله الخروج وكما قيل: (إن التخلف إذن في التخلف)

يقول ابن عطاء في التنوير:

(فتأدب أيها المؤمن ولا تطلب منه أن يخرجك من أمر ويستعملك فيما سواه، إذا كان ما أقمت فيه مما يوافق شأن العلم، فإن ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى، فاصبر ولا تطلب الخروج لنفسك، فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه، فرب تارك شيئاً ودخل في غيره ليجد الراحة فَتَعِبَ وقوبل بوجود التغيير عقوبة لوجود الاختيار).

وخلاصة الأدب إن أسكنك الله في أعمال، واستعملك فيها أو غيرها، فمن الأدب أن لا تطلب سكناً سواه ونجاحك في ذلك بالاستقامة بالأعمال وفي أدائها.

*** الهمة العالية: (همة محركة)**

بتحقيق الآداب السابقة يحتاج السالكون إلى قوة تبعثهم على السير فلا يتوقفون أو يفترون، وهذا ما يعرف في درب السالكين (بالهمة)، وقد أجمعوا أن الوقوف شر من الفتور، لأن الفترة تجبر بالتشمير والجد في السير، والوقفة تقصير وحرمان بل عدُّوها رأس الحرمان.

وقيل: إن الوقوف ثلاثة أوجه: (وقفة قنوع) وفيها يقنع السالك بما وصل إليه، و(وقفة وصول) وفيها يعتقد السالك بأنه وصل إلى الغاية، و (وقفة استئناس) فنشوته بما وصل إليه من علم ومعرفة تدعوه إلى الوقوف.

ومحرك الواقفين همة عالية، حينما جاء جيش عمرو بن العاص لفتح مصر، وكان ابنه في صفوف المجاهدين، وفي قلب الوغي يتوقف وينظر خلفه، إيماءة الارتداد، ويأتيه هاتف من خلفه (الروح أمامك لا تنظر خلفك) ما جئنا من أجله من الحياة الحقيقية في الجد والعمل والجهاد والتقدم وليس بالتوقف أو التخلف، فكانت الهمة العالية دافعة له نحو التقدم والجهاد..هي هي يوم أن استمع عكرمة لهاتف الحقيقة يقول له وهو يرى فرار المسلمين أمام الروم: لقد قاتلت رسول الله ﷺ (يعنى قبل الإسلام) فما فررت، أأفر اليوم بعد أن شرح الله صدري بالإسلام إنها لمهزلة!! وتقدم بهمة عالية ومعه أربعمائة في كتيبة الموت التي جاءت بالنصر، هي هي همة أنس وهو يقول: لئن عشت إلى قابل (العام القادم وكان لم يشهد بدراً) ليرين الله ما أصنع، فكان حاله استعدادً ورباطًا وتأهبًا وإعدادًا، وحقق ذلك يوم أحد، ومن كثرة ما نال من طعنات، فما عرفته أخته إلا من بنانه.

وظلت الحقيقة تهتف بالسالكين: (الروح أمامك)، (الذي تطلبه من معرفة الله والوصول إليه أمامك)، فجد في الطلب ولا تُعَوِّد نفسك الكسل، والمعرفة لا تتناهي فإذا أردت تحصيلها فأين الإسراع وأين السعي؟. تحرك من وقفتك وانهض من

رقدتك، فدرب السالكين حياة لا موت، نهوض لا خمول، جد لا كسل. حتى هؤلاء الذين يقفون بسبب استمالة هذه الدنيا بزينتها وتبرجها ومحاسنها فيأنسون بالوقوف فيحرمون، تخرجهم الهمة العالية، وتنهض بهم على السير، حينما يرون بعين البصيرة هاتف الحقيقة ولسان حالها يقول: لا تقف عندي بل انتقل بقلبك إلى خالقي ومكوني، إنما نحن اختبار لك وامتحان، هل تقف معنا فتحجب عن ربنا أو تنظر لمنته فتشكر نعمة الله تعالى فينا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] نعم الله وأفضاله، أيها الواقفون تشجعوا، أراكم وقد قطعتم أشواطا ودروبا، وقدمتم تضحيات، وتخطيتم صعابا، جدوا السير فقد قرب الوصول، والذي تسعى إليه منا قريب وليس ببعيد والباحث عن الأرقى يبذل الأغلى، يمتحنك المولى بمخلوقاته لتدلك عليه، فلا تطلب إلا إياه، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وإلى أدب الدعاء.

*** دعاء العبودية:**

وهذا الأدب الغائب اليوم عن الناس، تراهم يدعون ويطلبون ويلحون ويتضرعون، ويتفاوتون في فعل الدرجات، فكلهم يريد وجه الله، ولم يطلب إلا إياه، ولكن أكمل آداب الدعاء الذي تتحقق فيه العبودية لله تعالى، تدعوه وأنت موقن بعلمه بحالك واطلاعه على أفعالك وإحاطته بأوضاعك ومعرفته باحتياجاتك، يقول تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، ويقول تعالى:﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» وقد أطلقوا عليه اسم (السكون تحت مجاري الأقدار) وعدُّوه أفضل من التضرع والابتهال، فدعاؤهم لذلك هو عبودية لا طلباً للقسمة، إذ ما قسم لك واصل إليك، وكما قيل: لو سألته أن يمنعكه ما أجابك، وتعلم وأنت تدعو أنك غائب عن الله بوجود نفسك فلو حضر قلبك واستشعرت قربه وغبت عن نفسك لما وجدت غيره، (أراك تسأل عن نجد وأنت بها) وكما قال ابن المرحل:

ومن عجب أني أحن إليهم
وأسأل شوقاً عنهم وهم معي

وتبكيهم عيني وهم بسوادها
ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

وللرفاعي:

قالوا أتنسى الذي تهوى فقلت لهم
يا قوم من هو روحي كيف أنساه؟

وكيف أنساه والأشياء به حسنت
من العجائب ينسى العبد مولاه

وأنت تدعو تحقق أنسك به بعد تلبية ندائه تعالى بمناجاته، فيكون دعاء عبودية للحق وأُنس به تستوحش به الخلق، فالاستئناس بالناس من علامة الإفلاس.

وبتكامل حقيقة عبودية الدعاء بحاجتك الدائمة إليه لقربه منك، فهو الكريم فلا تحتاج إلى سؤال غيره فتكتفي بعلمه، وتحقق معرفته وتستغني به عما سواه، وبهذا يكون من السهل لحامل هذا الأدب أن يحقق الله مطلبه، (فليس الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب) كما يقول ابن عطاء، ويفسرها الشيخ زروق بأنها على ثلاثة أوجه:

آداب في الظاهر: بإقامة الحقوق، وآداب في الباطن، بالإعراض عن كل مخلوق وآداب فيهما: بالإقبال على الحق والدوام بين يديه يقول تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] ولم يقل أكثرهم طلباً، ولا أعظمهم جداً فيه.

ولذلك فالدعاء عندهم: ليس هو بلسان المقال، وإنما هو بلسان الحال وهو الاضطرار وظهور الذلة والافتقار:

أدب العبيد تذلل
والعبد لا يدع الأدب

فإذا تكامل ذله
نال المودة واقترب

يقول تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ويقول ﷺ: **«إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا»**.

وإن خير الدعاء المحقق للعبودية أن نطلب من الله ما هر طالبه منا من استقامة تتمثل في عبودية الجسد ومعرفة القلب، بامتثال أمره واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره والاستسلام لقدره.

فإذا تحقق ذلك كله، ودعوت الله بأي شيء فإنه قد سبقت بـ المشيئة، والدعاء هنا لإظهار فقرك وعبوديتك، ولذلك قالوا: متى أطلق لسانك بالطلب لشيء احتجت إليه فاعلم أن الحق تعالى أراد أن يعطيك ما طلبت منه فلا تحرص ولا تستعجل، فكل شيء عنده بمقدار يقول ﷺ: **«من أعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة»** وعن ابن عمر رضي الله عنهما: قال ﷺ: **«من أذن له في الدعاء فقد فتحت له أبواب الرحمة، وما سئل الله شيئاً أحب إليه من العفو والعافية»**.

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه

من فيض جودك ما علمتني الطلبا

وبذلك يتكامل الفهم عن الله، فلا يدعو ليُعطى وإنما لإظهار العبودية فيُعطي، قيل لبعضهم: ماذا تشتهي؟ قال: ما يقضي الله، ويقول الشيخ أبو الحسن: لا يكن حظك في الدعاء الفرح بقضاء حاجتك من مناجاة محبوبك فتكون من المحجوبين...وكما قيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه وإلا فالرب يفعل ما يشاء. هؤلاء السالكون الذين تأدبوا في دعائهم: فلا يدعون بممنوع شرعاً، ولا ممتنع عقلاً، ويكون بتلطف وانكسار، وظهور فاقة واضطرار، لا بانبساط وإدلال. هؤلاء يحققون العبودية الكاملة، لأن الطلب مالم يكن على وجه العبودية فهو معلول، لأن الحق تعالى أقرب إلى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد.

*** الرضا بالقدر:**

لله در القائل:

مشـــــيناها خُطـــــا كتبـــــت علينـــــا
ومـــــن كتبـــت عليـــه خُطـــا مشـــاها

ومـــــن قســـــمت منيتـــــه بـــــأرض
فلـــــيس يمـــــوت في أرض ســـــواها

فاعلم أن أنفاسك قد عمها القدر ولا يصدر منك ولا من غيرك إلا ما سبق به علمه، وجرى به قلمه وهكذا تعارف السالكون، وحفظوا ذلك مع كل نفس، فأنفاسنا قد عمها القدر، فما من نَفَس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه، فإذا كانت الأنفاس معدودة، والطرفان محصورة، واللحظات معلومة، لزمنا ذلك أن نرضى بالقدر وبكل ما يجري به القضاء، وأملي علينا ذلك التسليم، الذي لا ينتهي إلا مع آخر نفس، هنالك نعلم أن الرحلة إلى الآخرة قد بدأت، فكل نفس يتكلم مخاطباً صاحبه: عليك عليك بالرضا فإن رضي خرج فرحاً مسروراً، وإن غفل فما أتعسه، وإذا كان ذلك للأنفاس المعدودة فما بالك بالخطرات والخطوات وغير ذلك من التصرفات.

إن بسمة النَفَس الراضي ترتسم على وجه صاحبها وتراها في قسماته وأساريره، تراها في انشراحة ساحرة، ووجه متهلل، ونور يتلألأ، وانفراجة مريحة، تصغر أمامها الكوارث والأزمات أو المصائب والكربات، ولذا يقول قائلهم: حقيقة الرضا: أن تلقي المهالك بوجه ضاحك، وهذا هو السر في ذلك.

وأنفاس الرضا لا يشعر بمعناها ولا يتذوق حلاوتها إلا من حقق التسليم وقد أشرنا إليه كأدب من آداب السالكين بمعنى أن تستوي عنده النقمة والنعمة بحيث لا يختار في أيهما يقطن وعند أيهما يقيم وبأيهما يكون سكنه.

*** مراقبة الحبيب:**

نجاح الأعمال بخططها وبرنامجها، ونجاح الخطط باستيفائها لجوانبها وأركانها

المختلفة، ومن هذه الأسس المراقبة، التي تكون على الخطة والمشروعات والأعمال، ويبقى الفرد الذي ينفذ، نجاحه مرهون بما أطلقوا عليه (الضمير) وتقدم البرامج له ما يؤهله لذلك من تنمية وتربية وبيئة ومناخ وحوافز ودوافع، وكل ذلك جميل ووسائل دافعة وناجحة، ولكن تنظيم القلب وتأهيله ومعرفته بربه وعلمه وفهمه، هو النجاح الحقيقي حينما تتحقق المراقبة لله تعالى.

والقلوب ينازع حضور الرب فيها أفكار شتى أطلقوا عليها (الأغيار)، فإما أن تكون في حال فهذه الأفكار تنقص من حالات كماله، وإما أن تكون في شغل يتصل بالحياة فهذه الأفكار توقعك في الغفلة، وكذلك يعكر صفو القلب، فمراقبة الله تعالى تعنى لا وجود لغير الله تعالى، أما إذا سيطرت عليه الأفكار فلا مراقبة، فإما مراقبة وإما غير الله.

أما السالكون الذين يحملون هذا الأدب فهم يصلون إلى حالة لا يغيب عنهم الله أبدا حتى في أكلهم، ومشربهم، أو في مخاطبتهم للناس، وهذا أرقى درجات الوصول إلى الله عز وجل. يقول الجنيد: (صار لي ثلاثون عاماً أخاطب الخلق وأنا أخاطب الخالق) أي منذ ثلاثين عاما لم يغب الله عز وجل عنه لحظة واحدة وهو يخاطب الناس.

وكثير من الناس يسقطون في مراقبة الحبيب فيتكاسل القلب عن عمله بإحالة الأمر حتى يتفرغ القلب من أشغاله وأفكاره ، فيؤخرون حضور الله، فيفوتهم وجود المراقبة.

وهذا سوء أدب مع الرب، ضيعوا به وقتهم، لخلوه من التعامل مع الله تعالى، وصرف الوقت لا يمكن قضاؤه، وقد قيل: (سيروا إلى الله عُرْجًا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة).

وهذه الأفكار لا تنقطع بحال عن القلوب، ولكنها تتناقص وقد تنتقص في بعض الأوقات، لغلبة الإيمان أو غلبة النفس، فالدنيا دار الفكر والشغل، فَلِمَ نستغرب وقوع أزماتها؟ فقد قيل: (لأنها دار أهوال ومنزلة فرقة وانتقال)، ومن حِكم بعض القوم: إنه يتلقاني بكل ما أكره فإن تلقاني بما أحب فهو أفضل، وإلا فالأصل هو الأول، ولذلك فبدلاً من التفكير في ذهاب غير الله عن القلب والانشغال بذلك ينصح خبراء

القلوب بأن تبدأ عاملاً، مجاهدًا، ذاكرًا، في أن تخطو خطوة، يتوجه القلب فيها إلى الله بحيث تستشعر المراقبة.. فكلما خطوت خطوات متوجهًا إلى الله أحبك الله تعالى وهنالك تستشعر مراقبة الحبيب.

*** وأخيرًا..**

من أشرقت بدايته أشرقت نهايته:

إذا كانت البداية بالله كانت النهاية إلى الله، ومن أشرقت بدايته بإحكام أصولها أشرقت بالعثور على محصولها، يقول النهر جوري -المتوفي بمكة سنة ٣٣٠هـ-: (من قصد بحاجته غير الله لم يزل محرومًا، ومن استعان على أمره بغير الله لم يزل مخذولا). ولذلك فقد أجمعوا: أن من علامة الخسران في النهايات الرجوع إلى النفس في البدايات.

فإذا أردت نهاية صحيحة فعليك أن تكون بدايتك صحيحة وعلامة ذلك في الرجوع إلى الله تعالى في البداية لتكون نهاية صالحة بإذن الله تعالى، ويعني ذلك أمران:

الأول: الرجوع إلى حكم الله الشرعي والتحصن بالعلم ليكون ذلك عاصمًا له من الخطأ في السير.

الثاني: الرجوع إلى الله بالاستخارة لإحكام الصلة بالله ليكون ذلك تسديدًا وتوفيقًا وهداية بالسير. ورضي الله عن زينب أم المؤمنين عندما استشيرت بالزواج من النبي ﷺ قالت: (حتى أؤامر ربي).

وأنت بهذه الآداب أيها السالك أصبحت مهيأ للسير، وما تلك الآداب ووقوفك بين يدي ربك إلا أن نضع أنفسنا على بداية مشرقة، فعلامة الحكم على النهاية هي إشراق البداية، في الإقبال على الله، وإعطاء السير كل حقوقه، وعدم الغلو لأنه إنذار بانتكاسات النهايات.

ومن كريم عطاء الله تعالى أن جعل التيسير والتوفيق لكل قصد بدأ بالرجوع إليه، فما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك، وقيل: للرجوع إلى الله في البدايات علامات كلها

تدل على النهاية مثل تفويضك في المراد، والتوكل في العمل، والاستقامة في التنفيذ... وهنالك يكون التيسير وجنى الثمار سواء تحقق مرادك أم لم يتحقق!! فيكفي على حد قولهم: (الرضا)، بل هي ثمار الرضا الجميل التي يجنيها صاحبها، في الوقت الذي يجني من رجع إلى نفسه الضرر المحض لأنه أحب أن يتحقق ما يهواه من غير تفويض، واعتمد على الأسباب دون توكل، ونفذ دون تقوى أو استقامة في ممارسته.

يقول ابن عطاء ﷺ في التنوير: (ما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه)، ويقول تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فكيف بالله عليكم كانت نهاية الاستقامة بالله والصبر، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣]، ويقول ﷺ لسويد بن غفلة:

«لا تطلب الإمارة فإنك إن طلبتها وُكِلْتَ إليها، وإن أتتك من غير مسألة أُعنتَ عليها».

ولنا في أصحاب النبي ﷺ وهم يبدأون هذه الإشراقات مع النبي ﷺ والآيات تترى على قلبه ﷺ:

﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١].

﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾ [المدثر: ١- ٧].

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [المزمل: ١، ٢].

لنا فيهم أسوة حسنة، ما توقفوا لحظة في سيرهم، حملوا هذه الرسالة، وحققوا عبوديتهم لله وحده، ونشروا دين الله في ربوع الأرض، لتحرير البشر وزرع التوجه لله رب العباد، وعلى أصحاب الدعوة اليوم الذين يحملون هذا الإرث أن يصنعوا صنيعهم، إن شبهة قد تلتبس بها العقول: لا أدعو إلى الله ولا أعمل في سبيل الله، وأنشر العلم بالدين، إلا حينما أنضج وحينما أتقدم، أو حينما أصل إلى الله، أما الآن

ما زلت في الطريق مع السالكين!!

إن ممارسة الدعوة إلى الله فرصة تأتينا من المولى تعالى فهل نضيعها!! ومتى نضمن ممارستها كما نرسمها لأنفسنا؟! إن النداء الرباني بكلمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، يتلقاه السالكون للتنفيذ فبه يكتسبون الخبرات التي تتحول إلى ملكات، ثم تترسخ فتصبح خُلُقا لهم لا يحيدون عنه ولا يتوقف عنهم، ولم يحدد الله تعالى درجة الداعية ليكون الباب مفتوحًا أمام المتقدمين والمتأخرين في طريق السالكين على السواء، أمام الواصلين والسائرين معًا، كلٌ يُبلِّغ ويعطي بحالته، الذي وصل إلى العلم بالله مثل الذي ما زال في عطاء الله، كلٌ على قدرهم يُبَلِّغون.

وإني لأعجب من هؤلاء الذين يتساقطون صرعى لبداياتهم الفاسدة، لا ترى منهم فيها إلا الحرص والبطش، وكم يحاولون من محاولات ولكنهم عند الإخفاق تجدهم منقبضين يائسين في الوقت الذي يتحقق فيه الأمر لسالكين قد تأدبوا بآداب السير، وبصورة ما كانوا يحلمون بها، وصدق المصطفى ﷺ وهو يقول: «**إن يكن من عند الله يمضيه فلا تحرص عليه ولا تهتم بشأنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**».

ومن أقوالهم: لا تدرك المراتب إلا بالزهد فيها، ومن ثم فهناك علاقة وثيقة بين حركة القلب وما يكون على الجوارح من عمل، فما كان في القلوب عند البدايات تحقق أثره في نهايات مشرقة تظهر على الجوارح في حياة المسلم، ومثال ذلك: القلب وما فيه من نور أو ظلمة، من علم أو جهل، من رحمة أو قسوة، من بخل أو كرم، من شح أو سخاء، من يقظة أو غفلة أو غير ذلك، لابد أن يظهر آثار ذلك في حياة الإنسان وحركته من أدب وتهذيب وسكون وطمأنينة، وبذل وعفو، أو طيش وقلق وغضب، وغير ذلك، يقول تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ويقول تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩] فما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره، والكلام صفة المتكلم، وما فيك يظهر على فيك، والأسِرّة تدل على السريرة، (**لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه**) هذا قول المصطفى ﷺ، فالنهاية المشرقة صناعتها فن يحتاج إلى إتقان ونظر، حتى تشرق علينا أنوار الله تعالى، فترقي بنا في طريق الوصول إليه.

وتفصيل ذلك أن القلب يواصل سيره إلى ربه حتى يصل إلى الهداية، فالقلب يحتاج إلى التثبت وهو في سيره، وهي الهداية الربانية، والسالكون هدايتهم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والواصلون في الطريق من السالكين لهم هداية خاصة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ولكل هداية نور:

فأما السالكون: هدايتهم بأنوار التوجه الصادق إلى الله تعالى حينما يتذوقون حلاوة الهداية أولا بالعمل والعناية به، بمعنى تحقيق الإسلام ثم تذوق حلاوة المراقبة بالإيمان والإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس بالله والانقطاع مما سواه بمعنى تحقيق الإيمان.

وأما الواصلون: فهدايتهم هنا خاصة: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]، حيث يتذوقون نور حلاوة المشاهدة بمعنى تحقيق (الإحسان) **(أن تعبد الله كأنك تراه)** فيصير عبداً خالصاً حراً مما سواه.

ويظل السالكون يتقلبون في أنوار الله تعالى من العمل والاجتهاد، وقد أطلقوا عليها (أنوار التوجه) نحو الله التي لا يقدرون على مفارقتها بعد أن ذاقوا حلاوتها، حتى يتم الوصول إلى الله تعالى، فيكونون لله وحده، لا لشيء دونه، حيث لا تفارقهم الأنوار، وتسمى (أنوار المواجهة) وتكون تابعة عندهم، فهي لهم مملوكة أي يملكون الأنوار لأنهم لله لا لشيء غيره.

هم الرجال وغبنٌ أن يقال لمن
يتصف بمعاني وصفهم رجل

ولنبدأ بمشيئة الله تعالى رحلة السلوك إلى الله بقواعدها وفقهها، وهو الأمر الذي يحتاج إلى العمل والتنفيذ، فكما قيل: إن السلوك إلى الله أذواق لا تنال من الأوراق، ورحم الله الشيخ الدباس وهو يقول لتلميذه ابن ميمون حين تأخر عنه الفهم عن ربه والعلم به، فرصده فوجده يطالع رسالة القشيري:

(اطرح كتابك

واحفر في أرض نفسك

يخرج لك ينبوع وإلا فاذهب عني).

ومعنى الكلام أن طريق السالكين للتحقيق والتنفيذ، ليس علمًا تلوكه الألسن أو فنونا تحفظ وتنقل، وإنما هي للعمل والممارسة فتصير روحًا ونورًا، لنفسه ولغيره، وهذا أصل حياة المجتمعات ورغدها وسعادتها، فالسلوك إذن علم وعمل، فكر وممارسة، فهم وتطبيق، معرفة وتحقيق، فمن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته، ولم تظهر عليه في حياته وممارساته وأعماله وتطبيقاته ثمرات ذلك وآثاره فهو كذاب في دعواه.. ولن نقول له: اذهب بعيدا بل تعال معنا لنبدأ معًا على بركة الله في السير بطريق به آثار أقدام السالكين العظماء الأنبياء والصالحين والشهداء والأصحاب والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، خلف راية الحبيب المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

* * *

٣-اعرف عيوبك

*** تصفية رائقة:**

نعم.. عقد السلوك وإتقان السير يبدأ بتصفية رائقة، يتخفف بها السائر من الأحمال، وينطلق لا يأبه بمزالق، يجتاز العوائق ولا يقف عندها، خاصة بعد وقفة البداية يرمق في الأفق درباً لم يسلكه من قبل، إنه يحمل نفسًا وقلبًا وروحًا، وقديمًا اتفقوا أن التخلية قبل التحلية، فلِمَ لا تكون البداية بتصفية نفسه من عيوبها من شهوة جسمانية كالمأكل والمشرب والملبس والمركب والمسكن والمنكح، لم لا تكون بتصفية قلبه من عيوبه من شهوة قلبية كحب الرئاسة والجاه والعز والكبر والعجب والحقد، ولم لا تكون بتصفية روحه من عيوبها من طلب لمكانة أخروية أو كرامة دنيوية أو حتى الحور والقصور.وكلها عيوب فتاكة مدمرة، وإن كانت العين تقع على عيب غيرها أكثر من عيبها، فالسالكون لا بد أن ينتبهوا أن السير لا يبدأ إلا بهذه التصفية، وما أعظمها من مهمة شاقة أن يتطلع إلى هذه العيوب ويبحث عنها ليصفيها، ويسعى في التخلص منها، وهو الأمر الذي يعلمه كواقع في كيانه، يراه في حركته وسكنته، يسمعه في خفقته وجلوته، أما أن يبحث عن عيوب غيره، فهذا ضرب من البلاهة إذ كيف يشق غبار الغيب باحثًا عن عيب ليس في باطنه، ولكن كما قيل: (إن الله يطالبك بالاستقامة، ونفسك تطالبك بحظها، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك). ولكن لماذا كانت التصفية مهمة شاقة؟ وذلك لأن تصفية النفس والقلب والروح من العيوب تحتاج إلى أن تستشعر صفات الحق تعالى، وباستشعارها تحيا القلوب التي هي سبب في الحياة الدائمة والنعيم المقيم، ولكن البعض يبثون شكواهم، ما لنا نحاول المرات ولا نستشعر صفات الحق، إننا لمحجوبون...هؤلاء واهمون إذ أن الحق محال في حقه الحجاب، فلا يحجبه شيء، لأنه ظهر بكل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، فلا ظاهر معه ولا موجود سواه، فهو ليس بمحجوب عنك إنما المحجوب أنت بعيوبك، إن مجرد بث هذه الشكوى علامة على أن

في قلبك شيئا فعليك إزالته وتصفيته.

يقول ابن عطاء في (لطائف المنن): (وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب، فالتطهر من العيب يفتح باب الغيب، ولا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لربه، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله، والمؤمن ليس كذلك بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف عليه الحال استبطأ أدبه ولا يستبطئ مطلبه) فالحجاب عن الله هو أنت، هو عيوبك، فلم لا تحاول التخلص من حجبك لتتعرف على الله، هنالك حقًا تستشعر صفات الله عز وجل.

*** الشعور بالله:**

عند أهل السلوك أن من عيوب النفس ألا يتحقق الإنسان بالعبودية بشكل كامل، وأول تحقيق العبودية الافتقار إلى الله بمعنى الشعور المستمر بالله تعالى، وليس عند العجز أو المرض أو الكوارث والأزمات أو غير ذلك، هو شعور المؤمن بحاجته الدائمة إلى مولاه، وكلما زاد الشعور بالفقر زاد الشعور بالله، وهذا هو معنى تحققك بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله) بمعنى:

لا حول عن معصية الله إلا بالله.

ولا قوة على طاعة الله إلا بالله.

فلا حركة ولا سكون إلا بالله.

وباستشعار هذا المعنى العميق تكون أقرب إلى مولاك، وبتوفر هذا الشعور يستطيع الإنسان أن يتعرف على عيوبه ويتخلص منها، فبشرية الإنسان هو استشعاره بذاته وينسى افتقاره إلى ربه، ويظهر ذلك في أخلاقه التي تناقض خلوص العبودية، كمن تعلق قلبه بأخلاق حيوانية كشهوة البطن والفرج وحب الدنيا وسائر الشهوات، أو تعلق قلبه بأخلاق شيطانية كالكبر والحسد والحقد والمدح والرئاسة والجاه... وهي لا تحصى حتى قال بعضهم:

(للنفس من النقائص ما لله من الكمالات).

فإذا توفر استشعاره بالله خرج من أخلاقه الحيوانية وتعلق وتخلق بأخلاق روحانية كالزهد والورع والقناعة والعفة والغنى بالله والأنس به، خرج من أخلاقه الشيطانية وتخلق بأخلاق إيمانية كالتواضع وسلامة الصدر والسكينة والإخلاص والكرم والصدق والمراقبة والمعرفة، فإذا تحقق بهذه الأخلاق كان عبدًا خالصًا لمولاه حرًا مما سواه. ومن الأمور التي تفسد هذا الشعور بالله تعالى، غلبة الهوى عليك، مع أن الطريق إلى الله تعالى بيِّن وواضح وما ترك النبي ﷺ شيئا يقربنا إلى الله إلا دلنا عليه، ولا شيئا يبعدنا عنه إلا حذرنا منه، يقول تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي رواية للنبي ﷺ: (..**على الملة البيضاء نهارها كليلها**). فهل بعد هذا الوضوح يلتبس الطريق على أحد في الوصول إلى ربه، واستشعاره بقربه، إنما حقا الذي يخشى على الناس هو غلبة الهوى الذي يعمى ويصم، وقد قالوا في ذلك:

- لا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى.

- لا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهالة الخلق.. ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ [الأنعام: ١٠٦].

- لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق إنما يخاف عليك من قلة الصدق: ﴿**فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ [محمد: ٢١].

يقول أحدهم شعراً:

لا تتبع النفس في هواها ... إن اتباع الهوى هوان

فإذا أراد الله إذلال عبده رده إلى نفسه وهواه فأحيل عليها ووكل إليها، فالهوى كما رأيت مختصر من الهوان، ومن دعائه ﷺ: «**إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك**».

فبرحمته تعالى عزة عبده وعنايته به، فإذا تولاك أعطاك، ولم يتركك مع نفسك وهواك، هنالك تستشعر قربه وتتعرف على عيبك، بعنايته ورعايته وحفظه تعالى.

*** أصل العيوب:**

ومع هذه العيوب التي لا تتناهي في الإنسان، دلنا خبراء طريق السالكين على أصل هذه العيوب ومنبعها، فإذا استطاع السالك علاج الأصل فلا وجود للروافد، ولذلك كانت القاعدة: (أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها).

والرضا عن النفس هو استحسانك لأحوالها، وتغطيتك لمساويها، وكل من اتهم نفسه وأساء ظنه بها، ونظر إليها بعين السخط وبحث عن عيوبها واستخرج مساويها.

يقول أبو حفص الحداد: (من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه فهو مغرور، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه، والكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب يقول: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وصورة من يرضى عن نفسه في الحياة صورة مرفوضة فانقلاب الحقائق عنده يجعله يظن أنه وصل إلى الكمال فماذا يريد بعد ذلك؟ ومن نظرته إلى نفسه بأنه كامل ترقب علاقته بالناس علاقة كبر وعجب وغرور وعليهم أن لا يخالفوا له رأيًا بل عليهم الاقتداء به والأخذ عنه، ومن ثم تراه مستهيناً بالمعصية مستهتراً بالذنب يتابع الشهوات من حب للمدح والتصدر والجاه والتعالي على الآخرين.

أما إذا أراد أن يتخلص من شهواته وأن تستيقظ عنده العبودية فيمتلك الشعور بالله تعالى ويستمر في سلوك درب الطاعة فعليه بعدم الرضا عن نفسه لأنها أصل هذه العيوب كلها.

وعلى الإنسان أن يحذر من مصاحبة من يرضون عن أنفسهم سواء كانوا أساتذة له أو أقرانا أو أتباعا وتلاميذ، فالمرء على دين خليله، بل عليه أن يفارق أي هيئة يتفشى فيها هذا المرض الفتاك المدمر، وبهذا الميزان الدقيق يرى المؤمن أجهل الناس

بالدنيا أعلم الخلق، ويرى أعلم الخلق هم أجهل الخلق.. أي بالرضا عن النفس حتى إن سفيان بن عيينة (توفى بمكة ١٩٨هـ)، يقول: إذا كان ليلي ليل سفيه ونهاري نهار جاهل فماذا أصنع بالعلم الذي اكتسب، وقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع.

ومن أقوالهم المحفوظة في ذلك: من أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص، وصحبة من يرضى عن نفسه شرٌّ محض، ولو كان أعلم أهل الأرض، لأن الطباع تسرق الطباع، الجهل الذي يقرب إلى الله أحسن من العلم الذي يبعد عن الله.

ومن عرف (أصل العيوب) تطلب ذلك منه سعيًا وتشميرًا وجهدًا وتحقيقًا، ليسلك طريق الطاعة واليقظة والعفة، وكان من فقه وصية أستاذ لتلميذه قوله: (يا بني كن عين المعنى وإلا فاتك المعنى) وما أحلى تحقيق المعنى النبوي: (كان خلقه القرآن) فمن السهل أن نتحدث عن العيوب وعلاجها والقلب وبصيرته، لكن حتى تنجلي عين القلب، ويسطع النور بالقلب. فإن ذلك يحتاج إلى عمل كثير وجهد وفير.. بالحرص على المعنى والتحقق به معاً.

* * *

٤- بدايات المعرفة (هيا نتعرف على الله)

* التعلق بالله وحده:

تعمق في فهم السالكين من قِبَلْ «أن ملخص السير إلى الله همة عالية» فإن توقف صاحب همة وقنع بموقفه الإيماني، هتف به الإيمان: الله هو الغاية تقدم إن الذي تطلب أمامك، وإن توقف أمام زينة من زخرف الدنيا تكلمت ونادته: حقيقتنا امتحان لك فلم التوقف؟ تقدم... وما زال السالكون متقدمين بهمة عالية تأبى التوقف أو الركون، وهي مع ذلك ومهما سبقت لا تخرق أسوار الأقدار، فالأمر لله من قبل ومن بعد.

والأمر الآخر وقد تقدم الطريق بالسالكين أن يعلموا: أنهم إذا تعلقت همتهم بشيء يريدون تحصيله فعليهم برد الأمر إلى الله صراحة ولا يتعلقون بشيء سواه..لسبب واحد لأنه تعالى كريم على الدوام، وكما قال ابن عطاء: (الكريم لا تتخطاه الآمال) بمعنى لا تتخطاه آمال المؤمنين إلى غيره بأي طلب، وقد قال أحدهم مفسرًا ذلك:

(لأن جماله يغني عن اختيار غيره، وإحسانه يصرف الوجه له دون غيره، لا سيما ولا غيره إلا به وله، فالرجوع إليه أولى بكل حال لمن يعقل)، وقد ورد في الأثر: (يقول الله تعالى: عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل همك)، وقد قالوا في تفسير اسمه تعالى الكريم:

هو الذي إذا سئل أعطى

ولا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى

وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى

فكيف بالله عليك وقد تعلق قلبك بربك الكريم، أن ترفع إلى غيره حاجتك إليه تعالى؟!! يقول تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] ويقول تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَهُوَ الْقَاهِرُ

﴿فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

وكأنه تعالى يقول: سبكتك بالفاقة لتصير ذهبًا خالصًا، وُسَمْتك بالفاقة وحكمت النفس بالغنى فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيري قطعت عنك مواد معونتي، فمن وكلته إليَّ مَلَك، ومن وكلته إليه هلك.

فسر نجاحك إذا أنزل الله بك شدة مهما كان نوعها وحجمها أن تنزلها بالله، وأن تجعلها تحت مشيئة الله، ولا تلتفت إلى ماسواه تعلقًا وتملقًا، يقول النبي ﷺ: (**من لم يسأل الله يغضب عليه**)..وحق له تعالى أن يغضب عليك فغيره يعجز عن نفع نفسه فكيف ينفع غيره؟!!ضعف الطالب والمطلوب، حتى قال في سخرية: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون!!

وفي مناجاة أحدهم:

(يئست من نفع نفسي لنفسي، فكيف لا أيأس من نفع غيري لها، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي).

ومن فقه السالك هنا بعد أخذه بكل الأسباب وتوفر همته العالية الدافعة نحو الحركة والتقدم الحثيث في السير، وأن نجاح هدفه في الوصول يتعلق قلبه بربه، فهو وحده الذي يقضي حاجاته، وإذا نزل به شيء فهو تعالى يرفعه، من أجل ذلك وجب عليه حسن الظن بربه.

*** حسن الظن بالله:**

ومن أجل دوام استمرار تعلق القلوب بربها، وثبات السالك على ذلك، كان حسن الظن بالله رائد السالكين، وهو يعتمد على أمرين يدور عليهما:

أولا: حسن أوصافه:

لأن الإنسان منا إذا تعلق قلبه بربه يأنس بما يقضيه الله تعالى ويرضى، لأن الأمر تم بمعرفة الله وعلمه، فإن كان ما واجهنا به الله تعالى فُرْجَةً وانفراجًا واتساعًا وعطاءً وبسطا فإنما ذلك لصفات الرحمة والكرم، وإن كان ما واجهنا به ربنا ضيقًا وشدةً

وكربةً ومنعًا وقبضًا فإنما ذلك لصفات قهرية وما فيها من تمام نعمته، وعلى هذا لا ينقطع حسن الظن به تعالى، وهل الإنسان في هذه الحياة إلا بين الأمرين بين الرخاء والضيق والاتساع والشدة! وفي كلٍ خير له، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهؤلاء السالكون بهذا الفقه يدوم حسن ظنهم على كل حال.

ثانيا: دوام إحسانه ومننه:

فإن لم يصل السالكون إلى هذه الدرجة الأولى في حسن الظن -وقال قائلهم: إنها درجة متقدمة وأنا مازلت في أبجديات السير- برز له حسن معاملة الرب له وإحسانه إياه ودوام امتنانه الذي لا ينقطع وأفضاله المتوالية، فإن نظر وتأمل لوجد نفسه مغمورا في مننه مغمورا في إكرامه ورحمته، فقاس ما بقى من حياته على ما مضى منها فتلقي ما يرد عليه بالرضا والقبول، ورحم الله القائل: لم نر خيرًا قط إلا من ربنا فمالنا نكره لقاء من لم نر خيرًا قط إلا منه؟! ويقول ﷺ: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي**».

وبعد البيان فمن العجب أن يهرب الإنسان من الباقي ويفكر في الفاني، أو أن يهرب مما لا مفر ولا انفكاك له منه، من سعيه لدخول الجنة وطلب الآخرة، أو أن يفر الإنسان من ربه ويتوجه بالطلب إلى غيره ولا محيد له عنه، إذ لا وجود له إلا منه، ولا قيام له إلا به، فكيف يهرب منه بترك طلب معرفته، والتعلق به، والتقرب إليه؟! بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ومن بصيرة القلوب في معرفة الله، الرحيل إلى من تعلق القلب به، وحسن الظن به، وذلك بقصر همتك عليه دون سواه حتى لا يجد القلب غير محب لسواه، والرجوع إليه بأداء الحقوق والفرار من الحظوظ ، ودوام اللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه والتسليم.

*** كما تعرفه يعرفك:**

انظر في قلبك، يقول النبي ﷺ: «**من أراد أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده**» وفي رواية: «**من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى في قلبه، فإن الله ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه**».أنت تتعرف على الله ليعرفك، بهذا الوضوح ينعم

المؤمن بوقته ويأنس بحاله، يسكن حين الاضطراب، ويهدأ حين القلق، ويرتاح حين الحيرة، لا يأبه لأعاصير هادرة، ولا لبوارق راعدة، ولا لعواصف ماردة، لأنه فهم عن ربه هذا الفقه، فمتى عرف أن الله كريم تعلق بكرمه دون غيره، فتتجرد من رق الطمع ويذهب عنه الغم والهم والجزع ثم يتخلق بوصف الكرم، فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه تعالى، في الحديث: «**تخلقوا بأخلاق الرحمن**» ومتى عرف أن الله قهار جبار يعظم خوفه وتشتد هيبته وحياؤه منه، وهنالك يعظمه الله ويكرمه، وكما قيل: (إنما يطيع العبد ربه على قدر معرفته به وخوفه منه، وأن الله ينزل عبده على قدر منزلته منه، فهو سبحانه من إعطاء ومنع وقبض وبسط أو وسعة وضيق يتعرف إليك، أي يطلب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه، فاطلب أنت معرفته في كل حال، وأقبل عليه بكليتك، تكن عبده حقًا وهو ربك حقًا وصدقًا)، ومثال لذلك سنة الله في خلقه، إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ويغنيه بمعرفته أوحشه من خلقه، وشغله بعبادة ربه، وألهمه ذكره، فإذا تحققت المعرفة وامتلأ القلب بالأنوار رده إلى الناس، للدعوة والإرشاد فينتفع به العباد، وتحيا بوجوده البلاد:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم في بقاع الأرض أمطار

وتشتهي العين فيكم منظرا حسنا ... كأنكم في عيون الناس أزهار

ونوركم يهتدي الساري برؤيته ... كأنكم في ظلام الليل أقمار

وفي مقابل ذلك مثال آخر: يقولون: (من عرف الله أطلق لسانه) وذلك لأن المعرفة هنا اضطرار وافتقار إلى ربه لا ينقطع، يقول تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ [النمل: ٦٢]، ولأن المعرفة كما تبين ركون إلى الله وحده، فإن الله تعالى بعنايته ورعايته يشوش عليه إذا ركن قلبه لحظة إلى غيره، لا يتركه يركن إلا إليه تعالى، وهذا هو تعرف الرب إلى العبد.

* ماذا تفعل إذا تعرف الله إليك؟

العجيب أن الإنسان يظل متعرفًا على ربه، مجاهدًا لتحقيق هذه المعاني، ويكابد العوائق، ويقطع الدروب، ليتعرف على ربه، فإذا تعرف الله إليه فر وهرب ونأي بجانبه،

فعلام كان السعي؟ ولم الاجتهاد والنصب؟ هل هو ادعاء الزاعمين! أم تحقيـق الـواهمين؟ ومثال ذلك: قد يعيش الإنسان حياته في استقرار وهناء، فإن هجم عليه الفقـر، الـذي هـو تعرف من الله إليه، سخط وقنط وأخذ يبحث عن الأسباب التي يدفع بها الفقـر لا يراعـي فيهـا شـرعًا ولا حقًـا ولا يلتـزم في أدائهـا بخلـق أو أدب..ألم يفـر بـذلك مـن معرفتـه تعالى...وهذا الذي يعيش ويحيا في نعم الله وعطائه، وكما يقول خـبراء السـلوك: (تحوطـه صفات الجمال من رحمة وكرم وعطاء وحمد)، فإذ تعرف الله إليه بصفات الجلال مـن قهـر وكبرياء وجبروت، أي أصـابته مصـيبة أو نزلـت بـه بليـة في بـدن أو أهـل أو مـال، تـبرم وقنط، ألم يفر هذا أيضا من معرفته تعالى..ولذلك جاء قول ابن عطاء: (الغافـل إذا أصـبح نظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به) فالغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعـل بنفسـه فيدبر شئونه ومآربه فهو ناظر لفعله، معتمد على حوله وقوته، فإذا فسخ القضاء ما أبرمـه وهدم ما أمله، غضب وسخط وحزن وقنط فنازع الله وأساء أدبه.

وأما العاقل وهو العارف فقد تحققت في قلبه عظمة ربه وانجمـع إليـه بكليـة قلبـه، فأشرقت فيه شموس العرفان، فيتلقـى كـل مـا يـرد عليـه بـالفرح والسـرور والبهجـة والحبور ليقينه وغناه بربه. يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أصـبحت ومـا لـي سرور إلا في مواقع القدر.

حينما رأي السرى عباد الله ويسألهم ربهم: إني مسلط عليكم من الـبلاء بعـدد أنفاسـكم مالا تقوم به الجبال الرواسي، أتصبرون؟ قالوا: إن كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت.

هؤلاء عبادي حقا. فلو لم يكن في ذلك إلا تطهيرك من الـذنوب، وتمحيصـك مـن العيوب، وتقريبك من علام الغيوب لكفي، فالـذي واجهتـك منـه الأقـدار هـو الـذي عودك حسن الاختيار، والذي واجهتك منه ظواهر المحن هو الذي أسبغ عليـك بـواطن المنن، وإنما صبرهم على أقدار علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره فما نزل القـدر إلا سبقه اللطف وصحبه، فما من مصيبة إلا وفي قـدرة الله مـا هـو أعظـم منهـا، وتصـغر عندك حينما تتذكر من هو أعظم منك بلاء، وتعلم أجرها العظيم، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ويقول تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ويقـول ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى

الشوكة يشاكها وحتى الهم يهمه إلا كفر به سيئاته».

ومن خلال هذه النظرة العميقة فالعقلاء يستقبلون معرفة الله إياهم بالبشر والترحاب، وقد رأيتها على أحد جدران سجون الظلم والعدوان وقد كتبها أحد الصابرين بفرحة وتهنان: (مرحبًا بقدر الله)، نعم مرحبًا بفتح الباب، واختيار الله إياك، وقد تقدم: من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان، يقول أحد العارفين: العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله ويحرص عليها، فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره!! فماذا أنت فاعل؟!! يقول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وكما عودك ما تحب فاصبر له على ما يحب.

*** وأخيرًا..**

الإنسان سره بداخله، ومفتاح هذا السر في أن يتعرف على ربه فيختلف عن الآخرين، يفرح بينما هم يتألمون، كأنه ليس منهم، يسر بينما هم يحزنون، لأنه يفهم عن ربه، ويبغي رضوان الله.

النفس تفرح بالأنوار والبهجة وتسعد بالزينات، وحال ما في الدنيا لا يدوم، فسرعان ما تذهب البهجة بزوال الأنوار ولكن يبقى نور يدوم، يبعث السرور والبهجة الدائمة بدوامه، فمهما أظلمت الأكوان وانقطعت الأنوار، لا يقطع هذا النور، لأنه لا يتحول ولا يتبدل، ألا وهو ما يُنَوِّر الله به قلوب عباده من معرفته وكان من دعائه ﷺ ما ذكره ابن عباس في رواية البخاري:

«اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا وفي سمعي نورا، وأمامي نورا وخلفي نورا، واجعل لي نورا» يا ربي لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.سبحانك أنت القوي ونحن الضعفاء إليك، أنت العزيز القهار، أنت الغني المتعال..وها هو فقري إليك بيِّن.. كلما ألمت بالعباد منعات إلى من يلجئون؟ وبمن يلوذون؟ ها نحن واقفون على بابك بؤساء، فقراء.. جئنا بذنوبنا ومعاصينا وأملنا في رحمتك الواسعة وعفوك الشامل، وهاهم الناس جميعًا يتخلون عنا عند الملمات، لا وجه نقصده إلا إياك وأنت العليم بأحوالنا وأنفسنا وقلوبنا، فاجعل أنسك في قلوبنا، واقذف الاستئناس بك في أرواحنا.

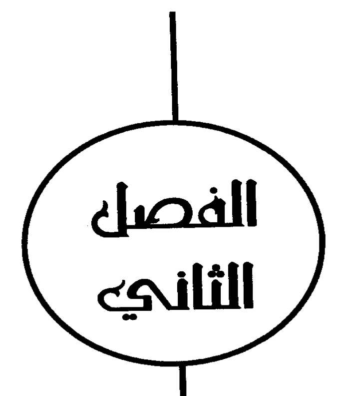
والإلحاح بالدعاء عنوان المناجاة، وكثرة الطلب من الرحمن شعار الصالحين، وعطاء ربك لا ينفد بحال، (متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك) هذه حكمة الحكماء ليكتمل شعورنا الدائم بالاضطرار إلى الله، والذي لا يقر ولا يسكن ولا يطمئن إلا إلى الله تعالى. فنسأله الهداية والتوفيق وعلى بركته نسلك درب السالكين، بقلوب ربانية، ترقى في الدرجات، في تعرفات ثلاثة:

أولاً: أدب العبودية لله: فقبل أن نستبطئ تحقيق مطلبنا ورغباتنا من الله علينا أن نسأل أنفسنا: هل أدينا وقمنا بأدب العبودية لله؟ ربما كان السبب هو تأخر الأدب وليس تأخر المطلب، والمسؤولية في هذا التعرف تقع كاملة على السالك.

ثانيًا: الامتثال لأمره: إذا حقق السالك أدب العبودية واجتاز بنفسه هذه الدرجة فإن الله تعالى يعطيه مكافأة عظيمة وهي أن يوفقه إلى الطاعة فيمتثل أمر الله تعالى في ظاهره من حركاته وأعماله وأفعاله وجوارحه.

ثالثًا: الاستسلام لقهره: فإذا تحقق بهذه النعمة وداوم عليها فالله تعالى يُرَقِّيه، فَيَمُنُّ عليه برزق في قلبه وهو الاستسلام لقهر الله تعالى، وهو أرقى ما يصل إليه ويربو إليه أصحاب القلوب من ربانية.

فهل بعد هذه التعرفات يظن السالك أنه قد وصل إلى الكمال! كلا.. فليس كل من أعطى خصوصية أعطى الكمال، وكانت هذه الحكمة العطائية الغالية: (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه، حتى لا يحدث خللا في السير، من غلو في قدسية الأشخاص، أو تفريط في احترام أساتذة السير، رحم الله هذا الأستاذ الذي أراد امتحان تلاميذه بأن أتى شيئا على المباح في ظاهره ولكنه خطأ، ففروا جميعا عنه إلا تلميذا، فلما سأله؟ قال: اتبعتك على أنك غير معصوم. ويقول الإمام مالك: إن من شيوخي من استسقى الله به ولا أقبل حديثه، فليس كل من تقدم في السلوك وكل من له خصوصية يكون مؤهلاً لقيادة أو ريادة مهما كان نوعها اجتماعية أو تربوية أو سياسية أو غيرها... ولذلك سيكون بدء السير حول هذا المعنى (من تصحب؟) فكما يقولون: الرفيق قبل الطريق.



أصول طريق السالكين

١- مَنْ تصحب؟

٢- لا تنس ذكر الله.

٣- حياة القلوب.



الفصل الثاني: أصول طريق السالكين

١- من تصحب؟

*** صاحب حال:**

في الطريق إلى الله أنت تريد النهوض الدائم، والدافعية التي تأخذ بيدك نحو الوصول، وهذا لن يتأتي إلا بصحبة الصالحين من السالكين، إذا رأيته ذكرت الله، ففي صمته حكمة تأخذ بقلبك إلى النهوض، مما تراه بروحك من حاله وفعله وعمله، ومما يسري في كيانك من اقتداء وتأس بحاله، حينما وقع في نفس الصحابي الجليل أبي بن كعب شيء من الجاهلية عندما أقر رسول الله ﷺ قراءتين مختلفتين لبعض آيات من القرآن، فضرب النبي بيده على صدره، يقول أبي: فتصبب جبيني عرقا وكأني أنظر إلى الله فرقا.. أليس هذا معنى الإحسان وحقيقته والتحقيق به: **«أن تعبد الله كأنك تراه»**.

هكذا كان حال النبي ﷺ ينقلهم من طور إلى طور. ولا يكون صاحبك له حال يدفعك إلى النهوض إلا إذا رأيته قد رفع همته عن الناس وامتلأ قلبه بالحقائق، فإذا تعاملت معه وجدته مشغولا بالله، وكان مما اتفقوا عليه في الصحبة قول أبي الحسن: (لا تصحب من يؤثر نفسه عليك، فإنه لئيم، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم، واصحب من ذكر الله، فالله يغني به إذا شهد، وينوب عنه إذا فقد، ذكره نور القلوب، ومشاهدته مفاتيح الغيوب).

وكان أيضا من فقههم: لا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينًا وقليل ما هم).

*** صاحب علم:**

إذا توافرت صفة الحال التي تدفعك في الطريق وتنهض بك نحو السلوك، في صاحبك المختار سواء كان أستاذًا أو قريبًا أو تلميذًا أو تابعًا، فإن ذلك يدل على تلازم الصفة وهي (العلم) لأنهما قرينان لا ينفكان عن بعضهما فإن كان عمله يدفعك

فكلامه يدلك على الله لأنه إذا تكلم فإنه يتكلم بالله ويغيب عما سواه، إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب، ولذلك قيل: حاله يصدّق مقاله، ومقاله موافق لعلمه، والمقصود بالعلم هنا (العلم بالله) لأنه الذي يعرفك بربك ويرشدك إليه عز وجل ويدلك عليه.

أما الذي يحمل علوما ومعارف يترفع بها على الناس، ويعتد بها حامدا نفسه في كل إدبار وإقبال، فهذا عليك أن تحذر صحبته وإن كثرت علومه وأعماله، واتسعت أبحاثه ودراساته، وعظمت أفكاره وفهوماته.

يروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام:

(يا ابن عمران كن يقظان، وارتدْ لنفسك إخوانا، وكل أخ أو صديق لا يؤازرك على مسرتي فهو لك عدو، ويقسي قلبك ويباعدك)

وإنما علة هاتين الصفتين كشروط لمن تصحب لأنك إن صاحبت من هو أسوأ منك ترى نفسك إليه محسنًا، وتنظر إليها بعين الكمال، فما يجعلك تفكر في الترقي، فصحبتك لمن هو أقل منك حالاً وعلمًا تجعلك ترضى بحالك وعلمك، فالنفس مجبولة على رؤية الفضل لها ومشاهد التقصير في غيرها علمًا أو عملاً أو حالاً بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن منها فإنها لا ترى من نفسها إلا التقصير الذي هو باب الخير لها.

وفي معنى قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» يقول أستاذ لتلميذه: (يعني دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره. فإنك من دلك على الدنيا فقد غشك، ومن دلك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك).

*** صاحب زهد:**

الكثير يفرح بمصاحبة من كثرت أعماله وتضخمت أفعاله، ويجعل ذلك شرطًا في المصاحبة، سرعان ما ينخدع فيمن صاحبه في مواقف يراه فيها حريصًا ومزاحمًا، ولذلك كان الشرط الثالث: الزهد، والزهد في الشيء هو خروج محبته من القلب وبرودته منه، أما في المصاحبة فالزهد بُغض كل ما يشغل عن الله، وإن قل عمله وتواضعت أفعاله إذ أن أعمال المقبلين على ربهم مرتبطة بحال قلوبهم فإن كانت

زاهدة فأعمالهم كثيرة عند الله ولو قلت: فالعبرة في النهاية للقلوب، وإنما ذلك لعدة أسرار أفصح عنها العاملون بدرب السالكين فقالوا:

- عبادة الزاهد بالله ولله، وعبادة الراغب بالنفس وللنفس.
- عبادة الزاهد حية باقية، وعبادة الراغب ميتة فانية.
- عبادة الزاهد متصلة على الدوام، وعبادة الراغب متقطعة بلا تمام. وقالوا أيضا: الراغب في الدنيا غافل ولو كان يقول: الله بلسانه على الدوام، إذ لا عبرة باللسان، والزاهد في الدنيا ذاكر على الدوام، ولو قل ذكره باللسان.

ويقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كونوا لقبول العمل أشد منكم اهتمامًا للعمل، فإنه لم يقل عمل مع التقوى وكيف يقل عمل يتقبل؟ فمما دفع ابن مسعود رضي الله عنه إلى قوله: ركعتان من عالم زاهد خير وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبدين الراغبين أبدا سرمدا.

ومعنى ذلك أنه إذا توفر الحال والعلم والزهد، فهي شروط للصحبة ولو كانت الأعمال في الظاهر قليلة، لأن الزهد في الدنيا من أصل الثقة بالله، لقول النبي ﷺ: **«ليس الزهد بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، إنما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك»**.

ولماذا كانت هذه الفضيلة للزهاد دون غيرهم؟، لأن العبرة بما في قلوبهم، والقلب فارغ عن الشواغل، مفعم بصدق المحبة، فالدنيا محبوبة ولا تترك إلا بما هو أحب، قيل: على حب العبد لربه، والقلب الزاهد دليل على معرفة الله والثقة به، ثم بعد ذلك من العجب أن يستغرب أحد أن يكون الزهد شرطًا من شروط المصاحبة وصفة من صفات الصحبة.

*** صاحب عمل:**

يقول النبي ﷺ: **«إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**.

دل ذلك على أن هنـاك حركـة جسـد لا تـتم إلا بالمجاهـدة، وحركـة قلـب تـتم بالمكابدة، ويظل الإنسان ساعيًا ومشمرًا بين المجاهـدة والمكابـدة حتـى يسـكن القلـب بالطمأنينة، ومثال ذلك الزهد: إنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الـدنيا وأسـبابها ثـم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالاً، ثم يسكن القلب ويـذوق حلاوتـه فيصير مقامًا، ولذلك كان سر قولهم: الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ويعني ذلك أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقامًا، وهو مكتسب من دوام العمل.

وعلى هذا فحركة الجسد تدل على صلاح القلب أو فسـاده، ودليـل ذلـك قـول النبي ﷺ: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**.

ومن هنا نفهم قول أبي حامد الغزالي: (لابد لكل مقام من علم وعمـل وحـال، فالمقام يثمر علما، والعلم يثمر عملا، والعمل يثمر حالا، لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب، وحركات القلوب جارية بحركات الأجسام).

ومن خير ما كتب ابن عطاء في التنوير عن الصـاحب: (ولـيس يـدل علـى فهـم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، وإنما يـدل علـى فهمـه ونـوره غنـاه بربـه، ورجوعه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع، فبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال)، يقول الله تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾** [الكهف: ٧]، فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله، من الاكتفاء بـالله والغنـا به، الاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه، والدوام بين يديه، فكل ذلك ثمـرة الفهـم عـن الله.

* * *

٢- لا تنس ذكر الله

*** لا تترك الذكر:**

الحديث عن الذكر ونحن في طريق السالكين حديث خاص، فمن وصل إلى الدرب فهو من الذاكرين، ولذلك كانت القضايا التي تتعلق بحديثنا قضايا عملية ويحتاج إليها السالك.

كل شيء عدا العلم والذكر دنيا ملعونة، ولكن السالكين وهم يذكرون الله قد يتعرض بعضهم لشبهة قد تجعلهم يتركون الذكر، قائلين: إن القلب لم يتأثر، ولا يوجد أثناء الذكر أي حضور لله في القلب، فما زال في القلب كدورات؟ وأمام هذه الشبهة قول الله تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فمن المعلوم أن الذكر لا يتقيد صاحبه بحضور ولا غيبة، وعلى ذلك اتفقوا بقولهم: (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه) بل اذكره في حال الحضور وفي حال الغفلة باذلاً مجهودك، بل شدد البعض في المداومة على الذكر، وفي الوقت نفسه يبحث عن العوائق التي تحول بين قلبه والارتقاء.

وقد استدلوا على ذلك بهذا الرجل الذي جاء يسأل رسول الله ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به؟ قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**» رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

قيل لبعضهم: مالنا نذكر الله والقلب غافل؟ فقال: اشكروا الله على ما وفق من ذكر اللسان ولو أشغله بالغيبة ما كنت تفعل. فيلزم ذكر اللسان حتى يفتح الله في ذكر الجنان فعسى أن ينقلك الله في أجوائه.

حتى يطمئن القلب بذكر الله

أما ترى الحق قد لاحت شواهده ... وواصل الكل من معناه ومناكا

وأيهما أفضل أن نترك الذكر ونعيش في غفلة، أم نذكر مع غفلة؟ لقد ناقش ذلك

كثير من خبراء السلوك ووصلوا باتفاق إلى أن ترك الذكر أشد من ذكر مع غفلة، وذلك لوجوه ثلاثة: ففي الذكر إقبال وفي الغفلة إعراض، وفي الذكر جارحة تعمل وفي الغفلة تفويت لعملها، وفي الذكر تعرض لنفحات الله قد يرفعك بها لما هو أعلى وفي الغفلة إهمال لذلك. وكما قيل: الإقبال ولو كان ضعيفا خير من الإدبار بالكلية، وما يدريك فالله أكرم أن يحضر العبد بلسانه ثم لا يمن عليه بحضور قلبه، فمن عطايا الرحمن وكرمه أن رفع الذاكرين درجات.

*** درجات الذاكرين:**

١- ذكر مع غفلة:

يقول تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فجعل الله جزاء ذكرك إياه وجود ذكره لك، ومَنْ ذكره مولاه وفقه، ورحمه وآواه وتولاه وأكرم مثواه، يقول تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۞ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٣]، أي يقبل عليكم بإحسانه: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وعلى ضوء هذا فيكفي أن تعرض نفسك لنفحات رحمته بما في استطاعتك، عسى أن يسلك بك طريق الترقية، فترقى إلى درجة عالية تالية.

٢- ذكر مع يقظة:

في الغفلة لا يشعر القلب بالذكر، أما اليقظة فالقلب ينتبه ويستشعر الذكر ويعرف مدلوله، والفرق واضح وجلي بينه وبين ذكر مع غفلة، فالسالك هنا يذكر وقلبه يعقل معني الذكر فهو مستيقظ يعي ما يقول.

٣- ذكر مع حضور:

وهذه مرحلة أرقى فهناك فرق كبير بين أن تقول: الحمد لله وأنت تفهم معناها، وبين أن تخاطب الله بها، ولذلك كان الحضور وجود معني الذكر في الفؤاد لا ينفك عنه، فلا ينسى ذكر الله في كل الأحوال.

٤- ذكر مع غيبة عما سوي الله:

وهذه هي الدرجة الأرفع أن تستغرق بالمذكور، والذاكر هنا لا يشعر بذاته ولا

بالأكوان، لا يشعر إلا وجود ربه وخالقه، فحقيقته الانقطاع عن الذكر إلي المذكور، وعن كل شي سواه لقوله تعالي:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٨].

قلوب العارفين لها عيون	تري ما لا يُري للناظرين
وألسنة بأسرار تناجي	تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش	إلي ملكوت رب العالمينا

وهذه الدرجات مع أنها نتائج لبعضها البعض، وكل درجة تصل إلي الأخرى، فليس معني ذلك أن الوصول إلي الدرجة العليا مُحَالٌ، أو أن ما وصل إلي هذه الدرجة يدوم عليها أو تصبح له وصفًا دائمًا، فالسالك يتقلب بين الدرجات، فإذا هبت عليه نسمة من هذه الدرجة في يومه يكون هذا عظيما، وقد يتقلب في اليوم الواحد بين هذه الدرجات كلها، وقد يمنع مرض قلبي وصول الإنسان السالك إلي هذه الدرجة، ولذلك فمع الذكر يحتاج الأمر إلي صحبة أهل هذه الدرجات لعل الله يكرمه بالوصول إليها، ونستعين على ذلك بالاجتهاد والعبادات والخلوات والاعتكافات، وهكذا أهل السير إلي الله: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»** رواه البخاري.

يقول ابن عباس (رضي الله عنهما): لم يفرض الله تعالي علي عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذاكر فإنه لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبًا علي عقله، ولذلك كان الأمر بالذكر في كل الأوقات والأحوال يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، أي بالليل والنهار وفي البر والبحر والسفر والحضر والغني والفقير وفي الصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال، يقول مجاهد ﷺ: الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا.

ولذلك قيل: (الدرجة العليا من الذكر طريقها الذكر) فلا تنس ذكر الله، فلا طريق للوصول إلي الكمال القلبي، والطمأنينة القلبية، إلا بذكر الله: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وطمأنينة القلب فيها النجاة عند الله لقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

*** نور الذكر:**

يقولون: النور ثمرة الذكر، وهذا ميزان دقيق لمحافظتك على ذكر الله تعالى، والسالكون يذكرون الله تعالى ثم يستشعرون صفات الله، وتمتلئ قلوبهم نورًا، فهم يذكرون الله كثيرًا لتنير قلوبهم، وقد أطلق عليهم خبراء الطريق: (قوم تسبق أذكارهم أنوارهم)، وما يزالون يرتقون في أذكارهم وأنوارهم التي تتابع على قلوبهم، فقد امتلكوا الأنوار فهل يتوقفون عن أذكارهم؟ ما كان لسائر يقدم في طريق السلوك أن يترك الذكر، بل هنالك يحافظون على أذكارهم، فهم الذين استنارت قلوبهم فيذكرون، وقد أطلقوا عليهم: (قوم تسبق أنوارهم أذكارهم) فهم يذكرون ليزدادوا نورًا، فإذا تقدموا في طريق السلوك ما يتوقفون لحظة عن أذكارهم فهم يحافظون على أذكارهم ليحافظوا على نور قلوبهم، وهم أهل القدوة للسالكين والمرشدين للسائرين.

ولذلك فكل سائر ذاكر لله تعالى يحوطه الأمل الكبير بذكره في امتلاك الأنوار والمداومة عليها، بل إن مجرد الذكر هو علامة على اعتراف السائر بألوهية الله تعالى في الظاهر، واعترافه بالعبودية له في الباطن، ولذلك هو الميثاق الرباني الذي أخذه الله على الناس جميعًا، وهم في ظهر الغيب، وفي ظهور آبائهم في اللحظات الأولى عند بدء الخليقة وعند ظهور البشرية لتؤمن بوجوده، وتعترف بألوهيته، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعرف: ١٧٢].

يقول يحيي بن معاذ: (يا جهول يا غفول، لو سمعت صرير القلم بذكرك في اللوح لطبت طربًا) فأي فضل وكرامة لك بذكرك، فيكفيك بالذكر أن ألهمك الله إياه، فأهل الغفلة لا أذكار لهم ولا أنوار، ففي الحديث: «**ما من يوم إلا ولله فيه نعم ينعم الله بها**

على عباده، وما أنعم الله على عبد أفضل من أن يلهمه ذكره» ذكره المنذري، فمن نعمه التي لا تحصي أن جعلك من أهل ذكره، وأنطقك به فضلاً منه ونعمة، ويكفيك فخرًا في ذلك أن لله فيك عناية، فيجعلك ذاكرًا له، ومن أين لعبد ذليل أن يذكر سيدًا جليلاً وكما قيل: (لولا فضله عليك لم تكن أهلاً لجريان ذكره علي لسانك).

ويكفيك بالذكر، أنك تنسب إلى الله ولا شيء أعظم من ذلك، وكما أوضح الشيخ زروق حينما قال: أن الذاكر منسوب إلى الله في مواقف ثلاث: موقف الخلق والإبداع وبه يقال:

(أنت عبد وهو رب) ومن أنت حتى يكون لك ذلك.

وموقف الستر والإمداد وبه يقال:

(هو مُعْطِي وأنت مُعْطَى) و (هو منعم وأنت منعم عليك)

وموقف التوفيق والهداية وبه يقال:

(أنت موفَّق وهو موفِّق) و (هو هاد وأنت مهدي).

ومن أين لك ذلك لولا نسبة فعلك بك في المواقف الثلاثة).

إنما ذلك لفضله وإحسانه بك، يقول تعالى: **﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾** [النور: ٢١].

ويكفيك أيها السائر بالذكر أن يذكرك الله عنده فتتم نعمته عليك، يقول تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** [البقرة: ١٥٢]، ويقول ﷺ: **«وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»** وما أعظمها من نعمة أن يذكرك ربك، قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: **﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾** أي ولذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله.

وفي الحديث: **«ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله فيه إلا غشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»**.

* * *

٣- حياة القلوب

ليس مجالنا هنا الحديث عن تعريفات القلب وحياته وموته بقدر ما نحن نتحدث عن معاني من فقه السالك وهو في أول الطريق أن يعلمها ويحسها ويستشعرها، أما من أراد الاستزادة في هذا ففي كتاب (فقه القلوب) غني له، أما السالك فنحن نفترض أنه وقد تهيأ للسير بفقه هذه الأشياء، إنما هو في حاجة إلى معان يقيس بها سيره لينهض ويتقدم نحو هدف الوصول.

ولذلك جاءت التحذيرات مما يسلب الحياة من القلوب، ويجعلها جثثاً هامدة يتحرك بها الجسد كقبر على الأرض، فمن علامة موت القلوب ثلاثة: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات، وصحبتك للغافلين الأموات؛ لأن القلب إن كان حيًا بالمعرفة والإيمان آلمه ما يوجب شقاوته، وأفرحه ما يوجب سعادته، فصدور الطاعة عنوان السعادة، وصدور المعصية علامة الشقاوة، فالقلب الحي يحس بما يرضيه عند ربه فيفرح وبما يسخطه فيحزن، أما القلب الميت فلا يحس بشيء قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية، لا يفرح بطاعة ولا يحزن بمعصية. والذي يحتاجه السائر لحياة قلبه وهو يسلك الطريق أربع:

توبة قلبية:

متى يحتاجها السالك ويلجأ إليها؟ إذا لم يحزن لعدم إقباله على ربه بالطاعة، ولم يندم إذا واقع المعصية، وجب عليه التوبة لتقصيره في الطاعات، وفعله الزلات، وهي إشارة للسالك بالتوبة المستمرة، إذ أنه بين التقصير والإقبال، ولا يخلو من خطيئات القلوب إلا المعصومون وهم الأنبياء، وبهذا الميزان الذي تعرف به حياة القلب من موته نحدد التوبة، ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفي حديث البخاري ومسلم: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»** فهنا إشارة إلى حياة القلب وموته، وعلامة هذا الميزان في قول ابن عطاء: (من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات)،

فإذا أحس أحدنا بذلك فهذا يعنى المسارعة إلى إحياء القلب، ولا حياة للقلب إلا بذكر المولى تعالى، يقول ﷺ فيما رواه الطبراني في الكبير عن أبي موسى ﷺ: «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**».

والتوبة القلبية المستمرة ما تزال بالسالكين لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولا يتحقق السالك بصفة التواب إلا إذا تكررت التوبة منه، فهو الذي يكثر التوبة إلى ربه، والتوبة هي باب الولوج إلى محبة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة، ٥٤]، وكان ذلك ديدن النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم قوله ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة**» ولما أنزل الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: ١]، قال ابن عباس: فذلك علامة أجلك (أخرجه البخاري) وآخرها ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ [النصر: ٣]، وفيما أخرجه مسلم قول عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه».ومن هنا كانت التوبة في حق السالك إلى الله شيئًا رئيسًا وأساسيًا من أصول السلوك.

*** حسن الظن بالله:**

الإعراض عن حسن الظن بالله من كبائر القلوب، وقيل: (خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله)، وعلامة حسن الظن بالله: أن يستشعر الإنسان إذا أذنب أن عفو الله عز وجل أكبر من ذنبه إذا تاب، ففي الحديث المتفق عليه قول النبي ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعير وقد أضله بأرض فلاة**» ولذلك فمن علامة حسن الظن بالله، ألا توصله المعصية إلى يأس من فضل الله تعالى وعفوه؛ لأنها تصده عن حسن الظن بالله، وإنما هو يعظم الذنب ليحقق التوبة إلى ربه.

ويقال: خمسة في الذنب أعظم من الذنب:

- تعظيم الذنب أعظم من الذنب.
- واحتقار الذنب أعظم من الذنب.

- والإصرار على الذنب أعظم من الذنب.
- والمجاهرة بالذنب أعظم من الذنب.
- والجرأة على الذنب أعظم من الذنب.

ومعنى ذلك أن السالك في بدايته يعظم عليه الذنب بحيث يدفعه الخوف من الله إلى الجد في العمل بتوبة قلبية، فإذا تقدم سيره إلى ربه يعتدل خوفه ورجاؤه، لعبادة قلبه بعد التوبة المستمرة لأنه لو غلب الخوف لارتد عن عبادة القلب، فإذا تقدم السالك أكثر في سيره، فلا يرى لنفسه فعلاً أو تركًا، فإن كان طاعة شكر وشهد نعمة ربه، وإن كان معصية اعتذر وتأدب ولم يقف مع نفسه، ورحم الله الشافعي وهو يقول:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

فما زلتَ ذا جود وفضل ومنة ... تجود وتعفو منة وتكرما

وهناك مسألة طريفة لا يفهمها إلا السالكون سواء كانوا في الابتداء أو متقدمين، عن شاب دخل على السري يسأله: ما حقيقة التوبة؟ فقال السري: ألا تنسى ذنبك، فقال الشاب: بل التوبة أن تنسى ذنبك، ثم خرج الشاب فقال الجنيد: الصواب ما قاله الشاب، ثم برر الجنيد رأيه بقوله: لأني إذا كنت في حالة الجفاء فنقلني إلى شهود الصفا فذكر الجفاء في حال الصفا جفاء.

وأنت أيها السالك مع أي الرأيين؟ (ألا تنسى) أو (أن تنسى ذنبك)؟أراك في حيرة!!

لقد قطع الإمام ابن عجيبة الجدل فقال: (نظر السرى إلى أهل البداية (المبتدئين في طريق السلوك) ونظر الجنيد إلى أهل النهاية (المتقدمين الذين وصلوا إلى حال الصفا مع ربهم، فمن العيب عليهم أن يرجعوا عن حالهم) ثم يقول: (والكل صواب) فهل فهمت!!

لا تتهاون في الكبيرة والصغيرة:

يقول تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۝وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، ويقول تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ويقول تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

فالأمر الثالث الذي يحتاجه السالك لحياة قلبه، أن ينظر لعدل الله وفضله ولا ينظر لذنوبه وعيوبه سواء كانت صغائر أو كبائر، وهذا يحقق في قلبه عدم التهاون في الكبيرة والصغيرة، يقول النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي: «**ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدًا ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها**»، فمن مداخله أن يحقر للإنسان الصغيرة من الذنب فيأتيه من قبلها، ورضي الله عن ابن مسعود وهو يفرق بين المؤمن والمنافق بهذا المعيار فيقول: (المؤمن يرى نفسه من ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فأطاره) أي ففعل به هكذا وأشار بيده. فالمنافق لذلك مهما أذنب فلا يرى أنه فعل ذنبا.

فإذا نظرنا إلى عدل الله تعالى، مع تقصيرنا ومن الذي لايقصر ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، فكيف يحاسبنا العادل؟ لو حاسبنا لهلكنا، يقول ابن عطاء: (لا صغيرة إذا قابلك عدله) ويقول يحيى بن معاذ: (إن أقام عليهم عدله لم يبق لهم حسنة) وإذا نظرنا إلى فضل الله تعالى فإن حاسبنا يغفر الكبائر ويبدلها حسنات: ﴿مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، يقول ابن عطاء: (ولا كبيرة إذا واجهك فضله) ويقول يحيى بن معاذ: (إن نالهم فضله لم تبق لهم سيئة ولكن من منا متيقن بأن الله تعالى سيعامله بالفضل؟ نعم نحن نحسن الظن بربنا ولكن الله عز وجل مشيئته مطلقة، فلا ينبغي مع حسن الظن ألا ننسى الخوف، وبذلك يكتمل سيرنا إلى الله، ففيما أوحى الله إلى بعض أنبيائه: (قل لعبادي

الصديقين لا يغتروا فإني إن أقم عليهم عدلي وقسطي أعذبهم غير ظالم لهم، وقل لعبادي المذنبين لا يقنطوا، فإني لا يتعاظمنى ذنب أغفره لهم).

ومن أجل أن يحيا القلب عليه أن يعلم أن الكبيرة ما عظم أمره عند الله، والصغيرة ما خف أمره عند الله، ينظر إليها بعين الله ومراده، فالعدل ما لله أن من غير منازع وكل تصرف لله كذلك إذ الكل منه وإليه، والفضل: المواجهة بالإحسان لا لعلة ولا لسبب، ولعلم القلب بذلك فإنه لا يتهاون مع معصية جلت أو عظمت، صغرت أم كبرت، لأنه ينظر إلى عدله وفضله، فلا يقف مع معصية وإن جلت، ولا مع طاعة وإن عظمت، فربما شهد في المعصية انكسارًا وذلاً وتعظيمًا وإجلالاً لربه وهذا أفضل الطاعات، وربما شهد في الطاعة نفسه وحظه فأخل بأدبه وهذه معصية، ومن هنا تختلط الأمور، ويموت القلب من حيث يريد أن يعمل على إحيائه، أو أن يحيا وهو غافل عن إحيائه.

*** عمل قلبي:**

ثم يتوج السائر إحياءه لقلبه بالأمر الرابع وهو العمل المتواصل ولكي يحقق أثره في القلب، وحصول النفع به من تنوير وتعريف وكمال وثواب، قالوا: (إن السالك لا يرى هذا العمل) بمعنى: لا يرى لنفسه فعلا فيه مهما بلغ، ومهما كانت خيرات هذا العمل وبركاته، ومهما أقبل على الله تعالى بالأعمال الصالحة، لأنه إن نظر إلى عمله واعتمد على فعله كان ذلك مدخلاً للشيطان وحظ النفس، وحاصل ذلك في أمرين: (أن يرى نفسه مقصرًا فيه، ويراه مع تقصيره منة من الله عليه) فيحتقر وجود عمله لأنه في هذه الحالة يرجو فضل الله عليه، لأنه لم يعتمد على عمله وإنما كان اعتماده على فضل الله تعالى، فلا عمل أرجى لحياة القلوب من عمل يكون بالله ولله غير ملاحظ فيه حظوظه وهواه متبرئًا فيه من حوله وقواه، فكلما تجلى في قلبه عظمة مولاه صغر عنده كل ما سواه، فهذا العمل الذي تحيا به القلوب، وهو حياة قلوب السالكين.

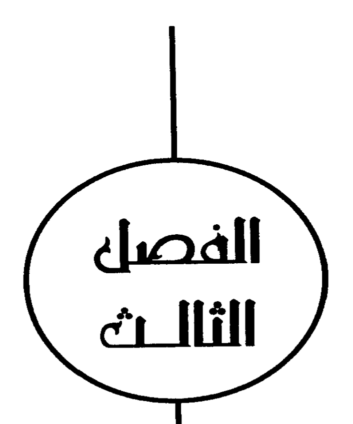
ومعنى احتقار السالك لعمله، ألا يحتقر العمل الصالح فهذا كفر، ولا يحتقر عملاً لغيره، فهذا إثم لا يجوز، وإنما يحتقر عمله ليس لأنه عمل صالح وإنما يحتقر أداءه لهذا العمل وممارسته وتطبيقاته أن تكون مدخولة ومنقوصة تحتاج إلى إتقان وتحسين، حتى يتطهر من أمراض النفس ويخلص من أمراض القلب.

وقد جمع أحد خبراء الطريق، كيفية كون العمل القلبي مادة لحياة القلوب في قوله: (إذا أراد الله أن يتولى عبده أنهضه للعمل وصغره في عينه، فلا يزال جادًا في عمل الجوارح حتى ينقله إلى عمل القلوب فتستريح الجوارح من التعب، ولا يبقى إلا شهود العظمة مع الأدب)، فحقًا كما قال ابن عطاء: (لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده، ويحتقر عندك وجوده).

***

وهكذا طريق السالكين بدايات وسير ونهايات ولكنها متكررة وكثيرة، فقد يصل السالك إلى أعلى مقام في لحظة وبعد فترة قصيرة يهبط هبوطًا شديدًا، ولكن أدب السالك إلى الله أن يعرف كيف يرقى إذا هبط، محاولاً الكمال والوصول إليه بالعمل المستمر والمتواصل والله يرعاه ويوفقه. ولذلك فقد اخترنا في الصفحات القادمة ومضات تستمر مع السالك في مراحل سيره المختلفة، وقد تتغير قوة وضعفًا بما يتناسب مع تقدمه أو تأخره، مع نهضته أو وقفته، ليتواصل السير بعلم وفقه.

***



علامات على الطريق

١- الطاعة.

٢- أنوار على الطريق.

٣- صحة الأعمال.

٤- أهل الحق وأولياؤه.

٥- الورد والوارد

الفصل الثالث: علامات على الطريق

١- الطاعة

متى تفرح بالطاعة؟

الفرح هل هو محمود أم مذموم؟ المؤمن الباحث عن الحقائق ينظر بعين القرآن ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الجاثية: ٢٠]، والبصيرة القرآنية قد أوضحت أن الدنيا؛ شهواتها ولذاتها وزيناتها وزخرفها لا قيمة لها، وهذا مثال قرآني في قصة قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، إن الدنيا حينما تفتح على الإنسان فذلك يمكن أن يكون إكراما أو إهانة، ولذلك فالمؤمن يكون على حذر ولا يفرح بها أو بشيء منها إلا باعتباره فضلا من الله تعالى.

وكم فسر هذا الذي يفرح بالشيء لأنه دنيا، وآخر يفرح بنفس الشيء لأنه من الله.. شتان بين الاثنين.والثاني هو السالك في الطريق، ويسمى فرحه: فرح بالطاعة.

وفرح السالكين على أقسام ثلاثة: قسم يفرح بالثواب ويخشى العقاب، فيرجو النعيم عليها ويدرأ العذاب بها، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم ومن حولهم وقوتهم وهم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، بمعنى عبودية لله، وقسم يفرح بها من حيث إنها عنوان الرضا وسبب في القرب من الكريم وسبيلاً إلى نعيمه، لا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركًا ولا حول ولا قوة، وهم من أهل قوله تعالى: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بمعنى عبودية بالله.

وقسم يفرح بالله دون شيء سواه، فإن ظهر منهم طاعة فالمنة لله وحده،لأنهم بالله ولله، ومن أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، فالله تعالى غني عن العباد وطاعتهم، وغنى عن أن يحتاج إلى من يطيعه سواه لقوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

وقد خشي خبراء السلوك من أن القسم الأول تكون طاعته وفرحه بها مدخولاً

بها لاعتماده على عمله، كثغرة قد يقع فيها الطائعون والثاني معرض كذلك للعجب والكبر والافتخار، أما الفرح المطلوب فهو الفرح بالطاعة لأنها هدية من الله إليهم، تدل على أنها من مظاهر كرمه وفضله وإحسانه، فالفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وكما في الحكمة: (لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك).

*** طاعة السالكين :**

السالكون في جميع مراحلهم سواء كانوا سائرين أم واصلين فمقياس الطاعة عندهم واحد، وهو أنهم لا يرون عملهم في الطاعة، ويصلون ويصومون ويزكون ويعملون الصالحات ويفتح الله علي أيديهم الخيرات والبركات ولا يرى أحدهم أنه فعل شيئا أو يشعر أحدهم أنه صنع أمرا، لا يري عملاً ولا يشهد حالاً، وإن كانت الطاعة من فضله وإحسانه، فالله هو الذي وفقهم إلي تحقيق هذا المقياس، فغيَّب السالكين عن رؤية أعمال جوارحهم وأعمال قلوبهم.

أما السائرون: فمهما صدر منهم إحسان أو أعمال صالحة أو أحوال موفقة.. رأوا ذلك في غاية الخلل والنقصان فاستحيوا من الله أن يعتدوا به فغابوا عن أعمالهم وأموالهم، واعتمدوا على فضل ربهم فبعدوا بذلك عن العجب والغرور.. لذلك كان النهر جوري يقول: (من علامة من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهداته. وبذلك يزداد فقره إلي الله في قصده وسيره حتى يغني عن كل ما دونه).

أما الواصلون: الذين وصلوا إلي شهود الطاعة، استشعروا أن كل شيء يجري على يده أو يد غيره، إنما هو صادر من الله عز وجل فحركاتهم وسكناتهم كلها بالله ومن الله وإلي الله وكما قيل: (إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه) فإن ظهرت فيهم طاعة أو صدر منهم إحسان شهدوا في ذلك الواحد المنان حتى قال بعضهم: (لا تنظر إلي عملك وإن صح وانظر لمن وفقك إليه)، وقد بين القرآن الكريم في قصة نبي الله شعيب عليه السلام ذلك في قوله تعالي: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي

إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فلما ذكر إرادة الإصلاح جعلها للعبودية، وذكر التوفيق بالتبري من الحول والقوة، وذكر الإنابة والتوكل للاستسلام.

*** الطاعة دليل الرضا من الله:**

السالكون لهم أعمالهم، فمنهم من أقامه الله في مقام المعرفة وآخر في المحبة وثالث في الخدمة، ومن الذين أقامهم في الخدمة من هو في خدمة عامة أو خاصة أو جهاد أو إداريات أو غير ذلك، وكلهم في الطريق سائرون إلي الله، ولكن ما مقياس رضا الله تعالى علي السالك مع ما كان عمله الذي أقامه الله فيه؟ لقد جعل الله تعالى مقياس الوصول إلي المقام الأعلى وبالتالي اطمئنان السالك إلى رضا الله عليه هو الطاعة.. التي إن توافرت فقد وصل العابد أو الزاهد أو المجاهد أو الخادم إلى المقام الأرقى، وشرط التحقق بالطاعة أن يكون قلبك مستغنيًا بالله عن الطاعة.. وهذا من كمال نعم الله عليك الجلية والخفية، ولقد فقه أحدهم ذلك فكان يقول في مناجاته: (نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك)، فهؤلاء الأغنياء بالله الغائبون فيه عما سواه، عبادتهم بالله ولله ومن الله.

فإذا اجتمع لك أيها السالك طاعة وغنى بالله عن الطاعة يعنى أن تكون معتمدًا على الله لا على الطاعة، فأنت في المقام الأرقى مهما كنت، وحيث كنت، وفي أي عمل وجدت. وهنالك فقد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة مع أنه تعالى هو الذي رزقك الطاعة والغنى بالله عنها.

نسأل الله أن يمن علينا بطاعته فكما قيل: (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك) يقول النبي ﷺ: **«إن الله لا يسأل الخلق عن ذاته وصفاته، ولا عن قضائه وقدره، ولكن عن أمره ونهيه»**، فاطلب ربك من حيث يطلبك.

وإذا فهمنا ذلك، فإن التأسف والبكاء دون النهوض إلي الطاعة وتحقيقها من علامة الاغترار، يقول الداراني: (ليس البكاء بتعصير العيون وإنما البكاء أن تترك الأمر الذي تبكي عليه).

وهل يجدي حزن على فقدان طاعة مع عدم النهوض إليها، لقد عدُّوا ذلك من

حزن الكاذبين، أما الصادقون فحزنهم لا يدوم بفقدان طاعة لأنهم ما يلبثون ينهضون، فإذا تقدم السالكون في الطريق إلى الوصال بربهم، فإنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فماذا فقد من وجد الله، وهي حال متقدمة جدا للسالكين، فقد مر الصديق رضي الله عنه بقوم يقرؤون ويبكون فقال: كذلك كنا ثم قست القلوب. يفسر لنا ذلك الإمام ابن عجيبة بقوله: عبر بالقسوة عن التمكين أدبا وتسترا لأن القلب من بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال، فإذا استمر معها وتصلب لم يتأثر بشيء ويكون كالجبل الراسي ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أرأيت كيف أن المقياس لجميع السالكين..الطاعة والاستغناء بالله عنها.. ولذلك كان حزن الصادقين على فقدانها والنهوض إليها والتحقق بها لأنها دليل الرضا من الله تعالى.

*** ماذا لو رزقك الله الطاعة؟**

أولاً: التوفيق والهداية لها قبل العمل:

لو رزقك الله طاعته، فقد وفقك إلى أعظم منة، إذ بها تصحح دومًا نيتك لمولاك، وتقبل عليه على الدوام، وتحقق العبودية له عز وجل، فيكفيك أن جعلك أهلاً للوقوف بين يديه، (كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً) وقد قيل في ذلك: لأن الملك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يكرمه، ولا يدخل لحضرته إلا من يريد أن يعظمه، ولا ينسب له إلا أهل الفضل والتكرمة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ثانيًا: ما يرد على القلب أثناء العمل بها:

من المؤانسة بالله والقرب له، وما هو فاتحه على قلوبهم من طاعته، وجملة ذلك كما قالوا: الخشوع، أما ما يجده السالك في حال طاعته ثلاث:

الأول: وجود الأنس بالله فيها وذلك بإقباله ومنه ما يقع من الرقة والخشوع.

الثاني: وجود التملق بين يديه، وله حلاوة ينسى بها كل شيء.

الثالث: حصول الفهم والفوائد والعلم بالحقائق التي بها يترك كل شيء.

يقول بعض العلماء: ليس في الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، وقال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شيء (وهي طاعة الله عز وجل). فهي تنقلك إلى جو لا يسبح فيه إلا من تذوقه، ففي الحديث إن رجلين من الصحابة كانا في حراسة المسلمين من الكفار فقام أحدهم يصلى ونام الآخر، فكبَّد كافر قوسه وضرب المصلي فأصابه السهم فلم يحفل به، ومضى في صلاته فعاوده بثان كذلك ثم ثالث، فلما رأى ذلك أيقظ صاحبه، وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما أيقظتك ولكان ما أنا فيه شاغلاً لى عما أصابني.

ثالثًا: ما يجده من الثمرات بعد العمل بها:

وذلك من وجود مؤانسته، يقول تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، قيل: يعنى فيما بينهم وبينه، وقيل: فيما بينهم وبين عباده، وقد يريد الجميع، يؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «**إذا احب الله عبدا نادي جبريل إني أحب فلانا فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض**».

وفي وصية عطاء لمالك بن أنس: أطع الله يحبك الناس وإن كرهوا. وهكذا لو رزقك الله طاعته فجزاؤك على ثلاثة أوجه: جزاء قبل العمل بها وهو التوفيق، وجزاء في العمل بالمؤانسة، ثم جزاء العمل بقبوله والفرح بالفوائد...

*** الطاعة المقبولة:**

لا عبرة بالطاعة إذا لم يصحبها قبول، فما فائدة أن يفتح لك باب العمل، وقد بلغت فيه غاية أملك غير أنك لم تجد له ثمرة، ولم تذق له حلاوة من الأنس بالله، والانقطاع عما سواه، ومن الغنى به، والاكتفاء بعلمه، والقناعة بقسمته، بل قالوا: من وجد الطاعة فلا يغتر فربما فتح لك باب طاعته وأنهضك إلى خدمته ولم يفتح لك باب القبول!! ومنعك من الوصول حيث اعتمدت على طاعتك وركنت إليها وأنست بها

وأشغلتك حلاوتها عن الترقي إلى حلاوة المنعم بها.

فالطاعة إن خلت من التوحيد والإخلاص ورافقها عجب واستكبار فإنها تخلو من القبول، وباب القبول ثلاثة أمور: التقوى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧]، فكل عمل لا تقوى معه تعب لا فائدة له، والإخلاص: إذ لا يُقبل إلا ما أريد به وجهه لحديث الرب: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه**» رواه ابن ماجه، والإتقان: إذ لا يقبل الله عاملاً إلا بالصدق واتباع الحق؛ فقد يعطيك الطاعة ولا يعطيك القبول، فتحرم من الوصول، وربما كان الذنب سببا في الوصول، يقول النبي ﷺ: «**رب ذنب أدخل صاحبه الجنة**»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لا يزال تائبًا فارًّا منه خائفًا من ربه حتى يموت فيدخله الجنة**» وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم**» ويقول ﷺ في شأن الطاعة غير المقبولة: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وقائم ليس له من قيامه إلا السهر**»، ولذلك كان اتفاقهم: (رُبَّ معصية أورثت ذلاً وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا) لأن المقصود بالطاعة هو الخضوع والخشوع والتذلل والانكسار والانقياد: (**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**).

والعبرة ليست بصورة الطاعة أو بصورة المعصية وإنما العبرة بما ينتج عنهما: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم**».

يقول الحارث المحاسبي: إنما مراد الله سبحانه من عباده، قلوبهم، فإذا تكبر العالم أو العابد وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبة لله عز وجل وخوفا منه فهو أطوع لله عز وجل من العالم والعابد بقلبه.

ويقول ﷺ: «**لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك: العجب**» كذا في الصحيحين، وقال الشيخ أبو مدين -رضي الله عنه-: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

*** الصلاة معراج الوصول:**

هذه الروح التي هي من أمر الله تعالى، سجينة في داخل البدن محجوبة ببشرية

الإنسان، وقالوا: إن البشرية قد تغلب وتظل الروح محجوبة ورهينة فلا يرى صاحبها إلا الحس، فإذا غلبت الروح وانطلقت من محبسها انعكس نظر البصر إلى البصيرة فلا يرى البصر إلا المعاني التي تراها البصيرة.

وهنالك لا صبر للمحب عن محبوبه، لا صبر لروح تسمو عن رؤية ربها، ففتح الله بفضله رؤية كماله ونور بهائه من مظاهر مخلوقاته، في السماء والجبال والأنهار والبحار، في الليل والنهار، في الشمس والقمر، في الأزهار والرياحين، في النفس والآفاق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وحينئذ تسمو الروح وتنطلق في حرية من قفص البدن.

ومن أجل انطلاقة الروح وتساميها فتح الله للإنسان باب الطاعة، ولوَّن له الطاعات حتى لا يحدث للإنسان ملل، فمن شأن النفس أن تمل من تكرار الشيء الواحد حتى ولو داوم على القرآن.

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

فإذا مللت من الصلاة انتقلت إلى الذكر، ومن الذكر إلى تلاوة كتابه وهكذا، فالتنقلات من موجبات النشاط، وكما قيل: العبادة مع النشاط أعظم من العبادة مع الكسل، وإن كثرت، فالعبرة بوجود المعنى.

إنها أشبه بروافد يفتحها الله تعالى لعباده من كل جهة: رحمة بهم ليستريحوا من تعب إلى آخر، وحبٌّ لهم حتى لا يكون لهم عذر في الترك، وتيسير لك لعلمه بضعفنا بجعل الطاعات على الاختيار ونسبتها إليك فتسهل الطاعة.

وقد تجد آخرين يغالون في الأمر ويندفعون في عجلة، وهو أيضا من طبيعة النفس وأطلقوا عليه (الشره) خفة في النفس تملى على الإنسان السرعة في الأداء، والله تعالى كما لوَّن الطاعات حتى لا يحدث الملل الطبيعي في النفس، جعل الطاعات في أوقات محددة، وكانت الحكمة من ذلك معالجة ما في النفس من الاندفاع والغلو والحرص وسرعة الأداء وما يترتب على ذلك من ترك أو ملل لضيق النفس وتبرمها، أو على الأقل الإخلال بالطاعة لوجود العجلة، فتعيين أوقات دون أوقات يمنع العجلة

ويعمل على أداء العمل كما ينبغي والتمكن فيه، ولا يجعل الإنسان يقع في التأجيل والتسويف، فجعلها الله في أوقات، ولو أعطينا مثالاً لذلك كانت الصلاة التي هي معراج الوصول، (لأن العبرة بإقامتها وليس بوجودها)، وحكمة ذلك اشتياق النفس إلى الصلاة فترتاح بها ويحصل فيها الخشوع والحضور وتكون قرة العين، وبذلك تتحقق حركة القلب وهي المقصودة: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم**» فالسر في أوقات الصلاة، أن يكون همك إقامتها وهو إتقانها والقيام بحقوقها، ورضي الله عن عمر بن عبد العزيز كتب يوما إلى عُمَّاله: (إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها فهو لما سواها أحفظ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع).

فكان جماع الأمر في الخشوع فيها، وكما اتفقوا: (ليس كل مصل مقيمًا) بل قال قائلهم: ولا كل مقيم مقيم بمعنى الكمال والإتقان، ويقول النبي ﷺ: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا**».

ويقول ﷺ: «**إذا صلى العبد فلم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها لُفّت كما يُلّف الثوب الخَلَق ثم يُضرب بها وجهه**».

وفي القرآن الكريم جاء المدح لإقامة الصلاة أو بمعنى يرجع إليها:

يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ**﴾ [البقرة: ٣].

ويقول تعالى: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ**﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ويقول تعالى: ﴿**وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ**﴾ [الحج: ٣٥].

ويقول تعالى: ﴿**وَأَقَامَ الصَّلاَةَ**﴾ [التوبة: ١٨].

وعند ذكر الغفلة قال القرآن: المصلين ولم يقل: فويل للمقيمين الصلاة، وفي قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ [الماعون: ٥]، ولذلك كانت الصلاة ميدانًا للخشوع، ويبدأ الخشوع بالنسبة للسالكين بالخوف والانكسار والإذلال، فإذا تقدم السالك في الطريق كان الخشوع خشوع تعظيم وهيبة وإجلال ثم

يرقى السالك إلى خشوع فرح وسرور وإقبال، حيث يسمى هذا المقام (قرة العين)، فإذا أراد السالكون أن يحافظوا على الخشوع بدرجاته المختلفة، فعليهم بما يعينهم على ذلك وقد أجملوها في ثلاث: الزهد في الدنيا، لأنه مُحَالٌ أن تكون الدنيا في القلب ويسلم من الخواطر، ثم الإكثار من ذكر الله بالقلب والقالب، ثم إدمان الطهارة لأن طهارة الظاهر تتعلق بالباطن. وهنالك تظهر الفوائد وثمرات الصلاة وكلها عملية ترقى بالمصلى إلى الوصول.

*** ثمرات الصلاة:**

١- تطهير القلوب:

فيما رواه البخاري ومسلم: «**أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**» فأولى فوائدها تطهيرك من الذنوب والمساوئ والعيوب، لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار والتذلل والاضطرار، فكما قيل: (إذا خضع القلب لهيبة الجلال طهر من سائر العلل، ورد النفس إلى أصلها بانكسارها وذلها) يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: (أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحامًا فأتيت باب الذل والانكسار فوجدته خاليًا).

فإذا أراد الله أن يرحم النفس ألهمها الصلاة وحببها إليها حتى إذا تطهرت من الذنوب ومحيت عنها المساوئ والعيوب قرعت الباب وهذه هي الثمرة الثانية.

٢- دخول الباب:

فإذا تمكن التطهير وسلمت القلوب، كان حريًا بها أن تدخل لباب الله تعالى، يقول الحكيم الترمذي: (دعا الله الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم، وهيأ لهم فيها أنواع الضيافة لينال العبد من كل قول وفعل شيئا من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة). وفي الصلاة يتأمل المصلي أركان الإيمان بالغيب ففي قوله: (سبحانك اللهم) تذكير بالله، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تذكير بالأنبياء، (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) تذكير بالملائكة. فالإقبال الحقيقي هو فتح باب بينه وبين الغيب، وبإشراق قلبه

يكون تفاعله فإذا تطهرت الجوارح وتطهرت القلوب استحق السالك الدخول إلى الحبيب فيتمتع بمناجاة القريب ولذيذ الخطاب وهي الثمرة الثالثة.

٣- مناجاة الحبيب:

يقول ﷺ: «**المصلي يناجي ربه**» والمناجاة هي المكالمة مع الأحباب والمسارة، ومناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار، ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح والمعرفة، ويكمن السر في المناجاة لأن السالك بالصلاة يكون قريبًا من ربه بلا واسطة سوى ذكره وهو يقف بين يدي ربه يقوم مباشرة بوظائف العبودية، وقد فسر النبي ﷺ جلال هذه المناجاة في قوله عن ربه: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: مجدني عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله تعالى فوَّض إليَّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله تعالى: هذه بيني وبين عبدي، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم (الآية) قال الله: هذه لعبدي ولعبدي ما سأل**». وقد قيل في المناجاة: العبد يسارر ربه بما في نفسه فيلقى إليه من أسراره ما يليق به ويقابله بما ذكر من خطابه، وإلا فالرب منزه عن المساررة الحسية المعهودة في قياس البشرية.

والسالكون لمناجاتهم بالصلاة هم الفائزون السابقون، فالمناجاة حياة مع الحبيب تعالى. لقد كان أحدهم يتهيأ ليسأل الله حاجته فيدخل في مناجاة ربه بالصلاة فتنسيه المناجاة حاجته، من لذتها وحلاوتها، وجلالها وجمالها، فيقضي الله حاجته دون أن يسأله إياها. وإذا حقق السالك مناجاته يناجيه ربه بالفهم والعلم في قلبه يشعر بخفقة الرضا ثم تتوالى نبضات الفتح يستنشق نسيمها وينشرح صدره في بهجة وحبور.

وما يزال على هذه الحال في مناجاته حتى تتمكن المحبة في القلب والإقبال على الله فتصفو المحبة ويتصل المحب مع حبيبه في محل الصفاء وهذه هي الثمرة الرابعة:

٤- صفاء القلوب

وهي أرق وأصفى من المناجاة، بل هي ثمرة المناجاة:

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا   سرٌّ أرَقُّ من النسيم إذا سرى

هذه مصافاة العبد لربه، ومصافاة الرب لعبده بالإقبال عليه حتى لا يدعه لغيره وقيل: (المصافاة من الصفاء، فالعبد يصافي ربه بقلبه فيصافيه ربه بما يلقيه إليه من رحمته) ولذلك كانت الحكمة: (الصلاة معدن المصافاة)، والمعدن محل الذهب والفضة استعيرها لصفاء القلوب والأرواح.

فإذا تمت التصفية استحقت الروح رفع الحجاب وانتقلت إلى عالم رحب حيث ميادين واسعة فسيحة من المعارف، وهذه هي الثمرة الخامسة.

٥- تعيش في عالم رحب:

هنالك تنتقل الروح إلى عالم رحب حيث ميادين فسيحة وفضاء واسع، تسبح الروح فيها وتجول بفكرتها، وتتنزه في إشراقات لها نور وحلاوة وتذوق، وقد أطلقوا على هذا الفضاء بميادينه (عالم الملكوت) وهو أرحب من (الملك) المرئي للإنسان، وإنما هذا الاتساع هنا هو دقائق المعارف والعلوم في الصلاة، فيجد المصلي في كل سورة معنى، بل في كل آية، بل في كل حرف، ويتجدد ذلك بتجدد الأوقات والأيام على قدر الهمة والقصد والفيض.

وكلما تقبل على الله بالأنوار يقبل عليك بالإشراقات، فتشرق عليك حينئذ الأنوار وهي الثمرة السادسة.

٦- شروق الأنوار:

فإذا أشرقت الأنوار، فهذه علامة الوصول، فصلاة السالكين هي التي تنقلهم من حال إلى حال، هي صلاة أهل المجاهدة من العباد والزهاد المصرين على الوصول حتى الوصول:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته   ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وشروق الأنوار هي الدقائق في العلوم واللطائف في الصلة بالله والأسرار في المعرفة والفهم، التي سرعان ما تظهر على الجوارح من تمكنها في القلوب، وهذه سمة

عمل الفؤاد، حتى قيل: (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار).

يقول أبو طالب المكي عن صلاة المؤمن: (فإذا قال: الله أكبر: اطلع الملك في قلبه فإذا ليس في قلبه أكبر من الله فيقول الملك: صدقت، الله أكبر في قلبك كما تقول، فيتشعشع في قلبه نور يلحق ملكوت العرش ويكتب له حشو ذلك النور حسنات).

وبعد كل هذه الثمرات:

فوالله الله يحبنا، يخفف علينا لعلمه بضعفنا ليجذبنا إليه وسلوك طريق طاعته، لطفًا منه ورحمة، فقلل من أعداد الصلاة من خمسين إلى خمس مع سعة الزمان، فهل من عجب بعدها ألا نشكره على مننه تعالى علينا، وكما قيل: (عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل).

ثم علمه -مع ضعفنا- بحاجتنا إلى أفضاله وحسناته وأجره، فمع تقليله لعددها كثر من ثوابها، فجعل كل صلاة بعشر فهي خمس وهي خمسون في المعنى أي الأجر والثواب، بل يزيد ذلك في الجماعة وتتفاوت بكثرة الجماعة وكمالها وبقدر الحضور والخشوع، يقول تعالى: ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]، ويقول تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، بل وتتفاوت أيضا بقدر البقاع كبيت الله الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس بل برتبة الإمام: (من صلى خلف مغفور غفر الله له).

فالصلاة حقًا معراج الوصول، وتتويج لأهل الطاعة، فكل معاني الطاعة السابقة جماعها في الصلاة، لأنها عنوان الطائعين، وقرة عين السالكين، تسبقهم في السير أنوار من الله في قلوبهم، وبين أيديهم، بل نورهم يسعى بينهم، فهم على نور وبنور بل كلهم نور: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وهذه هي العلامة القادمة في طريق السالكين.

* * *

٢- أنوار على الطريق

*** أصل الأنوار:**

فيما رواه البخاري ومسلم قول النبي ﷺ: «**إن الله عز وجل خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور فقد اهتدى**».

فالكون كله فيما هو عليه بالنسبة للقلب المؤمن يدل على الله ولولا هذا النور الذي رشه الله عز وجل على الكون بعد أن خلقه، ولولا النور الذي رشه الله عز وجل على القلوب لما كانت هناك هداية، فهذا النور في قلب السالك إلى ربه يجعله يجد كل شيء يهديه إلى الله تعالى.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فصار الكون بهذا المفهوم كله ظلمة، وإنما أناره تجلي الحق به، وظهوره فيه، فمن نفذ إلى حقيقة الكون رآه نورًا، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

في أنفس الملحدين، خلت قلوبهم من النور، فما رأوا الكون إلا مادة ظلماء، أما المؤمنون السالكون فإنهم يتحققون بالمعنى، يقول التستري: (لا تنظر إلى الأواني، وخُضْ بحر المعاني، لعلك تراني).

فنظر القلب المؤمن بنور ربه فرأي صفاته عبر الكون، فإما أن يراها قبل تأمله في الكون، أو بعد النظر أو فيه أو معه، فإذا لم يستشعر القلب هذه الحالات فليتنبه السالك إلى قلبه لخلوه من النور، وما يزال القلب بالأنوار يرقى إلى أكمل حالاته حيث يرى المكوّن في كل شيء من الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحجر: ٦٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، فإن لم يرق فليرض بأقل الحالات إلى أن ينظر إلى الكون ثم

يتذكر الله تعالى، أو يرى في الكون آثار الله عز وجل: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ﴾ [الروم: ٥٠]، فإذا وقف النظر عند هذه الآثار دون تأمل وتفكر، فقد تكونت من الآثار سحابة تحجب عنه الأنوار وأشعتها الذهبية التي تنطلق إلى القلوب من شموس المعارف، وأني لقلب محجوب عن الشمس أن يدخل فيه نور، بل وجود الحجاب علامة على أن القلب مريض، وعلى السالك أن يبذل من الجهود ما يخلص قلبه من أسقامه وعلله.

فالأصل أن ترى الله في كل شيء، وأن ترى الله قبل كل شيء، وأن يكون قلبك مجموعًا على الله عز وجل، وأن يكون مستغرقًا بالله تعالى.

*** نور السالكين:**

تحدثنا من قبل عن نور يمتد مع السالكين حتى يكونوا من الواصلين، فما زال السالك يرقى وترقى أنواره، حتى يصبح عينا للنور ويملك الأنوار بعد أن كانت تملكه، ومعنى ذلك أن عمل الجوارح وصدق التوجه إلى الله من السالك يعرضه إلى هداية الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فبهدايتهم إلى العمل يذوقون حلاوته، وهذه أول الأنوار، ثم يرقى إلى العمل القلبي من الإيمان والإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس بربه، وبهدايتهم إلى العمل القلبي والتحقق به يذوقون حلاوة المراقبة وهذه أنوار أخرى للسالكين وهي أعظم وأكمل من الأولى.

ويستمر السالكون في صدق توجههم حتى يتوجه إليهم ربهم بنور حلاوة المشاهدة وهو عمل الروح، وقيل: هو أول أنوار(المواجهة) من الله تعالى، فيستغني السالك عن النور بمشاهدة نور النور لأنه صار عين النور صار مالكًا للنور، وهنالك يصبح عبدًا حرًا مما سواه: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، يقول الله تعالى عن هذه الهداية الخاصة: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فأنوار الهداية الأولى بصدق توجه السالك إلى ربه، وأنوار الهداية الثانية لتمكنه من الأنوار وهي التي يواجه بها الله السالكين: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، وذلك لأنهم لله لا لشيء غيره، وما أحوج القلب إلى التثبت، وهو في طريقه تعصف به

عواصف عاتية وتيارات مدمرة، ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢] وهذه المثبتات هي هداية الله لمن شاء إكرامه، أو قل هي أنوار السالكين في تشميرهم واجتهادهم واستعدادهم وتأهبهم، فكما قيل: بقدر المجاهدة تكون المشاهدة وبقدر التخلية تكون التحلية، وهي أنوار الله حيث التقدم والوصول إلى العلم به والفهم عنه والتي تكون على حسب صفاء القلوب مما سوى الله (فالأنوار مطايا القلوب، والنور جند القلب، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار)، وهذا يحتاج إلى تفصيل وبيان.

مادة حياة القلوب

* **النور:**

من أصول الطريق التي تحدثنا عنها من قبل(حياة القلوب) التي تكتمل بالعمل، ومتى كان العمل كان الأثر في القلب، هذا الأثر هو(الوارد) من الله إلى (القلوب)، (وهو نور يقذفه الله في قلب من أحب من عباده)، لكن يحول دون وصول الواردات أو الشعور بها الحجب الموجودة على القلب، فقد تصل ثم ترجع أو يكون أثرها ضعيفًا والأدلة على ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، (لما) في اللغة تفيد أن الشيء لم يقع ولكنه على وشك الوقوع، والمعنى: حتى هذه اللحظة لم يدخل الإيمان لكنه على وشك أن يدخل، وهذا دليل على أن القلب تدخله أنوار الإيمان كأثر من آثار العمل، يطلق عليه (أهل السلوك) الوارد وهو علامة مميزة في السير إلى الله عز وجل، ثم في قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، يقول تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ ، فسرها العلماء بالشريعة، فبقدر ما يقوم الإنسان بأعمال الشريعة فهذا النور في القلب مشتعل لوجود المولد، فهو مادة حياة القلوب وليس العمل الصالح في الذكر فحسب، بل كل عمل من أعمال الخير له وارد وأثر، تلاوة القرآن، الخدمة العامة، والجهاد، وكل نوع من أنواع الأعمال الصالحة لها وارد في القلب: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، فالأثر المباشر لتنزل

السكينة هو زيادة الإيمان، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، فما سر هذا الوارد أو هذا الأثر في القلوب؟! إحفظ معي هذه الحكمة البليغة (إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا)، جعل في قلبك الأنوار من أجل أن ترد عليه، أي تتوجه إليه وحده وتريد وجهه، فهذه الواردات تدفعنا إلى مزيد من السير، ومن الحركة، ومن النهوض، ومن العمل فإذا كان توجهنا إلى الله ضعيفًا، فمعنى ذلك أن الواردات القلبية ضعيفة بمعنى أنك أضعفت أنوار الحركة والدفع فانتبه، وعليك عندها بالأوراد؛ فلولا ورد ما كان وارد.

ولهذه الواردات آثار ثلاثة كلما تقدم السالكون في الجد والعمل تقدمت بهم الآثار.

فالأثر الأول: أنوار الانتباه، قالوا عنها: يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، وعلاماتها الإقبال على الله والتجمع عليه بالكلية.

والأثر الثاني: أنوار الإقبال التي تحركه لذكر الله تعالى، فيمتلئ القلب نورًا فلا يرى إلا النور، حيث يتسلمك الله تعالى من أَسْرِك وسجنك، لتنطلق حرًا خفيفًا، من أسر نفسك، أو أسر المجتمع، أو أسر الدنيا، أو أسر فكرة، أو أسر درهم، قيل: (بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك، وسجنوك في سجن حظوظك وَمُنَاكَ وليحررك ويعتقك من رق ما سواه).

والأثر الثالث: أنوار الوصال، ليخرجك من سجن وجودك، فالشعور بالوجود مع الغفلة عن الله يورث العجب والغرور، وبسببها تتمكن كل الأمراض القلبية، ومتى خرج الإنسان من الشعور بوجوده إلى شهود الله تعالى انتقل من سجن الوجود الذي تفشت فيه أمراض النفس والقلب إلى أن يصبح في فضاء رحب متسع يشهد فيه ربه، ويتحرر من كل مرض أو جواذب دنيوية أو نفسية أي إلى أن تعبد الله كأنك تراه، وقد قيل في ذلك: (مُحَالٌ أن تشهده وتشهد معه سواه)، وعندها تكون قد خرجت من أسر نفسك ومن أسر الشيطان ومن أسر الدنيا. والسالكون بهذه الأنوار

يزنون أنفسهم..أين وصلوا؟ فإذا كان التوجه قويًا فهم أبناء سلوك.

*** النور مطية الوصول:**

أهل السلوك إلى الله هم أهل الآخرة، يعيشون في الدنيا مع الناس ولكنهم في الحقيقة يسلكون بقلوبهم دنيا أخرى، لو عرفها الملوك لقاتلوهم عليها، لأنها ألذ من لذاتهم، وأروح لأنفسهم وريحان لقلوبهم، في الوقت الذي يعاني منه أبناء الدنيا من القلق والاضطراب والحيرة والتخبطات ولو رفعت لها أسماء غير أسمائها.

أبناء الآخرة ليصفو سيرهم يبحثون عن أمرين:

الأول: ما مطيتهم وركوبهم وواصلتهم في رحلتهم؟

الثاني: ثم كيف يقاومون عامل الجذب والإغراءات، ولما كان في الحقيقة أن القلب هو الذي يسير إلى ربه، فكان السؤال المطروح: ما مطية القلوب للوصول؟ وبأي سلاح يقاوم القلب العوائق والجواذب؟

وقد اتفق أهل السلوك أن القلب له مطية وله جند، فمطية القلب في سيره نحو الله عز وجل والآخرة هو النور، فالنور القلبي له مهمتان:

الأولى: أنه مطية الإنسان في سيره نحو الله عز وجل، فعندك نور فأنت إذن تركب مطيتك وسائرٌ نحو الله عز وجل.

الثانية: أن هذا النور دوره دور الجند، عندك نور فأنت تستطيع أن تقهر الجند الآخر، الذي يريد أن يسلمك إلى الشيطان وإلى الدنيا، ألا وهي (جند النفس)، والنفس إذا ذكرت إلى جانب القلب، فهي المذمومة من الشهوات والأهواء، وقد أطلق على جندها (الظلمة)، فالنور جند القلب، والظلمة جند النفس، فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره فيلتحم بينهما القتال، فإذا أراد الله عناية عبده ونصره، أمد قلبه بجنود الأنوار، وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار، فينتصر النور علي الظلمة وَتُوَلِّي النفس منهزمة، وإذا أراد الله خذلان عبده، أمد نفسه بالأغيار وقطع عن قلبه شوارق الأنوار.

وعندهم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر، أسماء لمسمى واحد، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها وتنقل أطوارها، ومثل ذلك ما قاله الساحلي في بغيته: (كما المطر النازل في أصل الشجر ثم يصعد في فروعها فيظهر ورقا ثم نَوْرا وأزهارا ثم يعقد ثمره ينمو حتى يكمل، فالماء واحد واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره).

*** كيف يؤدي النور مهمته؟**

لو كان معك كشاف في ليل مظلم، فكيف تتخذ قرارك؟ إن أول ما يظهر لك أن تنكشف لك الأشياء من حولك ثم يأتي دور الحكم العقلي، هذا يضر وهذا ينفع، هذا شر وهذا خير، وعلى ضوء هذا الحكم تكون قد اتخذت قرارك بالقبول أو الرفض.

وهذا ما يحدث تمامًا للنور وهو يؤدي مهمته، ولا ننسى أن النور الذي هو جند القلب جماع أنوار الإسلام والإيمان والإحسان، من إذعان لله وتسليم لقهره وطمأنينة وإيمان وإخلاص وصدق مع الله ثم غيب عما سواه وشهوده حتى (أن تعبد الله كأنك تراه)، وهذا النور بجنده له الكشف فيرى الأشياء على حقيقتها، يرى الزنا فلا ينظر إليه على أنه متعة بل يراه ظلمة ونهايته النار، وبعد الرؤية تتحرك البصيرة التي هي عين القلب يرى بها الحقائق في **مرحلة ثانية** لتصدر حكمًا فيما يجب فعله، وهذا منكر تجب محاربته أو خير تجب تقويته، ثم يصبح الموقف النهائي في **المرحلة الثالثة** للقلب ليأخذ قراره بالإقبال أو الإدبار، بالتصرف أو بالإحجام، أما إقباله فمن آثار جنده، وإدباره من آثار جند النفس وظلمتها، وما أبلغ هذه الحكمة لابن عطاء: (النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الإقبال والإدبار)، هكذا يعمل النور ويقوم بأداء مهمته ولذلك فأهل السلوك يهتمون بالأوراد فهي العامل الحاسم في السير حتى يصل السالك إلى الكمالات مع نصحهم لصدق توجه القلب في أوراده إلى ربه، طمعًا في الأنوار، تطلعا إلى جند القلب.. ومتى كانت الطمأنينة في القلب أو حتى الإحساس بأن للسالك قلبًا له مشاعر وأحاسيس، فإن النور في انتصار، حيث لا بقاء لظلمة مع وضوح النور: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

*** شمس القلوب ليست تغيب:**

يقول تعالى: ﴿**فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ**﴾ [الروم: ٥٠]، فكل هذا الكون إنما هو من آثاره في الحقيقة، فالمطر من آثار رحمة الله وما يكون بسبب المطر هو من آثار رحمة الله، فكل ما ظهر على الكون من تأثير قدرته وإبداع حكمته كتزين السماء بالكواكب والقمر والشمس والنجوم وما فيها من إبداع الصنع وتمام الإتقان، وكتزين الأرض بالأزهار والثمار والنبات وسائر الفواكه، وكتزين الإنسان بالبصر والسمع والكلام وسائر ما فيها من عجائب الصنعة، يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين:٤]، ويقول تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا**﴾ [الكهف: ٧].

ولكننا نلحظ على كل هذه الآثار مع ما فيها من أنوار أنها تذهب مع الغروب، فكل شيء أناره الله بآثاره فهو إلى أفول، فيتبدل بالظلمة، فالشمس والقمر يطرأ عليهما الكسوف والغروب وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب.

وإنما ذلك لما أودع الله فيها من أنوار صفاته من علوم ومعارف ولطائف ودقائق، فكانت كالشمس التي لا تغيب وهل تغيب أنوار الإسلام والإيمان والإحسان؟!

طلعت شمس من أحب بليل ... واستنارت فما تلاها غروب

إن شمس النهار تغرب بالليل ... وشمس القلوب ليست تغيب

بل إن نور الشمس والقمر من أنوار القلوب؟ والنور هو اليقين الحاصل في القلوب يثمر حلاوة العمل، وكلما قوي اليقين قوي النور واشتدت حلاوة العمل، سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**العلم بالله**» قالوا: يا رسول الله سألناك عن العمل، قال: «**العلم بالله**» ثم قال في الثالثة: «**عمل قليل كاف مع العلم بالله**».

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل دعا، ومن الدعوات التي حفظت عنه ما رواه البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «**اللهم اجعل في قلبي نورا**» وفي رواية مسلم: «**اللهم اجعلني نورًا**» فالكمال في أن يكون السالك نورًا خالصًا، وذلك لا يكون إلا إذا أصبح قلبه كله نورًا خالصًا، وهذا لن يتأتى إلا إذا استمر السالك في ذكره

وطاعته وعبادته لله وفي صحبة أبناء الآخرة من السالكين. ويقول الشيخ زروق: (فشمس القلوب لا تغيب أبدا، بل هي دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها، وهي معاني الأوصاف الربانية ودوام محالها، فالمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم، ومن هذا الوجه كان غنى القوم بالله لا بالأسباب، وتعلقهم به لا بشيء دونه).

هذه الشمس قابلتنا بنورها ... ولشمس اليقين أبهر نورا

فبهذي قد رأينا الأنوار ولكن ... بهاتيك قد رأينا المنيرا

ولهذا السر فإذا أشرق لك نور اليقين، عشت وكأنك في الآخرة أما إذا ضعفت فإن الدنيا تسيطر على نفسك، ففيما أخرج الطبراني قول النبي ﷺ: «**إن اليقين هو الدين كله**»، يقول أحمد بن عاصم الأنطاكي: (اليقين نور يجعله الله في قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها).

ويقول النبي ﷺ: «**إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح**»، قيل: يا رسول الله ﷺ وهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «**التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**» ولذلك كانت حكمة ابن عطاء: (لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها).

واليقين: هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يخالطه ريب، ولا يصحبه اضطراب، مشتق من يقن الماء، إذا حبس ولم يجرِ، شُبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة، ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب.

وإشراق نوره: هو ظهور أثره على الجوارح، فيظهر فيها الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله، المسارعة إلى ابتغاء مرضاته والمبادرة إلى مظان محابه، ولهج اللسان بذكره وشغل القلب بالفكرة في عظمته..فهذه علامة إشراق نور اليقين في القلب.. كما رآها حارثة رضي الله عنه حين أخبرنا عن حقيقة إيمانه، وكما رآها معاذ بن جبل رضي الله عنه حين دخل على النبي ﷺ وهو يبكي فقال له: «**كيف أصبحت يا معاذ؟**» قال: أصبحت مؤمنًا فقال: «**إن لكل قول مصداقًا ولكل حق حقيقة، فما**

مصداق ما تقول؟» فقال يا رسول الله ﷺ ما أصبحت صباحًا قط إلا ظننت لا أمسي، وما أمسيت قط إلا ظننت لا أصبح، ولا خطوت خطوة قط إلا ظننت أني لا أتبعها بأخرى، فكان الرد النبوي: **«عرفت فالزم»**.

*** النور مطالع القلوب:**

ربما يقول قائل: إن قضية الأنوار هذه قَلَّ من يتحدث عنها فهي قضية مهملة، فلماذا تتحدثون عنها؟ وهذا كلام جيد ولكنه يظهر حقيقة محزنة يعيشها المسلمون، ذلك لأنهم لما كثرت عليهم الجواذب وحاصرتهم بالقواطع وهددتهم العوائق، انشغلوا بذلك فكثر الحديث عن هذا الجانب، ولم يتحرك المسلمون خطوة من مكانهم، ولكن السالك الذي يبغي السير إلى ربه ناشدًا الوصول طالبًا الفوز الجميل، دائمًا هو يبحث عن الكمال والأرقى، وهنا تكون هذه القضية محلاً لنظره، ودافعة له نحو المزيد من الإتقان، وقد أعجبني تفصيل لابن عجيبة أسوقه إليك: (إن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند الكثير شيء واحد، وما هي إلا الروح تتطور بحسب التصفية والترقية، فما دامت مشغولة بحظوظها وشهواتها فهي نفس ونورها مكسوف، فإذا انزجرت وعقلت بعقال الشرع إلا أنها تميل إلى المعاصي والذنوب، فتارة تعصي وتتوب، وتارة تحن وتئوب، سميت عقلاً ونورها قليل، لأنها محبوسة في سجن الأكوان، معقولة بالدليل والبرهان، فإذا سكنت عن المعاصي إلا أنها تنقلب بين الغفلة واليقظة وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية، سميت قلبًا وهو أول مطالع الأنوار، فتشرق عليه أنوار التوجه إلى الله، فلا تزال تترادف عليه الواردات وهي الأنوار حتى يسكن إلى الله ويطمئن بذكر الله، فحينئذٍ تسمى روحًا، وهو أول مطالع أنوار المواجهة من الله، فبهذه الأنوار ينفتح الباب وتدخل في مجتمع الأحباب، فإذا تصفت من غبش المادة وتطهرت من كدر الأغيار(ما سوى الله) سميت سرًا، وهو أول مطالع أنوار المشاهدة فإذا تزكت من لوث الأنوار وهو الوقوف في المقامات أو الالتفات إلى الكرامات سميت سر السر وهو أول مطالع أنوار المعاينة والمكالمة ثم لا حال ولا مقام).

من هذا يتبين أن مطالع الأنوار: القلب والروح والسر، أي محل طلوعها وإشراقها، فالقلب محل لأنوار التوجه إلى الله، والروح والسر مطلع لأنوار المواجهة وقد سبق شرح ذلك من أنوار السالكين.

هذا النور يبدأ في القلب -كما رأينا- وهو نور اليقين ثم يقوى نور الإيمان ثم لا يزال ينمو بالطاعة والإقبال على الله والصحبة حتى يكون كنور الشمس وهو نور الإحسان الذي لا يغيب.

وليحذر السالكون الذين امتلأت قلوبهم معرفة وعلمًا بالله تعالى، من الوقوف عند أي مرحلة من الأنوار فينشغلون بها عن الانشغال الحقيقي بآثار النور من رؤية السالك أن كل شيء هو فعل الله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقد حذر خبراء السلوك من الوقوف لأنه يحجب عن الوصول، فكم من سالك وقف مانعًا حينما لاح له نور الزهد أو الورع أو التوكل أو الرضا أو التسليم أو حلاوة المحبة والاشتياق إلى غير ذلك فوقف هنالك.. فقطع السير نحو الكمال والأنوار القادمة: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

فكما أن المبتدئين تقف بهم بهجة الدنيا وزينتها وزخرفها وزهرتها حجابًا عن إدراك المعاني، والحقائق والفهم، ولا ينطلقون من وقفتهم إلا بهمة عالية، كذلك المتقدمون في الطريق، إذا وقفوا مع نور ما وصلوا إليه حال، حجبوا عن مقام الرجال، أو مع نور المقام حجبوا عن معركة الوصول، هكذا نطق علماء السلوك حتى قال قائلهم: النفس تحجبها الظلمة عن حقائق الإيمان، والقلب تحجبه الأنوار عن الملك الديان. والوقوف قد يكون أنسًا بالأنوار وحبًا فيها، أو قناعة بها، فلا يلتفت لما بعدها. أو يري أنها الغاية المنشودة، ويقول ابن الجلاء: (من وقف بهمته على ما دون الحق فاته الحق لأنه أعز أن يرضى معه بشريك).

وهذا الكلام عن الأنوار لا يدرك قيمته المحجوبون، وكما أن قيمة أنوار الشمس تعرف في عالم الحياة، فقيمة الأنوار القلبية إنما تعرف في عالم آخر هو عالم الغيب، ولذلك فلا عجب إذا جهل المحجوبون قيمة ما عليه أهل السلوك.

*** من أجل قلب لا ينطفئ نوره:**

يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويل لمن قرأها ولم يتفكر، وإنما ذلك لأن الآية بينت وسيلة السير والرحيل إلى الله، الفكرة مع الذكر، بهما يطير القلب إلى ربه، ممتطيًا الأنوار، فأما الذكر فقد تحدثنا عنه كأصل من أصول الطريق، وكيف أن السالكين نوعان، منهم من تسبق أنوارهم أذكارهم، ومنهم: من تسبق أذكارهم أنوارهم، وعلى ذلك فمنهم من يذكر ليستنير قلبه، وآخر ليستنير قلبه فهو يذكر ليزداد نورًا، حتى يصل الذكر إلى كماله وهم أهل الأنوار الذين يذكرون ليحافظوا على أنوار قلوبهم.ومن أجل الوصول لا بد أن يجتمع للسالك فكر وذكر، فمع الذكر لا بد للسالك أن ينشغل بفكرة ترقيه، وهو نوعان:

الأول: فكرة تحقيق للإيمان والتصديق وهي لأصحاب التأمل: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس:١٠١]، وقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ١٨٥].

الثانية: فكرة تنقل القلب إلى المراقبة وهي للراغبين في الوصول وهما لا بد منهما لطالب الكمال.

وكما في حكمة ابن عطاء: (الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له) فهي مصباح ينشر ضوءه فيستنير القلب به، يقول الشيخ الشرقاوي: (فيظهر له الحق من الباطل، ويعرف بذلك عظمة ربه تعالى وجلاله، ويطلع على خفايا آفات نفسه ومكائد العدو وغرور الدنيا، فإذا ذهبت الفكرة، أصبح القلب خاليًا من النور، كالبيت المظلم أو القبر الموحش، ولا يكون في القلب المظلم إلا الجهل والغرور)، يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ [الحديد: ١٩].

ويقول ابن عباد: الفكرة التي ألزمها الله العبد وحض عليها هي سير القلب في ميادين مخلوقاته ومصنوعاته، وأما الفكرة في ذات الله تعالى فلا سبيل إليها،

فالمتفكرون يعبرون في آياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته، وقد فصل ذلك الشيخ زروق بقوله: (فتارة يفكر في وجودهم(المخلوقات) فيهديه لموجدهم، وتارة يفكر في موجدهم فيهديه لتركهم والإقبال عليه، وتارة يفكر في معاملتهم فينظر فيها على وجه يليق به وبهم، وتارة يفكر في موجدهم وما أجري عليهم فيهديه ذلك لعظمته برؤية ما له فيهم) وهكذا يترقى في درجات الإسلام والإيمان والإحسان، ولذلك يقول كعب رضي الله عنه: (من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر التفكر)، وحقًا: الفكرة سراج القلب.

وبعد: الحديث عن الأنوار تلك القضية الغائبة عن أذهان الكثير من السالكين، وناشدي الترقي، العبرة فيها بمن صدق وليس بمن سبق، فعندما تهب عليك أيها السالك رياح الإرادة فعليك أن تنطلق بكل جد، وهذا لا يرتبط بسن متقدمة أو مبكرة، فبالصدق تلحق وتسبق، والحسرة على من طال عمره ولا سير له ولا مدد، ولا نور. والبركة فيمن كثرت إمدادات قلبه وإشراقات أنواره ولو قل عمره، والخذلان لمن أعطاه الله فراغًا أو خفف حمله ثم لم يرحل إلى الله بالسير الجاد والسلوك النشط وكما قيل: (من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبادة). ومن الأنوار من يصل إلى القلب ومنها ما يدخل في القلب، فاحذر أن تأتيك الأنوار فتجد قلبك مشغولاً عن ربه فترجع. قال بعض الحكماء: (إن الإيمان إذا كان في ظاهر القلب كان العبد محبًا لآخرته ودنياه، وبقدر تمكن النور في القلب ودخوله إليه يكون بغض العبد للدنيا وتركه لهواه). فمن أراد سرعة السير فليفرغ قلبه وينظفه على التمام، فبقدر التصفية تكون الترقية، وإن طال بك السفر، ولم تدرك الأنوار فلا تستبطئ من ربك النوال، فإنه جواد كريم، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال.

أراك أيها السالك الآن وقد نهضت روحك ونشط قلبك، فإلى علامة أخرى من علامات الطريق.

* * *

٣- صحة الأعمال

*** دليل صحة الأعمال:**

عنوان السالكين العمل، والأعمال إن اكتملت صحتها كان لها عند الله تعالى القبول، ومن رحمة الله تعالى أن يبشر عباده السالكين بقبول الأعمال بثمرات تتحقق في الدنيا، مع أن الله تعالى جعل الآخرة دارًا للجزاء حتى لا يضع السالكون في أذهانهم وهم يعملون لأمر الآخرة، ولتبقى قلوبهم دومًا متجهة نحو الآخرة.

وإنما جعل الله الآخرة دارًا للجزاء لسببين كبيرين:

الأول: اتساع عطاء الله تعالى:

في الحديث القدسي: (**أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**)، رواه الشيخان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧]، فهذه الدنيا وحدها أحقر من أن يجعلها جزاء لعباده المؤمنين، ففي صحيح ابن ماجه: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله عز وجل جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»، فهل هذا الذي هو أقل من جناح البعوض يصلح عند الله (الواسع العليم) أن يكون مكافأة لعبده المؤمن؟

والثاني: أن الجزاء كاملاً ببقائه لا يزول:

فما كان مآله إلى الزوال فكأنه قد زال، وقد قيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذي يبقى على الذي يفنى، وعلى هذا فالسالكون يتطلعون إلى الآخرة ولا يتطلعون إلى الدنيا، فهل معنى ذلك أنه ليس للمؤمن ثواب في الدنيا؟ وليست لأعماله ثمرات في الدنيا؟

اتفق أهل السير أن ثمرة الأعمال في الدنيا إنما هي عاجل بشرى للسائرين بل يستدلون بها على صحة السير إلى الله.

ومن القواعد في ذلك: (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجد القبول)، وقالوا: إن ثمرة الأعمال تدور حول ثلاثة معان:

الأول: الحياة الطيبة لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

الثاني: التمكين في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

الثالث: زوال الخوف والحزن لقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وفي الحديث الصحيح قول ذلك الصحابي: فمنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها، ومنا من مات لم يستوف من أجره شيئا، منهم مصعب بن عمير – رضي الله عنهم– أجمعين.

وثمرة العمل هي لذيذ الطاعة وحلاوتها، ودليل وجودها النشاط في النهوض والفرح بها والمداومة عليها، وهي علامة حلول الهداية في القلب لقوله تعالى:﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

فمن رُئي في زيادة الأعمال وترقي في الأحوال فهذا قد وجد لعمله ثمرة فهي بشارة على قبول الأعمال.

وإنما كانت الثمرة دليل القبول لأن الكريم إذا وعد أمرًا أقوى اليقين فيه بمبشراته.

ومن أقوالهم البليغة: فإن وَجَّهك للدنيا فقد أهانك، وإن أشغلك بالخلق عنه فقد صرفك، وإن وَجَّهك للعمل فقد أعانك، وإن فتح لك باب العلم فقد أرادك، وإن فتح لك بابا إلى مناجاته فقد قربك، وإن واجهك بالبلاء فقد هداك، وإن صرفك عن الأغراض فقد أدبك، وإن رضيت به ورضيت عنه فقد فتح لك باب الرضا عنه وهو أعظم الأبواب وأتمها

وأكملها، قيل:(الرضا باب الله الأعظم ومستراح العابدين وجنة الدنيا).

فمن تحقق في سيره الخير وأجرى الله الخير على يديه، فهذه ثمرة القبول يستدل بها على صحة عمله وصحة سيره، يقول الشيخ سعيد حوى: (ومن الناس من جعل الله لهم القبول في قلوب البشر، ومثال ذلك الإمام والشهيد حسن البنا لا تجد أحدًا إلا ويثنى عليه حتى أعداؤه، والأئمة الأوائل مثل النووي والسيوطي وابن حجر، فيستدل السالك بهؤلاء على ما يؤنسه أن طريقه صحيح).

شروط صحة الأعمال

من أجل تحقيق صحة الأعمال وضعوا شروطًا لا بد أن تستقر في روح العاملين وفي عمل السالكين وهي:

*** أن يكون العمل صادقًا:**

إذا استطاع الإنسان أن يتخطى العقبة الكئود، فما بعدها أيسر، وسهل سيره إلى ربه، ألا وهي النفس، يقول تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ومن الفلاح يبدأ عمل الإنسان المؤمن بالصدق الذي هو سر الإخلاص أو إخلاص الإخلاص أو روح الإخلاص ولبه، يقول تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]، فلما صدقوا ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ استشهد في سبيل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ جهادًا حتى الاستشهاد ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾، ثبات ودوام، ولذلك كانوا رجالا، لانتصارهم على أنفسهم أولاً بالصدق، فآفات الصدق قبل العمل وهي النفس قد تخطوها، وفي أثناء العمل من العلل والعيوب كالدنيا والهوى والحظوظ ، قد تجاوزوها، وبعد العمل من القصد والغايات قد حرروها لله وحده، فكان الصدق عندهم يعني:

- التبري من الحول والقوة.
- الحضور الإلهي في القلب مع السلامة الشرعية.
- عدم رؤية العمل.

○ عدم النظر إلى الجزاء والمكافأة.

الفاعل هو الله:

هي قضية قديمة بين المعتزلة وأهل السنة: مَنْ خلق الأفعال؟ أهل السنة قرروا قول الله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فالله خالق العبد وما عمل، فالفاعل الحقيقي هو الله، أما أنت الفاعل في الصورة فقط، فكيف تطلب جزاء ومكافأة على فعل غيرك. أو على فضل لم تفعله في الحقيقة!!

يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَّشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

*** الجزاء الحقيقي قبول العمل:**

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، فمن سنة الله تعالى أنه يكافئ ولكن إذا كان الأصل أن يعمل الإنسان دون أن يرى عمله، فإن الكمال ألا يطلب مكافأة من الله وإنما يعمل لمحض العبودية، فمع أن الله يجازي ويكافئ على قدر الأعمال، فإن في الحقيقة أعظم جزاء بل الجزاء الحقيقي هو أن يقبل الله تعالى منا العمل، وذلك لأننا مهما فعلنا، فإن العمل لا يكافئ بحال من الأحوال أدنى نعمة من نعم الله، فماذا تقول أمام قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]؟!

وإلى جانب عيوب النفس التي لا تتناهي فإن الله تعالى يقبل منا العمل، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٦]، ولم يقل الله (نتقبل منهم) لأن منهم تعني أن أعمالهم كاملة لا دخن فيها ولا عيب، ولكن لأنها ناقصة ومدخولة قال: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾، بمعنى نتجاوز عنهم فنتقبل أحسن ما عملوا على عيبها وآفاتها وعللها.

*** الفضل من الله :**

الجميع فعله وعطاؤه يقول تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٢٠، ٢١]، فالعطاء كله من الله تعالى، وكل الأمور تسير بفضله وجوده وكرمه،

ولو عامَلَنا الله بعيوبنا لكانت كارثة، فإن للنفس من النقائص ما لله من الكمالات.

ومن رحمته بنا مع علمه بما هو أخفى من عيبنا، فإنه يصاحبنا، فمن دعاء النبي ﷺ في السفر، وكذلك يصلح أن يكون في السجن: (اللهم أنت الصاحب في السفر)، والسجن قطعة من سفر، اللهم أنت الصاحب في السجن.

ولذلك كان من الأدب أن يكون التقصير من أنفسنا، يقول تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وأن يكون الفضل كله من الله تعالى، يقول سهل بن عبد الله رضي الله عنه: (إذا عمل العبد حسنة وقال: يارب بفضلك عملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكر الله ذلك له وقال: يا عبدي وأنت تقربت.

وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله عنه وقال له: يا عبدي أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت.

وإذا عمل سيئة: وقال يارب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت، غضب المولى جلت قدرته عليه وقال: يا عبدي بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت، وإذا قال: يارب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال: يا عبدي أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وقد حلمت وقد سترت).

*** إذا تولاك أعطاك:**

يقول النبي ﷺ في دعائه: «**إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعوزة وذنب وخطيئة وإنني لا أثق إلا برحمتك**» فماذا لو ردنا الله إلى أنفسنا؟ لَـتَحَكَّمَ فينا الهوى، ومن استولى عليه الهوى أعماه وأصمه، وفي مهاوي الردى أسقطه والهوى مختصر من الهوان وسبب له:

ولا تتبع النفس في هواها إن اتباع الهوى هوان

ومعنى ذلك سقوط من عين الله وإهمال لك، لأن الله إذا تولانا أعطانا ورحمنا وأكرمنا بفضله وفيضه، ونظر إلينا وذكرنا، وفي هذا رفع لعملنا وتمجيد له، ومن

أهمله الله وتركه مع نفسه وهواه لا نهاية لقبائحه ونقائصه وكما قيل: (إن كنت بربك تكمَّل عزك وإن كنت بنفسك تكامل ذُلُّك).

*** تحقيق العبودية:**

هناك فرق بين التعلق والتخلق والتحقق بالعبودية، فجميع الأعمال علاقتنا فيها بالله تعالى، وللرب أوصاف، وللعبد أوصاف، فللرب العز والكبرياء والعظمة والغنى والقدرة والعلم، وغير ذلك من أوصاف الكمال التي لا نهاية لها، وللعبد أوصاف وهي الذل والفقر والعجز والضعف والجهل وغير ذلك من النقائص ومما يناسب العبودية.

والتعلق بالعبودية: يعني اللجوء إليه في أمرك كله، والاعتماد عليه في حوائجك كلها، وترفض كل ماسواه ولا ترى في الوجود إلا إياه.

وما أجملها من لحظات حينما ننظر إلى عظمته وكبريائه وعزه فتتعزز به ويصغر في عينك دونه كل شيء، وقلت بلسان حالك: (علمه بحالي يغنى عن سؤالي).

والتخلق بالعبودية: عبودية في ظاهرك، حرية في داخلك، شعورك بأن الله ملَّكك هذا الكون كله، يجعلك لا تعرف الخضوع لأحد سواه، فأنت عزيز به، قوي به، كبير عنده، بمعرفتك وعلمك به تعالى، حتى تظهر عليك رشحات العبودية:(فكل إناء بما فيه يرشح).

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تُعلم

والتحقق بالعبودية: هو التمكن من التعلق والتخلق، بحيث يصبح ذلك ملازمًا لك في كل حركة وسكنة حتى الإيماءة والضحكة، ويكون ذلك شرفًا عندك، فإذا نظرت لأوصافك فأنت الفقير إلى الله، وإذا نظرت إلى أوصافه فأنت الغني بالله. وهذا هو الكمال في تلازم الصفتين فأنت في داخلك عزيز بالله، قوي به، فإذا تحققت بذلك ظهرت رشحات العبودية فكنت الذليل إلى الله، الضعيف إليه، في داخلك عظمة الربوبية، وفي ظاهرك أوصاف العبودية، أما من ادعى ما ليس له، سلبه الله ما ملكه، يقول تعالى في الحديث القدسي: (**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قصمته**). وفي البخاري في قصة موسى عليه السلام: (أنه خطب على الناس خطبة ذرفت منها العيون فقام إليه رجل، فقال له: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟

فقال: لا، فعتب الله عليه إذا لم يَرُدَّ العلم إليه فقال له: (بلى عبدنا خضر هو أعلم منك، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه).

ومظاهر التحقق بالعبودية تتجلى في أربعة:

أولاً: مخالفة النفس:

وبذلك تحصل على الفوائد، قيل: (من خرق العوائد ظهرت له الفوائد) والعوائد ما تعودته النفس وألفته، سواء ما كان ظاهرًا كالأكل والشرب والنوم واللباس والاختلاط بالناس، والكلام والمخاصمة والعتاب، أو ما كان معنويًا كحب الرئاسة والجاه وحب الدنيا والمدح والحسد والكبر والرياء والطمع في الناس وخوف الفقر، وهمّ الرزق، والقسوة والفظاظة.

وقيل: (بالرياضات القهرية تخرق العوائد الحسية)، أي بالجوع والسهر أو قل بالصيام وقيام الليل، وبالخلوة والصمت، أو قل بالاعتكاف وبالسنن والنوافل.(وقيل بحراسة القلب تخرق العوائد المعنوية)، كإبعاد القلب عن الغفلة وملئه بالمعرفة والفهم وتطهيره من الكبائر وترقيه إلى مقام الإحسان، مما كتبه أحد العارفين إلى بعض إخوانه: (أما بعد، فإن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية فقللوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد).

وقيل لبعضهم: (بم أدركت ما أدركت؟ قال: وحَّدته بأفضل التوحيد، وخدمته خدمة العبيد، وأطعته فيما أمرني فكلما سألته أعطاني).

ثانيًا: حسن الأدب:

ليس الشأن الطلب، وإنما في حُسن الأدب، بالعلم بالله والفهم عنه ومعرفة مراده وحكمته، فقد توجد صورة الطلب ولا يستغني به صاحبه عن كل مطلب، وبذلك يُحرم حُسن الأدب فيُسلب تحقيق الدعاء أو الطلب، يقول تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]، ولم يقل أكثر طلبًا، أو أعظمهم تشميرًا وجدًا في الطلب. فإذا كان المطلوب الذي تطلبه هو اليقين أو التوكل أو الإحسان، فاطلب ذلك من الله فهذا عبادة وعبودية، وبقدر ما يكون على حسن الأدب مع الله يكرمك، وإكرامه لك أثر عن حالك.

وحسن الأدب أجملوه في ثلاث: إقامة الفرائض واتباع السنن وفن التعامل مع

الآخرين لقوله ﷺ: **«اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**، حتى قيل: وهذه هي الأصول التي من تركها حُرم الوصول.

ثالثًا: الاضطرار:

الغريق في البحر، أو الضال في التيه القفر، هل يرى لغياثه إلا مولاه؟ وهل يرجو لنجاته من هلكته أحدًا سواه؟ وهذا هو الاضطرار، والمضطر إلى ربه كلما أحاطت به المحن يقابلها بالضعف والإذلال فيمنحه الله كل جميل، وإذا حاصرته النقم يقابلها بالذلة والافتقار فتتوارد عليه أفضال الله الغزار.

فما طلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه، والوقوف بين يديه، متحليًا بحلية العبيد:

أدب العبيد تذلل ... والعبد لا يدع الأدب

فإذا تكامل ذله ... نال المودة واقترب

ولذلك كان النبي ﷺ يقول: **«إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا»** ويقول الله تعالى: **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾** [النمل: ٦٢]، ولم يقل الله: (أمن يجيب الداعي أو الملح أو المظلوم) وإنما قال: **﴿الْمُضْطَرَّ﴾** أي من حقق العبودية بالذل والانكسار والافتقار المستمر الملازم لصاحبه، يقول تعالى عن أثر ذلك: **﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾** [آل عمران: ١٢٣]، وسر ضعف الأعمال أن كثيرًا من الناس يطلبون من الله وقلوبهم لاهية واضطرارهم ضعيف، فأنى لعملهم أن يكون صحيحًا وقد خلا من الروح الفاعلة!!

رابعًا: صفاء القلوب:

لو كان الوصول إلى الله في طريق السالكين لا يكون إلا حينما لا يكون فيك عيب أو نقيصة أو تمحي مساوئك، فلن يصل أحد من السالكين إلى ربه فقد قيل: (إذا تأملت أعمالك فكلها دعاوي، ولو كنت أصدق الصادقين، وإذا تأملت أحوالك فكلها مساوئ ولو كنت رأس المخلصين) فسبحان من جعل الوصول إليه بكرمه

أولاً، ثم باضطرارنا وافتقارنا ثانيًا، فيما رواه مسلم يقول النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**». فقد يقال: هذا زاهد وهذا عابد وهذا صادق وهذا داعية، ولكن ذلك ستر من الله، فلو كشفت منا الضمائر لمقت بعضنا بعضًا، ولَقَلاَ الناس أحب الناس إليهم، ولذلك كان المخرج من ذلك كله بتصفية القلوب من علاتها، يقول الله: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾ [النور: ٢١]، حتى قال قائلهم: (لا يصل الولي إلى الله تعالى، ومعه شهوة من شهواته وتدبير من تدبيراته واختيار من اختياراته)، وهذه التصفية ليست من فعل العبد وكسبه وإنما هي بسابق عناية ربه كما قيل: (بما منَّ الله إلى العبد من سابق العناية والوداد لا بما منَّ العبد إلى الله من الكد والاجتهاد).

فإذا أردت الارتقاء فمنك التصفية ومن الله الهداية مع سابق العناية، يقول الشيخ زروق: (ستر فقرك بغناه، وذلَّك بعزه، وعجزك بقدرته، وضعفك بقوته، ويصرفك عن شهود ذلك منك وإليك بشهود ما منه إليه).

*** بستر الله تقبل الأعمال:**

العمل الذي يكون أهلاً للقبول هو الذي تتوافر فيه شروط القبول من سر الإخلاص وغاية الحضور والتبري فيه من كل حول وقوة، وهذا في غاية الندور، فمن الصعوبة أن يكون العمل خالصًا ولذلك ورد أن الشرك الخفي أخفى من دبيب النمل، ففيما رواه الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**» فمن منا إذن يستطيع أن يصل بعمله إلى الكمال والصفاء التام والخلوص الذي لا تشوبه شائبة؟ ولكنه جميل ستر الله وعفوه وكرمه وفضله فغطى مساوينا بجلال لطفه وبره، فما كان عمل أهلاً للقبول أصلاً، بل بعضهم قال: ما كان علم أهلاً للوجود أصلاً، ولكن الذي مَنَّ بوجود الأعمال يمنُّ بوجود القبول والإقبال، قال بعضهم: ما هناك إلا فضله ولا نعيش إلا في ستره، ويقول يحيى بن معاذ رضي الله عنه: مسكين ابن آدم جسم معيب وقلب معيب، يريد أن يخرج من معيبين عملاً بلا عيب وقد سبق سر قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا**﴾ [الأحقاف: ١٦].

ولولا ستر الله لكنا من الهالكين، ولا فضله علينا ما كنا من السالكين طريقه، يقول تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، وحاجة الطائعين من السالكين، وهم يعملون، إلى حلم الله وعفوه أحوج منهم في حال المعصية لأن الطاعة التي ينشأ عنها العز والاستكبار أقبح من المعصية التي تورث الذل والافتقار: وفي الحديث يقول الله تبارك وتعالى: (**أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي**).

فدائما يحيط الناس بالطائعين ويبادرونهم بالخدمة والتكريم وكل ما عظم في عين الناس سقط من عين الحق وبالعكس.

وعلى هذا مدار الناس جميعًا، فالكل يسألون الله ستره، ولكنهم قسمان: قسم ضعيف يسألونه الستر في المعصية من الفضيحة حتى لا يسقطوا من أعين الناس، وقسم يسألون الله الستر عن المعصية ومرادهم أن لا يقعوا في المعصية حتى لا يسقطوا من عين الله تعالى. أطلقوا على القسم الأول: (يطلبون من الله الستر في المعصية)، وعلى القسم الثاني: (يطلبون من الله الستر عن المعصية).

والسالكون ينتهون إلى هذه الحقيقة وهم يعملون العمل الصالح الصحيح، إنهم بستر الله تقبل أعمالهم، بل إنهم بستر الله تحمد أعمالهم ويثنى على أفعالهم، فالذي حرك الثناء والحمد أن الناس حينما يكرمونك أو يشكرونك إنما كرمهم وشكرهم بسبب ستر الله لك، فأي ثناء عليك فإنما في الحقيقة هو مستحق الله لأنه وحده هو الذي سترك ولو كشف الله كل عيوبنا للناس ما وجدنا حامدًا أو شاكرًا أو يتكلم فينا كلمة طيبة، ففي النهاية الحمد لله جل جلاله، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣]، يقول بعضهم: (إذ لولا ستره عن المعاصي ما كنت مطيعًا، ولولا ستره فيها لكنت مهانًا عند الخلق ومخصوصًا بالمقت بينهم)، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

سترت عيوبي كلها وما بي من خير ... ولكنني عبد ظلوم كما تدري

فصاروا يحبوني وما أنا بالذي ... يُحب ولكن شبهوني بالغير

* * *

٤- أهل الحق وأولياؤه

*** أهل بالحق لا يفتُرون:**

يقول تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ويقول تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

ويقول النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن رب العزة: **«من عادي لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»**.

إن هذه القضية لا لبس فيها ولا غموض، وقد يحيطها الناس بالطلاسم والأوهام لقصور علمهم وقلة فهمهم. وقد استغل المناوئون لديننا هذا الجهل لينالوا من أهل الحق، كما فعلت أسلافهم بالأنبياء والمرسلين، وذلك لأن أهل الولاية هم الظاهرون على الحق في كل زمان، لا أرحام بينهم ولا قرابة إلا الحق الذي يجمعهم، فقد اجتمعت قلوبهم على محبته، والتقت على طاعته، وتوحدت على دعوته، وتعاهدت على نصرة شريعته، فلما رفعوا لواء الإصلاح، وشمروا عن ساعد الجهاد، ليحققوا في أقوالهم عمل الأنبياء، ناصبهم أهل الأهواء العداء، وأحاطوهم بالمكائد، وحاصروهم بالتهم، ونصبوا لهم المشانق وملأوا بهم السجون فما لانت لهم قناة، ولا وهنت لهم عزيمة، ولا انكسرت لهم إرادة، وإنما ذلك للحق الذي له يعملون وبه

يثبتون وعليـه يتحركـون، في عـين أعـدائهم أعمـالهم جـرائم، وفي عـين الحـق تعـالى خصوصية اختصهم بها ربهم، نور أشرقه الله في قلوبهم، بعد تطهيرها مـن الأكـدار، وتنزيهها عن المساوئ والأغيـار، يغيبـون بـه عـن شـهود أنفسـهم بشـهود محبـوبهم، فسبحان من ستر ذلك بظهور وصف البشرية من أكـلٍ وشـربٍ ونـومٍ ونكـاحٍ، فقـد اختار الله أرواحهم منذ الأزل بإشراق نوره، فلما سجنت في الأبدان وقيدت بالحظوظ والشهوات جاهدوها وكابدوها بالإيمان والاستقامة، بالعمل الصالح والدعوة بالقول الحسن، بالإحسان والتقوى، فقال عنهم ربهـم: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَفِـي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. لهؤلاء السالكين كانت هذه العلامة ليواصل السالك سـيره ولا يقف حتى ولو كان الوقوف عند طاعة، (فليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه)، وهذه قاعدة الحكماء، ليس كل من ظهرت له براعة في تميز لحق به سواء كان إيمانيًا أو حركياً أو فكرياً أو علمياً أو روحياً، ليس ببعيد عن حظوظ نفسه ورقها، وليس ببعيـد عن عوائده النفسية، وإنما حكمة هذه الحكمة إنهاض السالكين في العمل عند الوقفـة أو الفترة، ليسلك عن بينة ونجاح طالباً المزيد ليقترب من ربه، وليكون أهلاً لولاية الله تعالى فينتفع الناس به، لأنه يحمل إرث الأنبياء.

وذلك حتى يستقر في وجدان السالكين وإن تقدموا في سيرهم فألحقهم الله بأهل الحق وأوليائه فإنهم أحوج من غيرهم إلى التحقق بأدب العارفين، والتأدب بأخلاقهم وسلوك التربية، فقد يعذر المبتدئ عن المتقدم، وإن المتقدم لأحوج منه، فالثبـات علـى التقدم مجاهدة، وسلوك المزيد مكابدة.

*** دليلك إلى أهل الحق:**

قديما في العهود التي تفشى فيها الترف، والانكباب على زخرف الـدنيا وزينتهـا كـان عمل المصلحين مواجهة ذلك بالزهد والاستقامة، ومن أجل صرف الناس عن حظـوظهم وشهواتهم دلوهم على الشيخ الذي يأخذ بأيـديهم ويتعهـدهم بالنقـاء والتربيـة والترقيـة، وكلما ازداد تيار الفساد ازداد الداعون إلى الالتفاف بالشيخ، وفرقوا بـين الشـيوخ فمـنهم شيخ العلم وشـيخ التربيـة وشـيخ الترقيـة، وتسـابق الـداعون فأحـاطوا الملـتفين حـولهم

بكلمات خاصة وشروح خاصة وعبارات لا يفهمها إلا الشيخ وأتباعه لمزيد من تماسك الملتفين حوله، وحسنت النيات، ولكن حدث أن غالى بعض الأتباع سواء في الفكر أو في الفهم أو في العمل، وانحرفت الشروح عن الأصول، وتلقت الأجيال ذلك دون أن يفرقوا بين الغث والسمين، حتى وجد المتربصون بالإسلام مادة حية لعملهم عن طريق نشر أعمال جاهلة، وبث انحرافات ليست من الدين، وتقديم الإسلام على أنه أعمال ساذجة لا ترتبط بحياة،ولا تمتزج بمعنى، ليصطادوا عدة عصافير بحجر واحد، ففكرة الدين محصورة في صور ضيقة سلبية بعيدة عن الحياة أو إعمار الدنيا والكون كما أمر الله، وبالتالي يهنأ لهم الحال في احتلال العقل والفكر بثقافات ما أنزل الله بها من سلطان، واحتلال القلب والروح بانحرافات تصطدم بالفطرة البشرية، ظانين أنهم بذلك يتربعون على سلطاتهم ويخلدون في كنوزهم وزينتهم، وما اعتبروا بقائدهم الأكبر قارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، فوعد الله ماض رغم أنوفهم؛ بطائفة الحق، ظاهرة على الحق، لا يضرها من خالفها إلى يوم الدين، لسان حالهم يقول: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، فيرد عليهم رب العزة تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، ثم يبين الله تعالى طريق المتقين في قوله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

١- الفراسة ليست النهاية:

ولذلك فأهل الحق وأهل الولاية، تتغير الأزمان والأحوال، وهم ثابتون على الحق، ووفق هذه القاعدة سيكون حديثنا أيها السالك عن دليلك إلى أهل الحق لتلحق بهم وتسير على ركبهم، فقد يظن البعض أنهم لحكمتهم وفراستهم ومواجهتهم للإصلاح بفكر ثاقب وإرادة قوية وعمل قويم، فهم يعملون في جبهتين، إيجابية في الدنيا وإعمارها أو (عالم الشهادة)، وعيش في الآخرة والشعور بنعيم وسعادة ذلك أو (عالم الغيب)، كما يقول البعض، أو كما يحلو للبعض الآخر أن يقول: إنهم يعملون في ملك الله وهي هذه الحياة، ثم في ملكوت الله وهو عالم الغيب وهو ما يدرك بالعلم والمعرفة، ثم في الجبروت وهو عالم الروح الأرحب وكثيرًا ما يدرك بالمعرفة والبصيرة،

وهذه العوالم محلها واحد.

يظن البعض لذلك أن كل من حلم مكاشفة وفراسة بالأمور وأحوال الناس، أصبح لذلك أهلاً لولايته، وهذا ضرب من الجهل فقد يكون ذلك لمن لا استقامة له أصلاً كالكهان والسحرة، وهذا دليل عفاه التراب، لا يتناسب مع عصرية زمن الأجهزة والآلات والكمبيوتر والتقدم في كل لحظة من علم الله تعالى.

ولذلك فأهل البصيرة والسلوك لم ينظروا إلى الشكل إنما نظروا إلى المعنى، فالأصل أن أهل الحق يتخلقون بأخلاقه ويتحققون بمعاني صفاته وأسمائه، فيكونون على خلق الرحمن، فإذا اطلع على معاصي العباد ومساويهم رحمهم وسترهم وحلم عليهم، سواء كان ذلك بتطلع أو فراسة أو كشف أو فطنة، ففيما رواه أحمد والترمذي قول النبي: «**لا تحدثوني عن أصحابي فإني أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر**»، وروى أن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق، فرفعه الله حتى أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم وما يفعلون، فقال: يا رب دمر عليهم! فقال له الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم فلعلهم يتوبون ويرجعون، وفي بعض التفاسير أنه كان يعرض كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ٧٥].

ولذلك فالدليل عليهم آثارهم، كما أن الدليل عليه عز وجل آثاره. فمن أراد الله إكرامه بالحق ومعرفته والوصول إلى الله دله عليه ومتى دلَّك الله فقد أراد وصولك ما تأدبت واستقمت.

وكما يقول أبو العباس الحضرمي في كتابه (صدور المراتب): (فهنيئًا لمن ذاق أو ذاق من بعض من ذاق أو رأي من ذاق).

وأول هذه الأدلة أن الفراسة أو المكاشفة عندهم هي أول الطريق على الحق وليست نهايته فلا تنخدع بشيء من ذلك.. وإلى الدليل الثاني.

٢- حظ النفس في الطاعة:

نعرف حظ النفس من المعصية كلذة الأكل والشرب والنكاح وسماع اللهو وغير

ذلك مما هو من أذواق النفس التي هي محرمة، فما حظ النفس في الطاعة؟ قيل: كأن تكون لأمر خفي كالجاه والرئاسة وطلب الثناء، وهذه حظوظ خفية يصعب علاجها كالرياء. وكان بعض العارفين يقول: اجتهدت في إزالة الرياء من قلبي بكل حيلة فما أزلته من جهة حتى نبت من أخرى من حيث لا أظنه، بل إن بعضهم عد الرياء أن يتبرأ الإنسان من أي حظ دنيوي أو أخروى مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، قيل في تفسيرها: هو السالم من الرياء ظاهراً وباطناً بحيث لا يريد صاحبه حظاً دنيوياً ولا أخروياً.

وقد وضعوا علامات للمرائي لا تخفى وهي:

١- نشاطه في الجلوة وكسله في الخلوة.

٢- إتقان العمل حيث يراه الناس وتساهله حيث لا يراه إلا الله.

٣- التماسه بقلبه توقير الناس له وتعظيمه ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه.

٤- إذا قصر أحدهم في حقه الذي عند نفسه استبعد ذلك واستنكره.

٥- يجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره وإهانته وإهانة غيره من أقرانه.

فمن وجد هذا الأمارات في نفسه فليعلم أنه مراءٍ بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس، روى الفضيل رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلى هذا! (أي إلى نفسه). وسمع مالك بن دينار امرأة تقول له: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة، إلى غير ذلك مما روى عنهم في هذا المعنى، أما الدليل الثالث فهو صدق العبودية.

٣- صدق العبودية:

من مظاهر الحظوظ الخفية، استشراف الإنسان أن يعرف الناس خصوصيته، كزهد أو ورع أو رضا أو توكل أو محبه أو تسليم أو تميز في أي من جوانب الإسلام والإيمان والإحسان، فإذا حباه الله بشيء من ذلك تطلع وتمني أن يعلم الناس بذلك، قيل: إن ذلك دليل علي عدم الصدق في العبودية لان الصدق في

العبودية يعني الاكتفاء بعلم الله، والقناعة بمراقبته إياك، والاستغناء به عن رؤية غيره وكما قيل: (وفي الكتمان السلامة) يقول نبي الله عيسي عليه السلام: وإذا صلي أحدكم فليسدل عليه ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق، حتى قال بعضهم: ما أخلص أحد قط إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف، وقال سهل بن عبد الله: من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل، وقال أبو الخير الأقطع: من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب.

ومن أقوالهم في ذلك: (الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه، ولا يحب أن يطلع الناس علي مثقال ذرة من صلاح عمله)، ولذلك كان الدليل الرابع هو الاكتفاء بنظر الحق تعالى.

٤-الاكتفاء بنظر الحق:

قيل: لا يجتمعان بحال من الأحوال: نظر الحق ونظر الخلق، وكذلك إقبال الخلق وإقبال الحق فلا تنظر لنظر الخلق إليك وانظر لنظر الله إليك ، بل قيل: إقبالك على الخلق إدبارك عن الحق، وإدبارك عن الخلق إقبالك على الحق ولا يجتمعان، ففي الحديث في وصية الرسول ﷺ لابن عباس:

«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام وطويت الصحف».

يقول في لطائف المنن: اعلم أن مبني الولاية على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤]، ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

يقول سهل بن عبد الله: (لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: حتى يسقط الناس من عينه فلا يري في الدارين إلا هو وخالقه، فإن أحدا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه، ويسقط نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه).

حتى قال بعضهم: مالي والناس، كنت في بطن أمي وحدي وخرجت إلي الدنيا وحدي، وأموت وحدي، وأدخل قبري وحدي، وأسأل وحدي وأبعث من قبري وحدي، وأحاسب وحدي، فإن دخلت الجنة دخلت وحدي، وإن دخلت النار دخلت وحدي، ففي هذه المواطن لا ينفعني أحد، فمالي والناس.

٥-التحقق بالحق:

أول تحقق السالك بالحق معرفته في كل شيء، فهو لا ينظر لشيء سواه إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه، حتى تصبح المعرفة صفة ملازمة لا تتحول ولا تتزحزح، فما به من نعمة فمن الله.

ثم يرقي حتى يشهد الحق بلا خلق وذلك عين الغيبة عن كل شيء به لرجوع كل شيء إليه.

ثم يرقي إلي حقيقة المحبة وهي ألا يؤثر عليه شيئا فقد قيل: حقيقة المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى لا يدعه لغيره في حال من أحواله، ولذلك قيل: المحبة الإيثار بدوام المحبين، ومعني ذلك ألا يؤثر عليه شيئا من حظوظه ولو كان فيه حتف نفسه.

وبعد....

وبعد توافر هذه الأدلة، فمن لازم المحبة وجد الشوق إلي الرؤية، وإنما الذي حجبه ثلاث:

شدة قربه، فالإنسان لا يدرك سواد عينه لشدة قربه منه، والله تعالى أقرب إليك من كل شيء، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ثم شدة ظهوره: كما قال صاحب الهمزية: (ومن شدة الظهور الخفاء) مثل قرص

الشمس حين يعظم شعاعه، ويتقوي إشراقه فإن الأبصار الضعيفة لا تقوي علي مشاهدته مع شدة ظهوره فصار شدة الظهور موجبًا للخفاء.

ثم شدة نوره: فالبصر لا يقاوم النور الباهر، وفي حديث مسلم في قصة الإسراء قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنّى أراه؟**» بلفظة الاستفهام أي غلبني النور كيف أراه؟ وفي رواية: «**رأيت نورًا**».

وهذا القرب ليس بالمسافات أو المداناة لأن ذلك محال عليه تعالى، إنما هو قرب إحاطة بالعلم والقدرة والإرادة كما ما يليق بجلاله وكماله، وكذلك نوره، إنما هو نور أوصافه وآثار أفعاله في الآفاق وفي الأنفس.

ولذلك قال الصديق -رضي الله عنه-: (سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلي معرفته إلا بالعجز عن معرفته).

ولذلك فمن الخطأ أن يحسب أهل الحق أنهم قد رفعت الحجب لاستشعارهم بالقرب أو النور، فالحجاب مستمر، كلما زال حجاب كان حجاب ففيما أخرج مسلم قال النبي ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره**» فلا بد من اليقين بأنك إذا طويت نفسك زال حجاب وكلما استشعرت قربه فأنت إلي قرب ويبقي الله هو الباطن.

* * *

٥- الورد والوارد

هذه العلامة تدور حول قضية هي مثارة دائما ولـن يجـدي إقنـاع الـذين تخـتلط عليهم في فهمها الأوراق إلا أن يتبادلوهـا كعلامـة مـن علامـات السـلوك إلـي الله، وليست هي قضية جدلية أو عقلية بل هي قضية إيمانية بحتة.

الكثير ممن تختلط عليهم الأوراق يتصورون لكل تقدم تكنولوجي منادين بأننـا في عصر الكمبيوتر والتطور في كل شيء والجديد في كل لحظة، وتدفعهم هـذه القاعـات إلي ازدراء غيرهم واحتقارهم وأن ما هم عليه نوع عفي عليه الزمن بل يطلقـون **على ثقافاقم**: أوراقًا صفراء لا تنفع لعنصـر طابعـه الابتكـار والتجديـد، **وعلـى أعمـالهم**: حركات لا قيمة لها في عصر السرعة والقوة، **وعلى أحوالهم**: تخلفًـا حضـاريًا في عصـر المصالح والموازنات والذكاء. إن هـؤلاء سـيظل عقلـهم هكـذا حتـى تفيـق قلـوبهم، ويتوازن سيرهم بنظـرة كليـة وإحاطـة شـاملة، ولا يضـيقون فكـرهم بنظـرة جزئيـة، فيدورون في دائرة مغلقة لا ينفكون عنها ولا يتقدمون عليها.

فكل أعمالنا من القلب تنطلق ثم إلى القلب تؤتي ثمارها وتحقق آثارهـا، وهـذه قاعدة ثابتة، والورد هو كل أفعال الخير وأعمـال الصـلاح، ومـا دام عليهـا الإنسـان فهناك أثر في القلب والوجدان، وهذا هو الوارد: معرفة وعلـم وفهـم ونـور وإشـراق يصبغه الله نتيجة وثمرة للمداومة على الأعمال. فليس الورد إذن ذكرا فحسـب، بـل قراءة القرآن لها وارد وأثر، وكذلك الخدمات والجهاد والـدعوة والعلـم وكـل أنـواع الأعمال، لكل عمل وارد في القلب، فهو أثر في القلب ومؤثر في السير، وتـدبر قولـه تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُـونَ**﴾ [الأنفـال: ٢، ٣]، فالذكر له أثره من وجل القلوب، وتلاوة القرآن لها أثرها في زيـادة الإيمـان، وكـذلك المداومة بأفعال المضارع (يتوكلون - ينفقون - يقيمون) لها آثارها من الاعتمـاد علـى الله وحده ﴿**وَعَلَى رَبِّهِمْ**﴾، ومن الخشية والصدق وتحقيق العبودية ﴿**يُقِيمُـونَ**﴾ ومـن

ترك الاختيار والتدبير للرازق ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، وتجتمع هذه الآثار مع بعضها البعض لتكتمل أعظم ترنيمة في الوجود، حيث تتوجه القلوب إلى الله تعالى لا تريد إلا وجهه، ولا تريد إلا إياه، وكل ذلك يدفع السالكين إلى الله كما قالت الحكمة: (لتكون بالورد على الله واردا). وقد تم تفصيل ذلك في عنوان (أنوار على الطريق) وهى علامة قد قطعناها في سيرنا من قبل فيمكنك الرجوع إليها إذا أردت تفصيلاً وبيانًا.

ما كان ورد إلا وله وارد

وما وارد إلا له ورد.

وبالتالي فقد يقوى الأثر ويضعف أو ينقطع، بقوة وضعف الورد، أو بترك الورد، وقد يظن البعض أن الوارد مستمر ولو لم يستمر هو على ورده، هذا الظن عقوبة دون أن يشعر، فينقطع عنه الإمداد دون أن يدري، أو يقطع عنه المزيد لو كان متقدماً دون أن يشعر، فيظن أنه في قرب، وهو في الحقيقة لا يزداد إلا بعدا، ويقنع نفسه مع تقصيره في أعماله والمداومة عليها بقوله: لو كان هذا خطأ لانقطع عنى المدد، وهذا جهل قبيح يفضي به إلى العطب، إن لم تدركه عناية ربه تعالى، ومثال ذلك الأشجار التي على الماء فإذا انقطع الماء لا يظهر أثر العطش عليها إلا بعد حين، فإذا طال الأمر يبست شيئاً فشيئًا كذلك قلب السالك. فلو لم يكن من العقوبة إلا منع المزيد من السير أو الترقي لكان كافيًا، لأن من لم يكن في زيادة فهو في نقصان.

وآخر يحتج لنفسه قائلاً: لو كان هذا خطأ لأوجب البُعاد، وهذا نوع آخر من التلبيس على السائرين فيظن أنه في محل القرب وهو بعيد، وإن مجرد أن يتركه الله مع هواه وشهوته من علامة الإهمال، وإخراجه عن هواه وما تركن إليه نفسه من علامة الاعتناء والإقبال، ومثال ذلك في القرآن الكريم وهو يحكي عن (عصا موسى): لما علم الله حبه وركونه إليها قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ﴿قَالَ﴾ له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ فلما فر عنها وقطع يأسه منها ﴿قَالَ﴾ له ﴿خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ﴾ [طه: ١٧ - ٢١]،

لأنها لا تضرك حيث رجعت إليها بالله.

وهذه عقوبة أخطر من الأولى أن يتركك الله ويكلك لنفسك فلا يتولاك في شأنك كله، وممن حفظنا عن رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: «**اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا**» فمن وجد شيئاً من ذلك فعليه بالإسراع بالتوبة إلى الله ويلحق بركب السائرين.

*** النظرة الكلية:**

هل أنت وحدك في السير إلى الله، أم أنت واحد من البشر؟ وهل أنت تحترم السائرين في درجتك فقط أم كل من سلك الطريق؟ وهل تنظر إلى الباقين نظرة ازدراء واحتقار لأنهم محجوبون عن ربهم؟ أو لأنهم بمنأى عن مواكبة العصرية فتنظر إليهم بكبر واستخفاف؟

الدنيا التي تعيشها الناس يختلفون في أعمارهم، وكل واحد له مهمة يؤديها ويعكف عليها ولكنها في نهاية الأمر تحقق إعمار الدنيا كما أراد الله تعالى، وكذلك الآخرة لا يتكامل السير إليها ولا يكتمل الدين إلا إذا أدى كل إنسان مهمته، ولا تقوم للدين قائمة إلا بمجموع عمل العاملين؛ فهذا زاهد وهذا عابد وهذا يقوم بالخدمة وذلك داع وآخر عالم. بل تحت هذه الدوائر أصناف، فهذا عالم فقه وآخر حديث وثالث نحو وصرف وهكذا، وكذلك العاملون: هذا يقدم خدمات عامة وآخر خدمات خاصة وهذا يجاهد جهادًا ماليًا وجهادًا سياسيًا وجهادًا اجتماعيًا، وهذا يدعو دعوة عامة بالكتابة والصحافة أو بالفن أو بالخطابة، وآخر يدعو دعوة فردية بالسلوك والعمل والتربية والتعليم، وبالتالي فلا يكتمل الإسلام إلا إذا أدى كل واحد من هؤلاء مهمته وقام بواجبه «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**».

إذا تقرر ذلك ونظر المؤمن السالك من خلال هذا المنظار تحقق أمران من خلال هذه النظرة الكلية:

الأمر الأول: يعنى ذلك أنه لا ينبغي أن ينظر البعض إلى الآخرين نظرة احتقار وازدراء، وكل له أجره وله ثوابه وله أثر ذلك في قلبه من نور وإمداد من الله، وقد يكون

صاحب ذلك هو الأرقى عند الله، فأهل السلوك إن قالوا عن غيرهم لا قيمة لعملهم، فهذا خطأ كبير، لأن ثبوت الآخرين على أعمالهم الصالحة مهما قلت أو صغرت فهذا دليل على أن الله يرعى قلوبهم، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣]. ويقول تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٤]، فالعناية سابقة والهداية لاحقة والأمر كله بيد الله وحده هذا على المستوى الفردي.

الأمر الثاني: وهو خاص على المستوى الجماعي، هو تكامل سير السائرين بمجموع عمل هؤلاء جميعاً، فيما رواه البخاري ومسلم قول النبي ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، فهذا يسره الله للخدمة وهذا للعبادة وهذا للجهاد كما يقول علي كرم الله وجهه: (ولا تخلو الأرض من ولي قائم لله بحجة). والكل له حظ من حب الله تعالى ولكن هذا غلب عليه العبادة أو الزهد أو الخدمات، وهذا غلب عليه المعرفة والحب، فهل لأنني لا أرى عليه سيما العارفين – من ترك الحظوظ وإقامة الحقوق والرضا بالأقدار– أحتقره، أو لأنني لا أرى عليه بهجة المحبين – من الفرح بالله وذكره والقيام بشكره وطلب مرضاته والتذلل لقهره – يسقط من عيني...كلا.. ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ وفيما روى البخاري قول النبي ﷺ: (**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**)..

وهكذا يكون النظر إلى الآخرين إلى المجموع ككل بمنظار الحكمة التي تقول: (الوصول إلى الكمال من مجموع كل هذه الأفعال) فالقائم بفرض كفاية يسقط الإثم عن الآخرين، وعمل المجتمع ككل في نهاية الأمر ووفق هذه النظرية الكلية هو يخدم دين الله تعالى. فعلام إذن نرى العاملين في الحقل الإسلامي يستخف بعضهم بعضاً، ما أحوجنا إلى هذه النظرة الكلية المتكاملة، فلولا هذا يدافع عن الإسلام، ولولا هذا يقيم المستشفيات والمدارس والعمران، ولولا هذا يقدم الخدمات ويواسي المغيثين، ولولا هذا يعمل ضد التبشير، ولولا هذا يتصدى للانحراف والانحلال.. ولولا هذا وذاك لهدم الإسلام.. من ههنا ومن ههنا.. فما أحوج الطريق إلى العباد والزهاد وإلى العلماء والصلحاء وإلى المجاهدين والمصلحين وإلى الحكام والحكومات.. أما المفاضلة فهذا أمر آخر يقول تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٢١]، وذلك ليسعى

دائماً السالكون للارتقاء والانتقال من الأدنى إلى الأرقى على جميع المستويات، (لمن انقطع لقيام الليل وصيام النهار)، و(لمن وجهه الحق لإقامة الدين وحفظ شرائع الإسلام)، و(لمن أقامه الحق لنصرة الدين وإعلاء كلمته)، و (لمن أقامه الحق لتمهيد البلاد وتسكين العباد) هكذا قالوا: (قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم بمحبته) فاختصهم بمحبته ومعرفته بحكمته تعالى يقول أبو اليزيد: (اطلع الله على قلوب عباده فمنهم من لم يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة).

شبهات وردود :

الشبهة الأولى: هل يأتي الوارد بالاستعداد؟

عطاء الله دقيق بميزان وهو سبحانه الناظر إلى القلوب، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بيده الأمر كله، إن استشعار السالك بهذه المعاملة من الله ترد على شبهة كبيرة قد تعترض سيره، فآثار الأعمال إن ضعفت أو قلت أو تأخرت معانيها في القلوب، عندها يظن السالك أنه بانكبابه على العبادة وإقباله على الله أو عمله لعمل معين يستطيع أن يقويها أو يرجعها إلى حالتها الأولى!!

فالقضية لابد أن تكون منتهية تماماً في نفس السائر أن لكل عمل أثراً في القلب ففيما روى البخاري قوله ﷺ عن رب العزة: «**من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا**»، ولمسلم قول النبي ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة**» ويقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ**﴾ [الفتح: ٤]، ويقول تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأنفال: ١٢]، فكل هذه الآثار هي معاني في القلب يفهمها ويعمل بها، فإن ضعفت أو تأخرت فليست مرتبطة باستعداد معين أو كيف وإنما تأتي بغتة! حتى يكون الأمر لله وحده، من كرمه وحده، وليس باستعداد معين، ولذلك فعلى السالك وفق هذا الفهم الإقبال الدائم على الله بروح العبودية وترك المعاني في قلبه لله تعالى. فيبعد بذلك عن العجب بعمله ويحقق الصدق في العبودية ويعلم أن الفضل لله وحده، فلو كانت تنال بجد واجتهاد لادعاها الكثيرون بوجود التأهب والاستعداد وهذا معنى قولهم:

الواردات مواهب وليست بالمكاسب، يقول تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وما أجمع قول الشيخ زروق:

«والحكمة في إتيانها بغتة ثلاثة أمور:

أحدهما: ليعرف منة الله فيها.

الثاني: ليُقدر قدرها ويعظم الفرح بها.

الثالث: الغيرة عليها وتعزيزها؛ لأن ما كان من العزيز لا يكون إلا عزيزا».

الشبهة الثانية:

هل كل من ذاق حلاوة للإيمان، وإشراقا للأعمال، فقد حقق درجة أن يتحدث في كل علم، ويسرع بالإجابة عن كل سؤال، ويتصدر بمعرفته عن كل شيء، هذا مرض خطير، فمجرد الحرص على ذلك أو التصور بالكلام في أي قضية نوع من الجهل المغلظ، إذ أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، وكان السلف الصالح يدفعون مسائلهم إلى غيرهم، وقد سئل الإمام مالك عن اثنين وثلاثين مسألة فأجاب عن ثلاثة وقال في الباقي: لا أدري! فقال له السائل: وما أقول للناس؟ قال: قل لهم قال مالك: لا أدري.

نعم إن كثيرًا من الناس هذا طبعهم لدرجة أنه يحدثك ويجيبك عن دقائق العلوم المادية كالالكترونات والكيميائيات والذرة، وتقول عنه: يتكلم بلا تدبر مدعيًا العلم.. ولكن أن يتكلم البعض في السير إلى الله؛ في قضايا النفس والقلب والروح والعبودية، فهذه قضايا مرتبطة بروح وحلاوة وذوق.. فإذا كان أصحاب النوع الأول يدعون العلم فبم تسمى هؤلاء الذين يتحدثون عن قضية هي أخطر بكثير من قضية الكمبيوتر مثلاً؟!

ولم يمتنعوا فقط عن التحدث بكل ما يعلمون، بل لم يتوقفوا أن يعبروا للناس عن أي معنى، هم يذوقون حلاوته غير مقدرين عقولهم وأفهامهم أو بعبارات مبسطة

(ليس كل ما يعلم يقال) فكم من تنشيط للعبادة قد قيل له شيء من دقائق العلم جعله يفتر عن العبادة، فتكون قد أضرته، لذلك أهل السلوك يخشون إذا تكلموا أن يسلبوا، فالأصل في السير أن لا يتكلم الإنسان عما يراه: (**اعبد الله كأنك تراه..**).. إلا في المذاكرات مع إخوانه وأساتذته ليضمن سيرًا صحيحاً بعيداً عن أمرين: استخفافه بقدر العلم فيسلبه، وصاحب الكنز لا يبوح به وإلا سلبه من ساعته، ثم خوفه من العجب، فمن ظهرت قربته وجبت محبته، وربما كان إقبال الناس وإحاطتهم به فتحًا لباب العجب والكبر ونقصًا في أجره وثوابه، بل يدخر الجزاء ليوم لقاء الله تعالى، فأدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات فكيف بأعلاهم يقول تعالى: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧].

ولكن أين موضع الذكر كورد؟

قد يفهم من خلال النظرة الكلية أننا نقلل من قيمة الذكر! أو أن الذكر لا أهمية له ما دمت تعمل الأعمال الصالحة! ولم نعمد لشيء من ذلك أبدا، ولذلك أفردنا هذا الحديث كوحدة مستقلة لنبين أن كل الأعمال الصالحة لا بد أن يواكبها أو يكون في طياتها ذكر، بل إن القلب لا يستقبل آثار الأعمال إلا إن كان قلبًا ذاكرًا، يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ففي الأصل أن الروح عارفة بالله، وقلب السالك ليكون دائم اليقظة يحتاج إلى الكثير من الأعمال، فالروح السجينة بالجسد تتأثر بمطالبه، ويؤثر ذلك بالتالي على القلب، ولا ينتفع القلب إلا إذا كان طاهرًا، ولذلك فالإسلام جاء لتطهير القلوب فيما رواه مسلم قول النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»، وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن ابن عمر: «كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «**رب اغفر لي وتب عليَّ انك أنت التواب الرحيم**» وروى مسلم قول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه) ولنا أسوة في رسولنا الكريم فطمأنينة القلب بهذه الأمداد تجعله ثابتًا أمام العواصف

ورياح الفتن ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

أيهما أولى الورد أم الوارد؟

الورد: في اللغة هو الشرب، يقول تعالى ﴿بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وفي الاصطلاح: ما يرتبه العبد على نفسه من الأعمال والأذكار والعبادات.

الوارد: في اللغة هو الطارق والقادم يقال ورد علينا فلان، أي قدم.

وفي الاصطلاح: ما يتحفه الحق تعالى قلوب عباده من المعاني فيكسبهم قوة محركة ولا يكون إلا بغتة ولا يدوم على صاحبه.

والورد ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما عند ابن عجيبة:

١- **ورد العباد والزهاد من المجتهدين:** وهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات، وعبادتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وصيام.

٢- **ورد أهل السلوك من السائرين:** هو الخروج من الشواغل والشواغب وترك العلائق والعوائق، وتطهير القلوب من المساوئ والعيوب. وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل وملخص ذلك: جمع القلب وحضوره مع الرب.

٣- **ورد أهل الوصول من العارفين:** هو إسقاط الهوى ومحبة المولى وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف على الله.

فكل من أقامه مولاه في ورد فليلتزمه ولا يتعدي طوره ولا يستحقر غيره. و«كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما داوم عليه صاحبه، وكان آل محمد إذا عملوا عملا أثبتوه» أخرجه مسلم.

أردنا بهذه المقدمة أن نضع بين يدي السالك كيف حظي الورد بالاهتمام في حياة السالكين وفي حياة قدوة السائرين ﷺ. وعلى ذلك كانت الحكمة (لا يستحقر الورد إلا جهول) بمعنى أن البعض في الوقت الذي يطلب فيه الوارد يستحقر الورد!! وهذا جهول معاند إذ كيف يستحقر الورد وبه يكون الورود على الملك المعبود؟ فالاحتقار

من الجهل وتدبر قولهم: (حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل) فمتى وُجد الورد كان الوارد علي القلب، وهذا التفصيل يرجع إلى:

الأول: الورد ثوابه وثمرته في الآخرة، والوارد الذي تطلبه ينطوي بانطواء هذه الدار، يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وجاء في الأثر: (إن الله يقول: ادخلوا الجنة برحمتي وتقاسموها بأعمالكم).

الثاني: الورد هو طلب الله تعالى أي حقه عز وجل، فأطع مطلب العظيم منك وقدمه على مطلبك في الثواب وهو الوارد لأنه حظك الذي أنت طالبه، وأين ما يطلبه الله منا مما هو مطلبنا منه؟

الثالث: إذا كان الورد ينقطع وجوده بموت صاحبه فعليه يجب الاغتنام لوجوده، فالدنيا دار عمل لا جزاء فيها، والآخرة دار جزاء لا عمل فيها وفي الحديث: «**لا يأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة**».

الرابع: الاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد لأن الورد من وظائف العبودية وهي لا تنقطع ما دام العبد في هذه الدار.

ولهذه الأمور لم يترك ﷺ العبادة حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**».

فأفاد ﷺ أن شكر النعمة تمام العمل والخدمة وهو موجب المزيد، يقول تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

قيل للجنيد: إن جماعة يزعمون أنهم يصلون إلى حالة يسقط عنهم التكليف قال: وصلوا ولكن إلى سقر، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فعليك بمتابعة النبي ﷺ، ومتابعة السلف الصالح في الأقوال والأفعال والأحوال تحز مقامهم وتسكن معهم، فالمرء مع من أحب (هكذا قال النقشبندي).

ولذلك فأهل الطريق من الخبراء يشددون بالتمسك بالشريعة في قضية الورد يقول السهلي الزجلي:

فبالشريعة الوصال للمنى كالفوز بالبقاء من بعد الفنا
ومن يظن الخير في سواه فإنه والله ما دراها

وكان الشيخ اليزيدي يقول: كل من ترك الشريعة بلا عذر فسلوكه كبيرة، ومن أقوالهم: (والله ما رأينا الخير إلا فيها وما ربحنا إلا منها، فالله يرزقنا الأدب معها إلى الفصل والقضاء) اللهم آمين.

فما علينا إلا أن نداوم على الأوراد، فتتوالى على قلوبنا الأنوار، فكما قيل: بقدر المجاهدة تكون المشاهدة، وبقدر التخلية تكون التحلية.

أدب التعامل مع الوارد:

من نعمة الله تعالى أن يفيض على قلوبنا بحقائق المعاني، فتكون كنور يهتدي به السالكون، هذه الحقائق تأتي مجملة في القلوب، ثم يأتي دور التأمل فيها والنظر والاعتبار وتدوينها ثم نشرها بالحكمة، ولذلك قالوا: (وبعد الوعي يكون البيان)، ولهذا **فأول هذه الآداب في التعامل مع الوارد**: أن نستقبلها بالوعي والنظر وأن نعمل أذهاننا ونقدح فكرنا، هنالك تتحول إلى حلول لمشاكلنا ودافعات لسيرنا وأعمالنا نحو الله تعالى.

ولذلك كان القلم دائما بجوار السالكين يسجلون هذه اللحظات حتى إن أحدهم يقول: (كثيرا ما أكتب الكلام ثم أطالعه وأستغرب أني كتبته أو صدر مني) وكان بعض العارفين يقول لأصحابه: إذا كنت أتكلم عليكم أكون أستفيد من نفسي ما يجريه الله على لساني كما تستفيدون أنتم مني، ولهذا قال آخر: فصار القلم عندي أفصح من عبارة اللسان، أي بتسجيل هذه اللحظات من عبارات وحقائق ومعان، لدرجة أن الشيخ أبو الحسن إذا استغرق في الكلام يقول: هلا رجل يقيد عنا. وكان يحضر مجلسه أكابر وقته العز بن عبد السلام وابن الحاجب وابن دقيق العيد والمنذري وكان العز بن عبد السلام إذا سمع كلامه يقول: هذا كلام قريب عهد بالله.

والأدب الثاني مع الوارد: أن نساعد أنفسنا في نهضتنا إلى ربها، فالوارد إما قوة شوق أو محبة في القلب، أو قوة خوف وهيبة وجلال، وكل ذلك يدعوه إلى أن يخرج عن

شهواته وهواه وينهض إلى الله، وهذه فرصة قد أتت إلى العبد عليه انتهازها، فالفرص لا نصنعها، ولذلك سمي النبي ﷺ هذه الواردات نفحات في قوله: «**إن لله في أيام دهركم لنفحات**» وفي رواية: «**فتعرضوا لنفحاته**» وما دامت من الله، **فهي** قوية شديدة من القهار، فهي محض حق، وإذا صادم الحق الباطل ودمغه وقتله، يدك ضعف النفوس، وجبال العقول، فيصير صاحب الوارد كله حقا لا يصادم شيئا إلا دفعه.. فبالله هل يوجد بعدها هوى في القلب أو باطل فيه؟! فعلينا بالعمل ثم العمل ثم العمل حتى إن لم يجد أحدنا حضورا في قلبه عسى أن يأتي الوارد «**فإن الله لا يمل حتى تملوا**».

والأدب الثالث مع الوارد: قال بعضهم: (اتقوا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة) وأدبنا الثالث ألا نسارع بالفرح والتحدث عن الوارد وتزكيته قبل أن تتأكد أنه وارد حقيقي من الرحمن، وعلامته في وجود ثمرته وأثره من مخالفته النفس والهوى واكتساب الفوائد والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل، فالوارد كالسحابة، وليس المراد منها وجود الأمطار، إنما المراد ما ينشأ عنها من الثمار.

والأدب الرابع مع الوارد: إذا تحققت الثمار، قد يحلو للسالك أن يبقى على حاله، فيقف عنده، ولا يتقدم، وهذا ليس توقفًا عن السير فحسب بل عَدُّوه انحرافًا عن الوجه والقصد لله تعالى، فطلب الشيء يدل على محبته، ومحبة الشيء عبودية له، والحق تعالى لا يحب أن تكون عبدًا لغيره، فإذا تحققت الثمار، فتحررت من شهواتك وتخليت من مساويك وتحليت باليقين والطمأنينة في قلبك أو الزهد والرضا أو الخشوع والانكسار فليكن ذلك استمرارًا لك في السير ودافعًا لك نحو الله تعالى تلك في الله غنى عن كل شيء:

لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

فلا تتعلق بشيء دون الله تعالى، وتأخذ من الوارد زادًا في سيرك، فلكل وقت أدبه وفيه عطاؤه، سئل أبو سليمان الداراني عن أفضل ما يتقرب به إلى الله؟

فقال: أقرب ما يتقرب به إلى الله أن يطلع على قلبك وهو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه.

الفصل الرابع

طبيعة طريق السالكين

١- الخوف والرجاء.
٢- القبض والبسط.
٣- العطاء والمنع.
٤- التحقق بالعبودية الخالصة.
٥- الابتلاء.
٦- العلم النافع.
٧- نعم الله تعالى.
٨- نعيم الله تعالى.

الفصل الرابع: طبيعة طريق السالكين

١- الخوف والرجاء

الرجاء والأمنية:

وحتى لا يلتبس الأمر فالرجاء ما صاحبه عمل والأمنية اشتهاء وتمنٍ لا يصحبه عمل، وكما قيل: (الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية). وفي تعريف الرجاء يقول الفقهاء: هو تعلق القلب بمطموع يحصل في المستقبل مع الأخذ في العمل المحصل له، ولذلك فمن رجا أن يدرك النعيم والجنة فعليه بالجد والطاعة وإلا كان رجاؤه حمقًا وغرورًا، يقول معروف الكرخي: (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق) وقال في القواعد: قاعدة طلب الشيء من وجهه وقصده أقرب للتحصيل ومراعاة ذلك في ثلاث:

الأول: العمل بما علم قدر الاستطاعة.

الثاني: اللجوء إلى الله على قدر الهمة.

الثالث: إطلاق النظر في المعاني.

فما فائدة هذا الإنسان الذي يريد أن يغير الكون كما يقولون وهو قاعد لا يتحرك، خامل لا ينشط، هذا نوع من الأماني التي هي أقرب للأحلام، فهذا كأنه في حلم ما إن ينتبه إلا ويصطدم بواقع يصرخ في أركانه: ضيعتني ضيعك الله، يقول تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ولذا لن يتحقق هذا الرجاء إلا بصدق العبودية لله تعالى، أي بأن يكون السالك خالصًا لله تعالى، هنالك يكون أحظى بمحبة مولاه، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ -أي متخاصمون- وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [الزمر: ٢٩]، ويقول النبي ﷺ: «**تعس -أي خاب وخسر- عبد الدينار والدرهم والخميصة، إذا أعطى رضي،**

وإذا لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»، دعاء عليه بالتنكيس أي إذا أصابته شوكة فالله لا يخرجها منه بالنقش عليها.

وصدق العبودية هو الذي يوفر العمل الصادق، وهو مطلب السالكين الصادقين يحققونه بترك حظوظ أنفسهم ومخالفة الهوى، هنالك تحيا الروح وفي حياتها المعرفة، التي بها يكون الإذعان والخضوع لله تعالى، قيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله.

لو قيل ما تمني العبد يُعطي مناه لقلت منية قلبي في بقاه

(أي بقائه مع مولاه).

ولقد تأمل أحدهم (الأمنية) بأنها مثل (المنية): فإذا كانت المنية إعدام الأجساد، فالأمنية إعدام معنوي لحياة القلب والروح والعمل والعبادة.

يقول الحسن: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة (أي قولهم دون عمل: إن الله غفور رحيم) حتى لقوا الله وليست لهم حسنة يقول أحدهم: أحسن الظن بربي، وكذب، ولو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

بين الخوف والرجاء:

هذه قضية محسومة، فالمطلوب الاعتدال والسداد، فلا يصل السالك إلى نوع من الأمن بحيث لا يبقي في قلبه خوف من الله وإلا وقع في المعصية لقوله تعالى: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وكما لا يجوز أن يصل إلى حالة من الأمن من مكر الله ففي الوقت نفسه لا يجوز أن يصل إلى حالة من اليأس لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وربما كان ذلك هو الباب الأقرب للشيطان، فإذا وقع منك ذنب فلا يكن سببًا في قطعك عن الله، أو يؤيسك من الاستقامة مع الله، فيتضاعف عليك وبال المعصية وتعظم في حقك المصيبة والبلية، وما أدراك لعل ذلك رحمة من الله بك أو تنبيها من الله من سمتك كملل أو فتور قد اعتراك، فلماذا لا تنهض إذا سقطت؟ وإذا نهضت

تغلق باب الشيطان بأن تقول لنفسك: فقد يكون ذلك آخر ذنب قدره الله عليَّ وبذلك ينفتح لك باب الأمل والتوبة والاستقامة ورجاء أن يكون آخر ذنب، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، ويقول تعالى: ﴿لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويقول النبي ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**».. وكل ذلك يقوي رجاء السالكين ويؤكد الاعتدال والسداد.

كيف تكون راجيًا أو خائفًا؟

هل هي كلمات تلوكها الألسن، وتتناقلها الأفواه، أم هو شعور وإحساس وخفقات قلب ونشاط روح، أو حلاوة لها مذاق وذوق؟! بالطبع هي معان وأذواق، فكيف تكون راجيًا في الله؟ وكيف تحقق الخوف من الله؟ قاعدة السالكين في ذلك أمر ميسور وسهل: أنت بنفسك تستطيع أن تفتح باب الرجاء أو تغلقه! وكذلك أن تفتح باب الخوف أو تغلقه! إذا أردت أن يقوى رجاؤك في الكريم المنان، فاشهد ما منه إليك من الإحسان واللطف والامتنان وبذلك ينفتح لك باب الرجاء.

وإذا أردت أن ينفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إلى الله من الإساءة والتقصير في العبادة أو موافقة الشهوة والاسترسال في الغفلة، فإن شهدت ذلك دام خوفك واتصل، يقول النبي ﷺ: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم آخرون يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهو الغفور الرحيم**».

وهذا التأمل في حياة السالكين سواء كان لعطاء الله ونعمه أو ما منك من معاص ورعونات نفس ودنيا وحظوظ، يجعل السالكين دائما وقلوبهم فيها الخوف والرجاء، وهي حركة قلبية دائمة في كل لحظات يوم السالك إلى ربه، حتى تبقي الحركة كلما اعتاد ذلك، وهو ما يطلقون عليه (الغيبة عن الخوف والرجاء)، فهو يعيش في المعنى، ويحقق التأمل الدائم، والشهود المستمر، وبهذا يكون معتدلاً في جميع الأحوال وفي كل الظروف.

٢- القبض والبسط

البسط: مرح يعتري القلوب والأرواح.

والقبض: حزن وضيق يعتري القلب.

... وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار، فما بقي ليل بسواده، وما استمر نهار بضيائه، وإنما يبشر أحدهما بالآخر، وما اكتمل أحدهما إلا ويقدم الآخر، فعلام عند الضيق يكون هم؟ أو عند الفرح يكون شطط؟ فعند إجابة مطلبك أو حصول مُناك يفرح القلب وتنبسط الروح، فربما أبعدك ذلك عن مولاك، وأسقطك في دائرة النسيان، فمن لطف الله تعالى إذا أخذك القبض وتمكن منك الخوف وسكنت تحت قهره أخرجك إلى البسط لئلا يحترق قلبك ويذوب جسمك، وكذلك إذا أخذك البسط وفرحت به قبضك لئلا يتركك مع الفرح فربما تسيء الأدب وتجر إلى العطب!!

وما يزال السالك يتقلب بين الأمرين ويرى حكمه ولطفه فيما يقدره ويختار له، حتى لا يرى قبضا أو بسطا وإنما تبقى العبودية المحضة هي عنوان سلوكه إلى الله تعالى، ومن ثم يقولون: (ثم يفتح الله لك الباب فيخرجك منهما أي القبض والبسط لتكون عبدا لله في كل حال).

- أخرجك عن كل شيء لتكون حرا من كل شيء.
- أخرجك من كل شيء لتكون عبدا في كل شيء.

ووفق هذه المعاني هناك شبهة تعترض طريق السالكين ربما يظن البعض أن البسط والانشراح علامة القبول ربطًا بينه وبين الانشراح، والانشراح أمر آخر غير البسط والقبض.

ولذلك كان تشبيهنا بأنهما يتعاقبان على القلب كالسراء والضراء والليل والنهار، ليدل ذلك على أنهما جزء من حياة السالكين لا ينفك عنهم ولا يبتعدون عنه ما

داموا في هذه الدنيا، ومن رحمة الله ألا يجعلك في كرب دائم وهم لازم وفي قولهم: (بسطك كي لا يبقيك مع القبض) والعكس، فالبسط الدائم قد يخرجك عن الأدب بالتسليم والرضا، فسبحان من رحمته تشملنا ولطفه يحوطنا.

لماذا يفضلون القبض على البسط؟

قبل الإجابة عن هذا التساؤل نتعرف أولاً على آداب السالكين عند القبض أو عند البسط. قالوا: إن القبض كالليل فيه السكون والهدوء يزول بشروق النهار، والذي أنزل الداء هو الذي بيده الشفاء، وليس علاج القبض بمعرفة أنه زائل فحسب وإنما في جني الفوائد إذا وقع، وذلك بالالتزام بالآداب التي تجعلك دائما على خير.

ومن آداب القبض التي اتفقوا عليها ثلاثة:

١- الطمأنينة والوقار.

٢- السكون تحت مجاري الأقدار.

٣- الرجوع إلى الواحد القهار.

كثيرًا ما نزرع الأمل وهو أمر حتمي، ونستهين بظلمات الظالمين وليل المحن وهو أمر زائل ومدموغ، ولكن ننسى أن نتواصى ماذا نفعل، وما آداب التعامل إذا عرفنا ذلك وآمنا به إيمانًا لا شك معه. إن معرفتنا بذلك معناها بداية التعامل أو أننا هيأنا أنفسنا وقلوبنا للتعامل الصحيح على أساس متين، ولما كان سبب القبض الغفلة عن الله كان علاج النبي ﷺ بالرجوع إلى الله تعالى:

١- قوله في الحديث الصحيح: «**من أصابه هم أو غم فليقل: الله الله لا أشرك به شيئا، فإن الله يذهب همه وغمه**».

٢- قوله ﷺ: «**ما قال أحد: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك؛ سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**، أن تجعل القرآن العظيم:

ربيع قلبي.

ونور بصري.

وجلاء همي وغمي.

إلا أذهب الله همه وغمه وأُبدل مكان همه فرحًا وسرورًا».

ومن آداب البسط:

١- كف الجوارح عن الطغيان والشطط.

٢- خاصة اللسان فعليه التحلي بالصمت والسكينة والوقار.

٣- الخلوة بمعنى كف الأذى عن النفس والعناية بها.

وقيل: (لا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل) والسبب في ذلك حظ النفس، فعند البسط تأخذ النفس حظها بوجود الفرح، والقبض لاحظَّ للنفس فيه، وكما هو معلوم، الموضع الذي تحيا به النفس يموت فيه القلب، والموضع الذي تموت فيه النفس يحيا به القلب، ويقول أبو علي الدقاق:

القبض حق الحق منك والبسط حقك منه، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك.

ومن أجل ذلك فضل خبراء الطريق للسالك أن يخاف من البسط عن القبض، فلا تَزِلَّ قدمٌ بعد ثُبُوتها.

كما أن للقبض فوائد فإن للبسط فوائد أيضا، والعبد لا يدري أيهما أقرب له نفعًا، ولكن القبض الذي هو كالليل، يكون محلاً للمناجاة مع الله والمصافاة معه وملاقاة الأحباب، حيث معان جمة تنزل على القلب، فربما أفادك في ليل القبض من انكسار النفس وصفاء القلب وموالاة الأنس بالله ما لا تستفيده من نهار البسط.

فهذا هو التأمل في ليل القبض والبحث عن أسبابه من ذنوب وأخطار، بينما في البسط يبحث الإنسان عن الكمالات ولا يتأمل في نفسه، من هنا كانت الأفضلية وفي كلٍ خيرٌ ونفع.

٣- العطاء والمنع

يقول ابن العربي: إذا منعت فذاك عطاؤه، وإذا أعطيت فذاك منعه، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وفي الحكم: (ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك) وعلى هذا فكن خائفًا راجيًا في العطاء والمنع، راجعًا لاجئًا مفتقرًا إلى الله، فقد يكون الأمر على غير ما تظهر لك الصورة، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]، أي ليس الأمر كذلك بل قد يكون المنع عطاء والعطاء إهانة، ولذلك قالوا: فلا تفرح بشيء ولا تحزن عليه من حيث وجوده، فكم خدع أناس أنفسهم، وامتلكهم الاضطراب، وتقطعوا قلقًا، لعدم فهمهم هذه الحقيقة، ولو أنهم استوعبوا هذا المعنى لرأوا أن المنع في العطاء هو ما صرفهم عن الله وشغلهم عنه كما قيل: (ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم.. فليس الأمر في الأهل والمال والولد وإنما حينما يتحولون إلى صرف عن الله تعالى فيكون عطاء في الصورة ومنعًا في الحقيقة، وكم مخدوع في منصب أو تقدم أو شهرة أو تجارات يقول: إنما ذلك عطاء وهو في الحقيقة منع من الله).

وأما السؤال الذي يدور في الأذهان.. هو عكس هذه الصورة السابقة بمعنى: كيف يكون المنع عطاء؟

ولا يعلم الإجابة إلا من تحقق فيه فهم ما قلناه في المنع، فهذا وحده يقول: المنع عين العطاء!!

وذلك لأن الإنسان إذا مُنع من مال أو منصب أو ترف أو حياة رغدة أو غير ذلك، تراه إلى من يلجأ؟ وبمن يلوذ؟ فالمنع الذي رده إلى ربه وأرجعه إليه هو في الحقيقة عين العطاء من الله تعالى، ووفق هذه القاعدة يتعامل المسلم كاشفًا حقيقة الحياة حوله، من مظاهر تجعله أسيرًا لها، كما قيل: إن اشتغل بها صرفته، وإن اطمأن إليها صرعته، وإن أعرض عنها تحدثت بحقيقتها وقالت: إنما أنا عبرة، ولذلك كان السلف إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عُجلت عقوبته وإذا أقبل الفقر قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين.

وكم نسمع كل يوم عمن يُصاب بأزمات مرضية لفقده جزءًا من زينة الدنيا، أو انهيارات عصبية لمجرد إدبار حال أو كسوف منصب، وما ذلك إلا لأنه ينظر بعين النفس ولو نظر بعين القلب لقال كما قال بعض السلف: (تركت الدنيا لسرعة فنائها وقلة غنائها وكثرة عنائها وخسة شركائها).

وبذلك إذا سألته شيئًا أو هممت بشيء أو احتجت إلى شيء فمنعك منه، فإذا منعك فذلك رحمة بك وإحسان إليك، إذ لم يمنعك من بخل ولا عجز ولا جهل ولا غفلة وإنما ذلك حسن نظر إليك وإتمام لنعمته عليك لكونه أتم نظر وأحمد عاقبة، وتأمل أقوالهم في ذلك:

- ربما دبرنا أمر ظننا أنه لنا فكان علينا.
- وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد.
- والشدائد من وجوه الفوائد.
- وربما كَمُنت المنن في المحن، والمحن في المنن.
- وربما انتفعنا على أيدي الأعداء، وأوذينا على أيدي الأحباء.
- وربما تأتي المسار من المضار وقد تأتي المضار من المسار، فماذا أنت فاعل؟

بالمنع والعطاء يتعرف الله عليك:

سعادة القلب في معرفته بالله تعالى والوصول إلى هذه المعرفة لا تتم إلا بفهم عن الله تعالى وعلم بحكمته عز وجل.. خاصة في المنع والعطاء، وإذا تعرف السالكون على حكمة الله في المنع والعطاء، استراحت أرواحهم واستروحت قلوبهم، فالله تعالى من حكمته في العطاء أن تتعرف على كرمه وبره، وبأنه المعطي الكريم البر، أي أن الله تعالى يعرفك على جماله، وكذلك في المنع، الله تعالى يريد أن تتعرف على أنه القهار وعلى صفات جلاله، هذه المعرفة لها أثرها على السالكين فلا يتهمون ربهم في المنع ولا في العطاء فإنه متى أعطاك أشهدك بره ورحمته، فعرفت أنه الكريم الرءوف الرحيم الجواد فتتعلق بكرمه وجوده دون غيره.. فتتحرر من رق الطمع ويذهب عنك الغم والجزع وتتحلى أيضا بأوصاف الكرم والرحمة والإحسان فإن الله يحب أن يتخلق عبده بخلقه، وفي الحديث: «**تخلقوا بأخلاق الرحمن**» وتصف عائشة خُلُق رسول الله ﷺ

بقولها: (كان خلقه القرآن) ومتى منعك أشهدك قهره وكبرياءه فعرفت أنه قهار جبار فيعظم خوفك وتشتد هيبتك منه، ويترتب على ذلك أن الله يعظمك ويكرمك ويحفظك فإن الله ينزل عبده على قدر منزلته منه.

أرأيت هذه الحكمة البالغة من الله تعالى في منعه وعطائه فهو متعرف إليك، أي طالب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه، فما الواجب علينا بعد أن تعرفنا على هذه الحكمة؟ الواجب على السالكين أن يطلبوا هم أيضا معرفته في كل حال وأن يتعرفوا على منته وكرمه وإحسانه في الجمال والجلال، في الخير والشر، في الرخاء والضيق، في المنع والعطاء، وبذلك تتحقق المعرفة الكاملة بالله تعالى، ومن ثمراتها التسليم والرضا لما يجري به القضاء، والصبر عند الشدائد والمصاعب، فإن من صدق المعرفة أن يستوي المنع والعطاء والفقر والغنى والقبض والبسط والفقد والوجد والحزن والفرح فيعرف محبوبه في الجميع كما قال القائل:

(حبيبي ومحبوبي على كل حالة).

وهذا أمر لا ينفع فيه الادعاء، ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

قيل لبعضهم: ما الزهد عندكم؟ قال: إذا وجدنا شكرنا وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، فقال: وما الزهد عندكم أنتم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا، فهذا هو الفهم عن الله والتعرف عليه تعالى حيث شكر حين الفقد، فقد عد الفقد نعمة والفاقة غنى.

فلماذا يتألم الإنسان حين المنع؟ إذا وجد أحد ألمًا فليراجع فهمه عن ربه، ومعرفته بالحكمة في المنع، ولو عرف الحكمة من المنع فإن المنع يصبح عطاء فيكون القلب سعيدًا، وبذلك يهنأ الإنسان ويستقر وجدانه بمعرفته وفهمه عن ربه تعالى.

عطاء الناس ومنع الله:

وبعد أن تعرفنا على قواعد العطاء والمنع هناك أمر لابد من إجلائه والوقوف أمامه فهمًا وتوضيحًا، الإنسان قد يقع في لحظة واحدة بين منع الله تعالى، بينما يغدق عليه الناس بالعطايا، وقد يلتبس الأمر على ما لا فهم له، ولم يتعرف على الله

وحكمته، وقد فَصَّل الحكماء الأمر بقول ابن عطاء: (العطاء من الناس حرمان والمنع من الله إحسان) هذه الحقيقة تحتاج إلى بيان: المنع يقتضي أن تلجأ إلى الله وأن تدوم بين يديه، وأن تظل جاهدًا عاملاً فيما اختاره لك ووجَّهك إليه إذ أن الله تعالى لا يمنع من بخل ولا عدم ولا افتقار ولا احتياج، وإنما يمنعك رحمة بك وكما قيل: (العطاء من الله هو العطاء، والمنع منه هو عين العطاء لمن فهم مراده به) ولذلك قال أبو حبيب البدوي لسفيان الثوري: مالي أطلب الشيء من الله تعالى فيمنعني؟ قال: (مَنْعُ الله إياك عطاء، لأنه لم يمنعك من بخل ولا عُدم).

وكان العطاء من الناس حرمانًا لعدة أمور:

أولاً: فيما يكون عطاؤهم؟ من حظوظ الدنيا وفرحها والتوصل إلى شهواتها ولذاتها.. أليس في ذلك موت للقلب وقسوته.

ثانيًا: ممن يكون العطاء؟ من الناس وهم يبخلون ويفتقرون ويحتاجون فيمنون بالعطاء! وقد قيل: الصبر على العدم أيسر من تقلد المنن.

ثالثًا: إلى من يكون العطاء؟ إلينا ونحن بشر والنفس مجبولة على حب من أحسن إليها، فإذا صرف الوجه إليهم، يفرح القلب بالأنس بهم، وقد يبدأ صغيرًا ثم يكبر ويعظم حتى تكون أسيرًا في أيديهم، وربما دفعك ذلك إلى مكافأتهم بخدمتهم لتسلم فتذل، وقد قيل: (عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة) ولذلك يقول أبو الحسن: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، لأن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو ترجع به إلى الله تعالى خير من صديق يصدك عن الله).

وفي وصية علي كرم الله وجهه: لا تجعل بينك وبين الله مُنعما واعدُدْ نعمة غير الله عليك مغرما، ويقول القائل:

فلا ألبس النُعمى وغيرك مُلبسي ولا أقبل الدنيا وغيرك واهب

ومن علم ذلك فليقبل على ربه، ويدوم بين يديه، ولا يترك حائلاً بينه وبين ربه عز وجل، ولا يتحقق ذلك إلا بإحسانه وعطائه.. إنه منعم كريم.

٤- التحقق بالعبودية الخالصة

التعرض للعبودية الخالصة:

أرقى ما يصل إليه البشر (العبودية الخالصة) يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ويقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١].

وتحقيقها بشيء واحد هو أن يخرج الإنسان من أوصاف البشرية وهي الأخلاق التي تناقض خلوص العبودية، بعضها ما يتعلق بشهوات القلب من شهوة البطن والفرج وحب الدنيا، وبعضها ما يتعلق بأمراض القلب كالكبر والحسد والحقد والمدح.. وهي لا تحصى. ومعنى خروجه من شهوات القلب أن تحل محلها أخلاق الزهد والورع والعفة والقناعة والغنى بالله والأنس به، ومعنى خروجه من أمراض القلب أن يتحلى بأخلاق التواضع وسلامة الصدر والسكينة والكرم والصدق والمراقبة والمعرفة.

وقد تحدثنا من قبل أن هناك فرقًا بين التعلق والتخلق والتحقق فإذا تحقق في السالك التخلق ثم التحقق بهذه الأخلاق وذاق حلاوتها كان عبدًا خالصًا بمعنى أنه حر عما سواه.

وهذا مقصود السالكين، ولضمان التحقق بالعبودية لابد من تحقيق شرط (الصدق في العبودية) بمعنى ألا تكون في صاحبها عبودية لحظوظه وهواه، وبذلك يحقق بصورة عملية القيام بحقوق الربوبية من الخضوع والإذعان لهيبة الجلال، ومدارها كما قيل في ثلاث: التشمير بالحقوق، والإعراض عن كل مخلوق، والاستسلام تحت جريان المقادير وقد أطلقوا عليها: (الامتثال لأمره والاستسلام لقهره).

التحقق بأوصافه تعالى:

باعتبار المعنى السابق من التعرض للعبودية الخالصة انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: من يعبده خوفًا من عقوبته أو طمعًا في رحمته عاجلاً أم آجلاً وفيهم يقـول: النبي ﷺ: «**لولا النار ما سجد لله ساجد**» وهؤلاء عبادتهم كما قيل (بنفسهم لأنفسهم).

ثانيًا: من يعبده محبة في ذاته وشوقًا إلى لقائه لا طمعًا في جنة أو خوفًا مـن نـار، وهم المحبون من السالكين وهؤلاء عبادتهم كما قيل: (بنفسهم لله).

ثالثًا: من يعبده قيامًا بوظائف العبودية وهم المتقدمون من السـالكين وعبـادتهم كما قيل: (بالله ولله ومن الله وإلى الله).

وكل ذلك جائز من العلماء الفقهاء والأمثل من جمع كل ذلك فكـان توجهـه إلى الله مخلصًا في العبودية لله تعالى، يقـول الإمـام ابـن عجيبـة: (فاسـتحى مـن الله أيهـا الإنسان أن تطلب أجرًا علـى عبـادة أجراهـا عليـك الواحـد المنـان) ويقـول تعـالى: ﴿**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ**﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقالوا لتحقيق ذلك أيضًا: (إرفع همتك عن طلب الحظوظ ، فمن رفعهـا صـبت عليه الحظوظ) فقد ورد: إن الله يحفظ الأولاد وأولاد الأولاد بطاعة الأجـداد ولقولـه تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ [الكهف: ٨٢]، وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: (إني لأطيل الصلاة من أجلك) ومعناه: إني أعبده مخلصًا عَلَّه يحفظك.

بشر عبد:

لا ينافي التحقق الخالص بالعبودية أن ينقطع الإنسان عـن أوصـاف البشـرية مـن أكل وشرب ونوم ونكاح، ولا يمنع مزاولة الإنسان لأوصاف بشريته ألاَّ يكـون عبـدًا خالصًا لربه، وإنما ذلك لحكمة ربانية امتحن الله بها الأمم في أنبيائهم، وعندما نظرت الأمم والأقوام إليهم دون أن يبصروا ما خصهم الله بـه مـن رسـالة ونبـوة وعبوديـة خالصة رفضوا متابعتهم بحجة أنهم مثلهم في البشرية فسقطوا في الامتحان الرباني.

وكان من حكمته حينما يتصف الناس بأوصاف العبودية الخالصـة لله تعـالى، أن يظهر قهره وربوبيته، فالإنسـان يقيـد بقـوانين الكـون العابـد الخاضـع لربـه تعـالى لا يستطيع أن ينفك عنها، وكل ذلك يدفعه للاستسلام لأمر القهار وعظمة ربوبيته.

وبهذا المفهوم فالسالكون كلما تقدموا في تحقيق العبودية فليس معنى ذلك أنهم تخلصوا تمامًا من حظوظ أنفسهم، يقال إن أستاذا أراد أن يمتحن تلاميذه فتصرف تصرفًا حقيقته الإباحة وظاهره الخطأ، فانفض التلاميذ عنه إلاَّ واحدًا، فقال له: ما أبقاك عندنا؟ قال: أبقاني أنني لم أصحبك على أنك معصوم.

ووفق هذا التفكير يسلم السالكون من ردة فعل أو غلو في بعض الناس (فليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه) وعلى ذلك فلنستفد بكمال بعضنا بعضا ونتوقع النقص في أشياء أخرى، ولنقدم الكامل في الأمر الذي حقق فيه الكمال، ولا حياء لتأخيره في أمور أخرى لم يحقق منها كمالاً، يقول الإمام مالك: (إن من شيوخي من أستسقى الله به ولا أقبل حديثه).

كيف تتحقق بأوصاف العبودية؟

هذه ليست معضلة خاصَّةً إذا عرفنا أن الله تعالى له الأسماء الحسنى وهو رب، وأنت لك صفات وأنت عبد، فالله سميع وأعطى الإنسان سمعًا، لكن الله متصف بوصفه وهو رب، وأنت متصف بوصفك وأنت عبد!

يقول الشيخ زروق: أوصاف الربوبية أربعة تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية:

أولها: الغنى ويقابله الفقر.

الثاني: العز ويقابله الذل.

الثالث: القدرة ويقابلها العجز.

الرابع: القوة ويقابلها الضعف.

(وكل هذه متلازمة إن وجد واحدها وجد جميعها، ووجود المقابل ملزم بوجود مقابله).

ومعنى ذلك: إذا نظرت إلى أوصافك فأنت الفقير إلى الله، وإذا نظرت إلى أوصافه فأنت الغني بالله وعليه فأنت: الذليل إلى الله، العزيز به.

والضعيف إلى الله، القوي به.

وما يزال السالك يحقق هذه المعاني من العبودية الخالصة حتى تظهر العلامات التي أطلقوا عليها (رشحات العبودية)، وعلامة الهلاك أن يحقق الإنسان العكس وهذا حال الكافرين ومن على فرعون وهامان ممن نازعوا الله في قدرته وقوته وعزته وغناه.

وإن نجاح السالك في تحقيق العبودية بعد هذه المجاهدة والمكابدة والثبات يعني استمراره واتصاله، لأن عيوبه لا تنقطع، ومن ظن أنه سيصفو تمامًا فقد نسى بشريته، يقول النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون يستغفرون الله فيغفر لهم**» وليعلم السالك أيضا أن تحقيقه للعبودية إنما هو بمحض كرم الله تعالى وفضله، وذلك ليلزم الاضطرار والافتقار إليه كما قيل: (بما منَّ الله إلى العبد من سابق العناية والوداد لا بما منَّ العبد إلى الله من الكد والاجتهاد) فسبحان من ستر فقرك بغناه.

وذلّك بعزه.

وعجزك بقدرته.

وضعفك بقوته.

وهذا يجرنا إلى أمر آخر وهو: بقدر ما تتحقق بوصلك قلبًا وقالبًا يمدك بوصفه وقل:

يا غني من للفقير سواك

يا قوي من للضعيف سواك

يا قادر من للعاجز سواك

يا عزيز من للذليل سواك

تجد الإجابة كأنها طوع يدك:

﴿**اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا**﴾ [الأعراف: ١٢٨].

﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣].

رُوِيَ أن بعض الملوك قال لبعض السالكين: ما يكون لك من حاجة فارفعها إليَّ، فقال له السالك الفقير: قد رفعت حوائجي لمن هو أقدر منك، فما أعطاني منها رضيت به، وما منعني فيها رضيت عنه وأنشدوا:

ملكتَ نفسي وكنتُ عبدا فزال رقّي وطاب عيشي

يقول إبراهيم بن أدهم: (من طلب الفقر استقبله الغنى، ومن طلب الغنى استقبله الفقر، والغنى هو الغنى بالله).

فلا تعجب أن يقال: (إن العبودية هي الحرية)، ومن حقق وصفها فهم في الظاهر: الضعفاء الأذلاء، وفي الباطن: الأغنياء الأقوياء الأعزاء.

الافتقار عنوان العبودية الخالصة:

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، كانت مأوى لفاقتهم واضطرارهم، فالافتقار يوجد حين ينقطع حظ النفس، والافتقار شعار الأنبياء عليهم السلام فقد أكثروا من الدعاء والإلحاح وإظهار الفاقات للتشريع والتعليم. والفاقات أعياد السالكين، فإن كان أعياد الناس ما يعود عليهم بالأفراح والمسرة بالحظوظ، فالسالكون فرحهم بإقبال الله عليهم ووجود قلوبهم وصفاء أحوالهم وقد قالوا في معنى العيد:

قالت هنا العيدُ بالبشرى فقلت لها العيد والبشر عندي يوم لُقْيَاكِ

الله يعلم أن الناس قد فرحوا فيه وما فرحتي إلا برؤياك

وقال آخر في أعياد السالكين:

قالوا غدًا العيد ماذا أنت لابسه فقلت خِلْعَةَ ساق حبُّه جُرَعا

فقر وصبر هما ثوباي تحتهما قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذي خُلعا

الدهر لي مأتم إن غبتَ يا أملي والعيد ما كنت مرأى لي ومستمعا

وإنما كانت الفاقات أعياد السالكين، لأن الإنسان في فاقته يجد ما لا يجده في الصوم والصلاة من المزيد، لأن الفاقة من أعمال القلوب، والصوم والصلاة من

أعمال الجوارح، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، الفاقات قوت الروح، والصوم والصلاة قوت القلب.

وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى لعبده:

(سبكتك بالفاقة لتكون ذهبا).

أما عن حكمة الفاقة: يقول ابن عطاء في كتابه التنوير: (في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولو البصائر، ولو لم يكن إلا تذلل النفس وتحقيرها وقطعها من حظوظها لكان في ذلك غاية المطلوب منها) وقد قيل حيثما وقعت الذلة وقعت معها النصرة يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ومن حكمة الفاقة أيضا هذه المعارف والحكم والعلوم والطمأنينة التي ترد على القلوب، حال صفائها وتصفيتها مما سوى الله تعالى، وأصفى ما يكون القلب حين تذهب النفس، وذهاب النفس بترك حظوظها، ولا يتحقق ذلك في الغالب إلا في حال الفاقة والفقر ولذلك كانوا يفرحون بالفقر ويحزنون من الغنى.

كان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينا وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحًا مسرورًا، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا، فقال: إني إذا لم يصبح عندي شيء فلي برسول الله أسوة حسنة، وإذا أصبح عندي شيء لم يكن لي برسول الله أسوة حسنة.

وهذا العطاء الرباني صدقة من الله لا جزاء على الأعمال لأن الصدقة لا تكون في مقابلة عمل: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ولذلك فعلامة التحقق بالفقر ليطمئن السالك في ثلاث:

- الاستئناس به.
- والاغتباط بحصوله.
- والاستقرار معه.

حتى يكون عنده أحلى من العسل، وتترادف حينئذ على قلبه العطايا، فيكون أغنى الأغنياء، ولذلك كان الافتقار عنوان العبودية الخالصة.

٥- الابتلاء

الابتلاء في طريق السالكين له لغة أخرى ولذلك فالحديث عنه حينما يكون للسالكين نتناوله من زاوية محددة، وهي كيفية الوصول إلى الله تعالى من خلال وجود أسبابه، وأهم ما ينبغي تركه والتطهر منه منازعة المقادير، إذ أن صبر العبد وثباته لأحكام ربه، وقوته عند ورودها، وتحولها إلى بهجة وسرور من ألم وكدر، كل ذلك يقوم على أسباب عشرة، ولو قدر الله لك أن تجلس إلى المبتلين الثابتين من السالكين لاطلعت على أسرار تعيش في كيانهم وتتحرك في وجدانهم، وربما حدثوا عن نعيمهم بالابتلاء وقربهم من المولى وأحوال ينبهر لها الناس، وحديثهم ذلك لا يخرج عن واحد من هذه الأسباب العشرة، إما فرادى أو مجتمعة، ولكنها في مجموعها لا تخرج عنها، وقد تحدث عنها ابن عطاء في كتابه (التنوير) إلا أننا نقتنص منها المعنى وإسقاطه من فم أهل الابتلاء كما عايشوه لحظة لحظة، وهي:

أسباب الصبر على الابتلاء:

أولاً: حكم من الله:

يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، فعلمنا بأنها من الله سلوة لنا، وسبب لوجود الصبر، فهو ليس حكم غيره فيشق عليك بل هو حكم سيدك القائم بإحسانه إليك، وكم تبددت حالات من الضيق وتلاشت أنواع من القبض لوجود هذا السبب.

ثانيًا: فهم من الله:

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، أي كافيه وناصره، ويقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، هذا التدبر للآيات يأتي كنور وسط الابتلاء، ينفذ إلى القلوب، فتفهم، هذا الفهم يرجعك إلى الله ويحثك إليه، ويجعلك متوكلاً عليه، فيكون لك خير معين.

ثالثًا: عطايا الله:

يقول تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ فسلاهم الحق فيما أصيبوا

بما أصابوا هذا في العطايا السابقة من عظيم الأجر على البلاء، وما ينزل على قلوبهم من التثبيت والسكينة، فكانت عطايا الله سببًا للصبر ومعينًا على البلاء.

رابعًا: اختيار الله إياك:

وأي إحسان وشرف أن يختارك الله لتكون في الصابرين، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلله الحمد على حسن الاختيار لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

وقد قيل: (إذا منعك لم يمنعك من بخل وإنما يمنعك رحمة لك، فمنع الله عطاء) وفي الحكمة: (ليخفف عنك ألم البلايا علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي له فيك حسن الاختيار) وكما يقول المثل العامي: (ضرب الحبيب زبيب)، ولذلك فالسالكون المحبون لربهم تراهم في فرح ويسألون الله العافية لعلمهم بأن الله هو الذي ابتلاهم وهو الذي اختارهم، وهو أرحم الراحمين.

خامسًا: علم الله بحالك:

في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي ما تلقاه يا محمد من كفار قريش من المعاندة والتكذيب فليس بخاف علينا، وهذا المعنى أبعد ما يكون عن الغافلين، ومن أجل ذلك حينما جاء جبريل عليه السلام إلى الخليل إبراهيم عليه السلام قال: ألك حاجة، فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا وأما إلى الله فنعم، قال: فاسأله، قال: (حسبي من سؤالي علمه بحالي).. فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته بغير الله، بل استسلم لحكم الله وبرعايته فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، وقد سمي الخليل خليلاً لأنه تخلل سره بمحبة الله وعظمته وأحديته فلم يبق فيه متسع لغيره، وللسالكين قدوة في شيخ الأنبياء عند الابتلاء، قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قالوا: بمقتضى قوله: حسبي الله.

سادسًا: الله يتجلى بالتخفيف:

وقت المحن يمر سريعًا وتنطلق الألسن: هذا تخفيف من الله ورحمة، وزمن الابتلاءات

له مذاق خاص في الطاعة والعبادة والعلاقة القلبية، وتنطلق الألسن: هذا تخفيف من الله ورحمة، وكلما تضيق تفتح ميادين من السعة لم تكن في البال، على مستوى الأفراد وأسرهم ومصالحهم، وتنطلق الألسن: هذا تخفيف من الله ورحمة، فالله يتجلى بصفات جماله للتخفيف، إن جمالاً بشريًا كان سببا في ذهاب عقول النساء في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، فلا عجب من أن تنبهر العقول أمام ظهور الله على أهل البلاء بوجود جماله وما ذلك إلا رحمة من الله وتخفيف.

سابعًا: تصبر ولك الرضا:

فالصبر على القضاء يورث الرضا، فيتحملون مرارة القضاء طلبًا لرضاه كما يتجرع الدواء المر لما يرجى فيه من الشفاء.

ثامنًا: أنس القرب ينسيك البلوى:

في ليل المحن يتنكر أناس ويتخلى آخرون ويحال بينك وبين أحبتك وتضيق الحلقات وتظلم الأحوال، ولكن ضوء الأمل لا يخبو بصدق التوجه إلى الله تعالى، وهنالك يفتح الله عن بصيرة قلبك فيريك قربه منك، فتحلق في عوالم رحبة، وميادين واسعة، فإذا بأنس القرب من الله ينسيك البلوى، بل ويغيبك عن إدراك المؤلمات، ولذلك شواهد كثيرة منذ بلال -رضي الله عنه- وإلى يوم القيامة.

تاسعًا: ولك أجر التكليف:

قالوا: إن التكاليف أربعة: طاعة ومعصية ونعمة وبلية، ولله عليك في كل واحدة عبودية وأجر وثواب. والابتلاء قد يكون بواحدة أو أكثر من هذه التكاليف الأربعة فالعلم بذلك يوجب الصبر لما أعده الله من أسرار الأجر والثواب فيقويك ذلك على حمل أثقال التكليف.

عاشرًا وأخيرًا: لطف الله:

من أعظم إحسان الله وبره كون لطفه لا ينفك عن قدره، فما نزل القدر إلا سبقه اللطف وصحبه، وقد قيل: (هي البلايا والفاقات والأسقام من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولو البصائر) وبهذا حكم العقل والنقل: فما من مصيبة تنزل بالعبد إلا وفي قدرة الله ما هو أعظم منها، فإذا نزلت بك أيها الإنسان مصيبة فاذكر من هو أعظم بلاء

منك، يقول الله تعالى في مدح الصابرين: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٥٣]، ويقول تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ويقول ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها وحتى الهم يهمه إلا كفر به سيئاته**» حتى قال بعضهم: يقع مع البلاء وجود الذلة ومع الذلة تكون النصرة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وفي الحكمة: (من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره) أما عندما يعرف المسلم السالك إلى ربه هذه الحقيقة أن القدر لا ينفك عن اللطف يكون مستريحًا لقدر الله مطمئنًا لمواقع القدر في حقه وفي حق إخوانه وفي حق المسلمين جميعًا.

وداعًا لألم البلاء:

وحينما فهمت القلوب ذلك فإذا بها ترضى بالأقدار وتفرح بتدبيرات الرحمن، فالتدبير إنما يكون لمن بيده أزمَّة المقادير، وهو المتولي لتدبير مملكته علوها وسفلها، غيبها وشهادتها، حتى أنت ملك لله تعالى، وليس لك تدبير فيما ليس لك ملكه! ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فهل يكون لعبد بعد المبايعة منازعة، فما بعته وجب عليك تسليمه!

وها نحن في دار الدنيا في ضيافة الله لأن الدنيا دار الله وأنت نازل عليه ومن حق الضيف أن لا يعول همًا مع رب المنزل. يقول الشيخ أبو مدين لسائل: (يا أخي أنصفونا، الدنيا دار الله ونحن فيها ضيوفه).

ونظرنا الدائم إلى قيومية الله تعالى في كل شيء، قيوم الدنيا بالرزق والعطاء والآخرة بالأجر والجزاء يجعلنا نلقي بأنفسنا بين يديه، ناظرين لما يرد علينا من الله حكما، ثم ليس لنا من مهمة إلا العبودية المحضة لرب العالمين، وحق العبد أن لا يعول هما مع سيده المحسن المتفضل عليه، وكما قيل: على العبد القيام بالخدمة والسيد يقوم له بوجود القسمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي رزقا بعد رزق، يدوم ويستقر.

يا ربي رضينا بقضائك، وفوضنا الأمر كله إليك، فلا حكم إلا حكمك، وكما قيل: ربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد، والشدائد من وجوه الفوائد، والأضرار من وجوه المسار، والمسار من وجوه المضار، وربما كمنت المنن في المحن والمحن في المنن،

وربما انتفعت على أيدي الأعداء وأرديت على أيدي الأحباب... فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن لعاقل أن يدبر مع الله تعالى ولا يدري.

يقول ابن عطاء: (وكم مرة أردت أمرا فصرفه عنك فوجدت لذلك غما في قلبك وحرجا في نفسك، حتى إذا كشف لك عن عاقبة ذلك علمت أنه سبحانه نظر لك بحسن النظر من حيث لا تدري، فما أقبح مالكا لا فهم له، وعبدا لا استسلام له).

وحين تحقق الاستسلام إلى الله في واردات الامتحان يمنحك الله أمنا، ويعيد الله عليك شوكها ريحانًا، وخوفها أمانًا، ويعيد إليك نار الدنيا ولهيب ضيقها بردًا وسلامًا، ويعطيك مِنَّة وإكرامًا.

وهنالك يتولاك الله بالسلامة والهداية، والحفظ والرعاية، جزاء قلوب ملأها بحبه وأشرق فيها أنوار قربه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ليس لك على قلوبهم سلطان، لأن سلطان عظمتي في قلوبهم، فكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، اتخذوها معبرًا وتحقق فيهم قول النبي ﷺ عن الدنيا: (فنعمت مطية المؤمن) فمدحها من حيث كونها مطية لا من حيث أنها دار اغترار.

وفي مناجاة لبعضهم: (نريد منك أن تريدنا ولا تريد معنا، ونختار لك أن تختارنا ولا تختار معنا، ونرضى لك أن ترضانا ولا نرضى لك أن ترضى سوانا).

- فهل بعد أن آمنوا بالله فلم ينازعوه.
- وهل بعد أن وجدوه ولم يدبروا معه.
- وهل بعد أن رضوا به فما شكوا ما أنزل إليهم إلى غيره.
- وهل بعد أن اختاروه ولم يختاروا معه.
- وهل بعد أن امتثلوا أمره واستسلموا لقهره.
- وهل بعد أن عرفوه وفوضوا أمرهم إليه.
- وهل بعد أن علموا بالله فتوكلوا عليه.
- وهل بعد كل ذلك يوجد ألم البلاء؟!!

بل وداعًا لألم البلاء.

٦- العلم النافع

علم القلوب:

العلم النافع هو علم القلوب، وأصله في تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل، ومعنى تصفية القلوب: تحليها بصفات الإيمان واليقين والطمأنينة والمراقبة والحلم والرأفة والكرم والإيثار وغير ذلك.

ويطلق عليه البعض (العلم بالله) وهو نور في القلب، ينبعث منه شعاع ينبسط في الصدر فيكسبه الزهد في الدنيا من جمال الإسلام وكمال الإيمان، وهنالك تختفي الغفلة من القلب وتحل محلها الخشية ومخافة الله وهيبته والحياء منه وهي أنوار الإحسان.

يقول الترمذي: (إن النور إذا أشرق في الصدر تصورت الأمور فيأتي حسنها وسيئها، ووقع بذلك ظل في الصدر فهو صورة الأمور فيأتي حسنها ويتجنب سيئها، فذلك هو العلم النافع من نور القلب، وخرجت تلك العلائم إلى الصدور وهي علامات الهدى، والعلم الذي قد تعلمه فذلك علم اللسان، إنما هو شيء قد استدعى للحفظ والشهوة غالبة عليه قد أذهبت بظلمتها ضوءه) ولذلك فغاية علم من آثر الدنيا إيثارها، يقول تعالى: **﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾** [النجم: ٢٩، ٣٠]، يقول ﷺ فيما أخرجه ابن شيبة والخطيب: (العلم علمان: فعلم في القلب فذلك هو العلم النافع، وعلم على اللسان: فذلك حجة الله على ابن آدم).

وأمارة العلم النافع دخول النور، يقول تعالى: **﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾** [الزمر: ٢٢]، ويقول النبي ﷺ: **«إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح».**

*** إنما العلم الخشية:**

من أقوالهم: (خير العلم ما كانت الخشية معه) لأنه مصحوب بمعرفة الله ودالٌّ على العبودية لله، ولذلك قيل: (فضل العلم لفضل من عُلم به) والله تعالى أجل معلوم، فالمعرفة به أفضل العلوم.

وحقيقة الخشية: (مهابة يصحبها تعظيم تفضي لحسن أدب ومراقبة) يقول في (لطائف المنن):

(فشاهد العلم الذي هو مطلوب لله تعالى وجود الخشية لله، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكثار، فما أبعد من هذا العلم علمه من أين يكون من ورثة الأنبياء).

ولذلك فحامل العلم إما له أجره وثوابه، وإلا فعليه آفته وعقابه، يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم: «**والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**» أي مهلكها، وأسباب ذلك في ثلاث:

الأول: الخشية تجعلك تحصل العلم المحقق وتبلغه في صحة وبأمانة.

الثاني: الخشية تحجزك عن المعصية وتدعوك إلى المحاسن.

الثالث: الخشية تجعلك تطلب الآخرة وتقصد وجه الله تعالى بمعرفته والعلم به.

وانتفاء هذه الثلاث معناه: الوقوع في المعصية والهوى والشهوة والعمل للدنيا، يقول الفضيل: (العالم طبيب الدين والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرئ غيره).

فالعلامة الكبرى للعلم النافع هي ما كانت محصلته خشية الله عز وجل، ولو انتفى ذلك فهم كما يقول أحدهم واصفا علماء عصره: (إنما هم معلمون يعني أنهم محترفون بحرفة العلم ثم يقول: (فهم صناع وليسوا بعلماء) فالخشية هي علامة العلماء لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

عقبة فتاكة وتجاوز حميد:

من أول ما يعترض علم القلوب عقبة تحركها عدم إقبال الناس على الداعية العالم أو توجههم بالذم والأذى له، وقد يقع البعض فريسة ذلك فيتركون علم القلوب، ولكن الأحرى بهم وقد امتلكوا هذا العلم النافع أن يثبتوا ويعلموا أن الأذى والإعراض أمر طبيعي في حياة الأنبياء، فلا يألمون، بل الواجب عليهم أن يفعلوا فعل الأنبياء، في الفرار إلى الله: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الذاريات: ٥٠].

ولقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

ومعنى ذلك أن يرجع السالكون إلى ربهم بالتوبة والإنابة والاستغفار في الحالتين عند إعراض الناس عن دعوتهم أو امتداد الأيدي بالأذى والظلم والبطش، والسالك البصير عليه أن يفهم عدة دقائق نبه إليها علماء القلوب:

- ألسنة الخلق أقلام الحق، وأقلامه مسلطون عليك بما وقع من الذنب، فأول ما يفعل صاحب العلم أن يفتش في نفسه ويبحث عن عيبه ويتذكر ذنبه.

- التنبيه في ذلك لستر الحق تعالى إذ يجري عليك ما لا تعلمه من نفسك، فلا يقف السالك مع صورة الابتلاء أو الإيذاء أو الإعراض بل ينظر إلى ما يدور عليه ويقول بلسان حاله: (أنت تعلم حالي وكفى بك وكيلا كفيلا).

- لا معاملة مع الإعراض أو الإيذاء أنفع لصاحبها وأدفع لضيقها من العبودية والتضرع لأن ذلك هو المقصود بابتلائك، يقول الحسن:

(لا تنشر عملك ليصدقك الناس وانشر عملك ليصدقك الله).

وحكمة الإعراض أو الأذى من الناس، لكي لا يسكن الداعية إلى الناس، ولكي يبقى معلق القلب بالخالق، وفي الحكمة: (أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء)، أي بما يجره لك من ذلك الشيء فترجع إليه في كل شيء، تارة

باللجوء إليه في دفع البلوى، وتارة بالفرار منه إلى الله تعالى، وسبب الانزعاج بالناس عمومًا لا يخرج عن ثلاث: ففي إقبالهم فتنة، وفي إدبارهم أذى، وفي معايشهم أهوال وأهوال من كلف ومجاملات.

وفي شروحهم لهذا المعنى الدقيق قولهم:

(إذا سلط الله عليك خلقه ليختبرك فأدبروا عنك أو اشتغلوا بِذَمِّك وَشَتْمِكَ ثم توجعت من ذلك فارجع إلى علم الله فيك واطلاعه عليك إذ لا يخفى عليه شيء من أمرك، وهنالك يستوي المدح والذم بل ربما آثرت إدبارهم إذ فيه راحتك وتفريغ قلبك مع ربك، فإن لم تقنع بعلم الله وتأسفت على إدبارهم وتأملت من أذاهم فمصيبتك بضعف إيمانك وذهاب يقينك أشد من مصيبة ذم الناس وإدبارهم عنك لأنك تسقط بذلك من عين الله تعالى)، فأهم شيء أن تكن صافيًا مع ربك:

إذا صفيتُ مع ربي العبد ما منه ضَرُورَا

قال إبراهيم التيمي لبعض أصحابه: ما يقول الناس فيَّ؟ قال: يقولون: إنك مُرَاءٍ، قال: الآن طاب العيش، قال بشر الحافي حين بلغه كلام التيمي: اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره.

ومن أعظم المعاني أنه كلما قوي على الداعية الأذى دل على علو مقامه عند المولى، حتى لا يركن إلى شيء فقد وصل إلى تحقيق المحبة، وقد أبت المحبة أن تشهد غير محبوبها، وثمرة ذلك أن يتطهر من البقايا، تكمل فيه المزايا ولذلك قيل: (من آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك وجود امتنانه) ومن أجل ذلك يقول ﷺ: «**من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له**»، كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق، وهذه سنة الله في أصفيائه وأحبائه لقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم** مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

يقول بعضهم:

عداتي لهم فضل عليَّ ومنة فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

فهم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فارتكبت المعاليا

ولنا في حياة النبي ﷺ خير أسوة، فما رأى من قريش إلا الشدة والإعراض والإيذاء، ثم انتقل إلى المدينة فلم تكن له راحة بين جهاد وتربية وتعليم ومعاناة أحبار يهود حتى لقي ربه، وكذلك الأصحاب الكرام، وكان درس الأجيال في فقه السنة الماضية: إذا أراد الله ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده فيكون ذلك سببًا لظهوره وإيضاحه، ولذلك سلط الله على كل نبي عدوًا من المجرمين وكذلك على أحبابه وأهل الحق في كل زمان وأنشدوا:

إذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

بالعلم يكون الوصول:

ألفاظ السلوك والسير والانقطاع والوقوف والرحلة والرجوع.. كل ذلك كناية عن مجاهدة النفس وقطع العوائق، وكذلك ألفاظ الوصول والسكون والطمأنينة والوصال كناية عما أدركته الروح من عظم الحق وجلاله.

ومعنى الوصول إلى الله باتفاق علماء هذا الفن الوصول إلى العلم بالله: (علمك بوجوده وشعورك بعدمك والغيبة عن نفسك وعن كل ما سواه).

(يا طالب الوصل جد بالنفس ملتفتا عنها).

والعلم بالله المقصود به وصول القلب للعلم بجلال الله وعظمته بمعنى فهم القلب للحقيقة وظهور معناها مترجمًا في عمل الجوارح، وفق معيار واحد وهو: (لا يوصل إلى الله إلا بالله)، وكما قيل: اقرأ الكون باسم الله تصل إلى الله، حيث يترقى الإنسان من حال إلى حال أرقى منه.

وهل إذا وصل العبد إلى ربه انتهى مسيره؟ بالطبع لا... فالسير شيء متجدد،

والسير يعني قطع أشواط أو منازل في ميدان نفسه، وهكذا إلى أن يلقي ربـه، وعلامـة الوصول: (أن تعبد الله كأنك تراه).

ولذلك فلا غرابة أن يكون في إشراق دائم مع ربه:

ليلـــي بوجهـــك مشـــرق وظلامـــه في النــــاس ســـار

النـــاس في ســـدف الظـــلام ونحـــن في ضـــوء النهـــار

أي ليل وجودي مع ربي صار مضيئا وظلام ليل من ليس مع ربه سـار في أكثـر الناس.

أما من يتصور أن الوصول يكون حسيًا فجل ربنا وترفع وتعالى عن ذلـك علـوًا كبيرًا، فلا مسافة حسية ولا معنوية لان الحسية تقضـي بالجهـة ولأن المعنويـة تقضـي بالمماثلة والرب تعالى منزه عنهما، ولا حواجز حسية ولا معنوية أيضا لانتفاء النسـب والمشابهة في وصفه تعالى، يقول الشيخ ابن عباد: هما محلان (محالان) لعـدم المثليـة في الأول وعدم الضدية في الثاني.

وفي الحقيقة لا مسافة بيننا وبين الله إلا النفس وعلائق القلب، فقطـع الشـهوات والعلائق والعوائق هو السير إلى الله، فحين تحارب النفس يزال حجاب وحـين يطهـر القلب يدخل فيه العلم والمعرفة، وهذا هو الوصـول، فـلا مسـافة ولا حـاجز، يقـول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيـدِ﴾ [ق: ١٦]، ومن لم يعرف ويفهم هذه الحكم فبستانه مزهر غير مثمر! كيف يكون ذلك؟

إن هذا الإنسان عظَّمه الله وكرَّمه وجعله نخبة الأكوان، ولـذلك خصـه بالخلافـة فحمل الأمانة ومتعه بالنعيم والنظر إلى وجهه الكريم، هذا الإنسان جسد وروح فهـو عالم بين عالمي الروحي والجسد، يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

هذا الإنسان جوهرة نفيسة مصونة في صدف نفيس، وهو هذا الكون بأسره وقد قالوا في عجائب الإنسان:

(إن الوجود كله منطو فيك فهو نسخة من العلم الأكبر).

ومن لم يصل إلى العلم بالله يظل مسجونًا بمحيطات جسمه فهو أسير جسده من أكل وشرب ونكاح وإقبال وإدبار، ومحصورًا في هيكل نفسه فهو أسير نفسه يطلب حظها ويتبع أغراضها.

وأصل هذا المعنى أن الإنسان مسجون مقيد في هذا الكون بقيود كثيرة وحريته بيده، وانطلاقه من هذا السجن أن يعيش مع الله تعالى... فهو في السجن جسد مع الكون، وفي حريته روح مع المكوِّن تعالى. ولذلك فحياته إما حياة سجين أو حياة حر.

أولاً: حياة السجين:

مقيدة في سجن الكون محصورة في نفسه محكوم عليه والأكوان عليه حاكمة، مظاهر ذلك في التالي:

- يحب الأكوان ويعشقها وهي تبغضه وتبعده عن ربه.
- يفتقر إلى الأكوان وهي غنية عنه.
- يميل إليها ويحرص عليها وهي تفر منه.
- يخاف منها ويهابها وهي تخوفه وترعبه.

ثانيًا: حياة الحر:

لا قيود مع الله وبهذا فهو الحاكم على الأكوان ومظاهر ذلك في التالي:

- الأكوان تحبه وتعشقه وهو مشغوف بحب خالقها.
- هي تفتقر إليه وهو غني عنها.
- هي تحرص عليه وهو زاهد فيها.

- هي تخاف منه وتهابه وهو في أمن.

فالجنة تشتاق إليه وهو غني عنها (اشتاقت الجنة إلى علي وصهيب وبلال) والنار تهابه وهو في غيبة عنها، وفي الحديث أنها تقول يوم القيامة: (جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي).

وبهذه الحرية يكون الإنسان خليفة الله في أرضه، الكون كله في قبضته وعند همته لأنه علق همته بالله فصيَّر الأشياء عند همته.

ولا يلزم ذلك من اتصافك بالبشرية من أكل وشرب ولباس ومسكن وزواج، يقول تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٢٠]، ويقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾ [الرعد: ٣٨]. وما وقع من الإنكار من الأقوام إلا لاعتقادهم أن الأوصاف البشرية تنافي ثبوت خصوصية النبوة والرسالة، ﴿**وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان: ٧]، فالهفوة موجودة في الإنسان العابد، والزلة والزلات ولكن لا يصر عليها ولابد من التطهير ولا يتنافى ذلك مع ما خصه الله به من منزلة.

يقول الشيخ ابن عجيبة: (وهذا أمر ذوقي لا أقلد فيه أحدًا؛ فقد صلينا كثيرًا وصمنا واعتزلنا كثيرًا وذكرنا كثيرًا وقرأنا القرآن كثيرًا، والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني، فأخرجونا من التعب إلى الراحة ومن التخليط إلى الصفا ومن الإنكار إلى المعرفة) وبهذا تمتد التربية في طريق السالكين حتى يكون الوصول الحقيقي إلى الله تعالى بالوصول إلى العلم به والمعرفة، وكما قيل: (لا يعوزك وجدان الدالين وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جد صدقا تجد مرشدا) يقول تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

* * *

٧- نعم الله تعالى

أصل النعم:

كل موجود في كون الله سواء كان في عالم الجماد أو الحيوان أو النبات أو الإنسان واقع تحت نعمتين عظيمتين من الله تعالى هما أصل النعم كلها: نعمة الإيجاد ثم نعمة الإمداد، فلولا الأولى ما كان موجودًا ولولا الثانية ما كانت حياته ونماؤه وتطوره.

وهاتان النعمتان في الإنسان أخص إذ هو المطلوب بشكرها والتحدث بذكرها: نعمة الإيجاد من العدم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ثم نعمة توالي الإمداد وتتابعه واتصاله سواء كان حسيًا أو معنويًا، يقول تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦]، والإنسان يرى نعم الله ببصيرته يقول تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ وكلها لا تخرج أن تكون تحت هاتين النعمتين ومن ثم فإنها لا تتناهى ولا تنتهي: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾.. ففي كل لحظة بل مع كل نفس هذا الإنسان مفتقر إلى ربه قلبًا وقالبًا، بل الجميع مفتقر إليه يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ [فاطر: ٤١]، فالكون كله قائم بأمر الله.

قد يشعر الإنسان وهو في عافية وحال حسن أنه ليس مفتقرًا إلى ربه، ولا يتفطن إلى ذلك إلا السالكون العارفون بأن افتقارهم إلى الله ذاتي، ولا يرفع هذا الافتقار عارض من صحة أو عافية... فإما أن يكون الافتقار ظاهرًا جليًا عندما تسوء الأحوال، أو خفيًا عندما تحسن الأحوال.

وبرجوع الإنسان إلى أصله وهو الانكسار والافتقار والذل إلى الله تعالى يكون أولاً حرًا ثم يفتح له آفاق الخيرات ثانيًا ثم تتوالى عليه النعم التي يمده الله بها ثالثًا، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ويقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهذا المعنى الدقيق قد يغيب عن الكثيرين، فالعجب ممن يرى الفتح قادمًا عليه فيسعى جاهدًا إلى سد الباب في وجهه، كمن يرى أن الفاقة قادمة عليه فيبادر إلى الأسباب التي يقطعها عنه قبل وصولها، وهي قادمة قادمة، ولذلك فالإنسان على كل أحواله غارق في نعم الله تعالى، وتأمل وفق هذا المعنى هذه الآيات: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ويقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

ومما جرت عليه السنة الإلهية:

(أن الفرج على قدر الضيق).

فبقدر الفقر يكون الغنى، وبقدر الذل يكون العز، وبقدر العسر يكون اليسر، وأول الطريق في التعامل مع نعم الله أن نتعرف عليها...

معرفة النعم:

قاتل الله الغفلة تحجب المعرفة وصاحبها بمنأى عن كل خير إلا أن الله تعالى قد يسلط على عبده الانهماك في الشهوات ويحبسه في سجن الغفلات ثم يمن عليه بالتوبة واليقظة من الغفلة... فما سر ذلك؟ وما حكمته؟... إنما ذلك ليعرف قدر منة الله ونعمته، وربما كانت هذه حكمة ورود الغفلة والشهوة على العبد، ثم ينقذه الله تعالى منها ليعلم قدر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه.

وأنت أيها السالك قد تحيط بك الظلم من كل جانب، وتسجن في سجون ظلماتها، وتغرق في بحور ويلاتها، ثم في لحظة واحدة تتبدل الأحوال وكم عاينت أرواحنا هذه اللحظات، فإذا بالله ينقذك مما أنت فيه، وإذا بالظلمات ضياءات، وبالسجون حريات، فتعرف قدر ما منَّ الله به عليك، فتزداد حبًا وشكرًا وتعرف حق نعم الله وتصونها، وبذلك يتحقق قول القائل:

(القدر على قدر التعب، والمحبة بعد القطيعة أحلى من المحبة بلا قطيعة، ونيل

الشيء بعد الطلب ألذ من المساق بغير التعب).

وعلى باب القلوب جيفة الدنيا وكلب الشيطان، من التفت إليهما ذهب نوره، إنما دخول بيت القلب بالنور، ومن أعرض عنهما وزهد فيهما دخل البيت واستقر وأمن، وفن الإعراض للسالك عنهما خمس:

١- الثقة بأن رزقه مضمون فخزائنه لا تنفد أبدا.

٢- لا خوف من سلطان فسلطان الله دائم لا يزول أبدا.

٣- لا ترَ عيب غيرك ما دام فيك عيب والعبد لا يخلو من العيب أبدا.

٤- لا تدع محاربة الشيطان ما دام فيك روح لأنه لا يدع محاربتك أبدا.

٥- لا تأمن مكر الله حتى تر نفسك في الجنة ففي الجنة أصاب ابن آدم ما أصاب فلا تأمن مكر الله أبدًا.

أما الذين يعيشون في النعم والعافية ولا ينتبهون لقيمة نعم الله تعالى ولا يعظمونها.. فإنها تسلب منهم وتحيط بهم البلاءات والمصاعب وهنالك فقط يعرفون قدر النعمة، كالذي يكون في بلاء بقلبه يعيش في الحضور والتأمل والتفكر والتعبد، فإذا أصاب القلب غفلة لانفكاك البلاء عنه عرف هنالك قدر ما كان عليه، فإذا داوم على اللجأ إلى ربه والاضطرار المستمر، رد الله إليه ما سلب منه، ونعوذ بالله تعالى من سلب بعد عطاء. ومن الوسائل المعينة في معرفة النعم:

(التفكر فيها والتفكر في حالة نفسك قبل وجودها)

فإن كنت ذاكرًا نظرت إلى وقت غفلتك

وإن كنت عالمًا نظرت إلى وقت جهلك

وإن كنت طائعًا نظرت إلى وقت معصيتك

وإن كنت صحيحًا نظرت إلى وقت مرضك.

فلا شك أنك بهذا تعرف قدر النعمة فتشكرها فتدوم عليك حتى لا تسلب منك وأنت لا تشعر.

وكما قيل: (نعم الله مجهولة وتعرف إذا فقدت، وإنما يعرف قدر الماء من ابتلى بعطش البادية لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية).

وهكذا تأتي معرفة الحكمة مما أنت فيه من نعمة وسيلة للخروج من السقوط، وتذكر نعمة الله والقيام بشكرها طريق للنهوض، فإذا كان الشكر واجبًا حال السقوط والابتلاءات والمصائب فمن باب أولى أن يكون أوجب في حال العطاء والمن الرباني.

وهكذا تأتي الظلمات وحالات الضيق واستحكام الحلقات تفتح بابًا للتعرف على نعم الله تعالى وتعظيمها، ويسترجع الإنسان حكمتها من طرد إذا تعلق بها عن ربه، أو من تأديب وتربية إذا واجهها بانكسار وذلة وتضرع وصدق توجه إلى ربه، أو من تقريب إلى ربه بمداومته واستمراره على شكرها.. فكيف يكون شكر النعم؟

شكر النعم:

قالوا في شكر النعم: شكر الله تعالى باللسان هو الاعتراف بالنعمة على وجه الخضوع، وشكر الله باليد: هو الإنصاف بالعبودية على وجه الإخلاص، وشكر الله بالقلب: هو شاهد المنة وحفظ الحرمة، يفسر هذه الأقوال الجنيد في قوله: (ألا ترى نفسك أهلاً للنعمة وألا تعصي الله بنعمته)، فإن قال قائل: كيف أقوم بشكر النعم وهي لا تحصى؟ فليعلم هذا السائل أن القيام بشكر النعم هو الاعتراف بها للمنعم وحده.

ومعنى ذلك أن الإنسان مغموس في النعم حسية ومعنوية؛ نعمة البصر والسمع والشم والذوق والكلام والأهل والأولاد ثم نعمة الهداية إلى الإسلام ونعمة الإيمان والطاعة والعلم والإخوان. فمجرد الاعتراف بهذه النعم ومعرفتها والإقرار بها أنها من الله بلا واسطة فهذا هو شكرها.

إن عبارة ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تكفي في شكر اللسان، فالجنة وهي من أعظم النعم شكر أهلها ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وفي وصية الله لداود عليه السلام: إذا عرفت أن النعم كلها مني فقد شكرتني وقد رضيت منك بذلك.

وقد كتب بعض عُمَّال عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- إليه: (إني بأرض ولقد كثرت فيها النعم، ولقد أشفقت على قلبي ضعف الشكر) فكتب إليه عمر: (إني كنت أراك أعلم بالله فيما أراك، إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك ففي كتاب الله المنزل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤]، وأي نعمة أعظم من دخول الجنة؟!

والذي يعطل القلب عن قيامه بشكر نعم الله أو الإحساس بها أصلا (تمكن حلاوة الهوى في القلب) فأطباء القلوب قد أعضلهم وأعجزهم وحبسهم عن علاجه وأطلقوا عليه لذلك (الداء العضال)... وكما قيل: (نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن) يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ﴾ أي الأسباب لا تفيد في هدايته بشيء.

ولذلك كما يقولون: آخر العلاج الكي.. خاصة عندما يصعب العلاج ويتمكن الداء، فكان دليلهم إلى العلاج: (خوف مزعج أو شوق مقلق) يزعجك عن شهوتك ويقلقك عن حظك حتى يتحقق فيهم قول الله تعالى:

﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تمام النعمة:

قد يظن البعض أن الإكثار من الدنيا وإقبالها عليهم علامة فضل عند الله تعالى، وهذا ما ظنه بعض القوم والذين رأوا قارون في زينته، يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

وسر قول أهل البصيرة والعلم ذلك أن الكفاية عندهم من أعظم النعم وأتمها، فالنقصان عنها متعب ومقلق ومؤلم، والزيادة عليها قد تطغى، والسلامة في الكفاية، وكم من الشواهد في حياة من عاشوا في زيادة على الكفاية لسان حالهم يقول: (الزيادة على الكفاية تفرح ابتداء وتحزن انتهاء إذا ما حدث حادث لها)، هذا الحادث قد يكون بموت حتمي أو فقد لها عارض، فكم كان حزن قارون انتهاء ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾. فمن مصائب كثرة الدنيا أحزانها وبقدر ما يقل الفرح بها يقل الحزن عليها، وبقدر ما يكثر الفرح يكثر ما تحزن عليه لأن الحزن بالفقدان على قدر الفرح بالوجدان.

ولذلك يقول الشيخ زروق: (يرزقك الكفاية فلا يشوشك بالفقد ويمنعك الزيادة لئلا يشغلك بالوُجد، بل تكون سالمًا من إقبالها وسالمًا من إدبارها).

فمن تمام نعمة الله على عبده أن يوجه همته إليه ويفرغ قلبه من التعلق بغيره كائنا ما كان، فيرزقه ما يكفيه عن التعلق بغيره، ويكفيه كل ما يطغيه ويشغله عن ربه.

ولذلك فإن رزقك الله ما يكفيك لقيام بشريتك من أكل وشرب ومسكن، ولقيام روحانيتك علمًا وعملاً وذوقًا ومعرفة، ومنعك ما يطغيك وشغلك عن ربك فقد أتم نعمته عليك فاشكره على ما أسدى إليك وادفع ما يشغل قلبك عن النهوض إليه، يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وفي حياة السالكين الذين عاشوا في أتم نعمة وتلذذوا بها ثلاث متعات:

الأولى: الراحة من التعب جلبًا ودفعًا.

الثانية: التفرغ للعبادة قلبًا وقالبًا.

الثالثة: تحصيل الشكر والصبر في حالة واحدة.

ولذلك قيل: (إنه أفضل من الغنى مع الشكر ومن الفقر مع الصبر) وهذا سر

سؤال النبي ﷺ إياه لنفسه ولعياله في قوله: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) وقوله ﷺ: «خير الذكر الخفي في القلب، وخير الرزق ما يكفي»، وقوله ﷺ: «ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس».

وكذا إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يقول المفسرون: اختار لهم محل قلة الدنيا ليقيموا الصلاة، وطلب لهم الأنس والثمرات لتحصيل الشكر على الكفاية.

قيل لبعضهم: لم لا تغتم؟ قال: لأني لا أقتني ما يغمني وأنشدوا:

ومن سره ألا يرى ما يسوؤه ... فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا

فإن صلاح المرء يرجع كله ... فسادًا إذا الإنسان جاز به الحدا

إن تربية النفس وفق هذه المعاني يجعلها في عزة وإباء لا تحزن لفقد ولا تفرح بزيادة، وتعيش في سرور دائم، وهذا هو سر قولهم: (الكفاية نعمة والزيادة نقمة) لأن النفوس مجبولة على حب العطاء وكراهية الفقد، فإذا أعطاها فَرِحَتْ وإذا أزال عنها حَزِنَتْ، فمن أراد دوام الفرح فلا يأخذ فوق كفايته ما يحزن على فقده. فإذا أردت أن يدوم سرورك فلا تملك شيئًا تحزن على فقده، لأن حزنك على فقده دليل محبتك له، فإذا اقتضت على الضرورة والحاجة من مال أو جاه أوعز أو غير ذلك فإنك لا تجد ما تفقده حتى تحزن عليه، وهذا من تمام نعمة الله عليك.

وأخيرًا: كيف تحافظ على نعم الله؟

وبعد أيها السالكون إن إحسان الله تعالى الذي لا يتوقف يوجب عليكم شكر من أسدى إليكم من لطائف كرمه وامتنانه، فقد قال الحكماء: من أُعطى ولم يشكر سُلب منها ولم يشعر، فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها، ومن كفرها فقد تعرض لزوالها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، أي: إن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر. وقيل: الشكر

فرح القلب بالمنعم لأهل نعمته.

وأجل النعم التي يتأكد عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة، وشكرها هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى بلا واسطة ولا حول ولا قوة، يقول تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ثم قال: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وأمام نعم الله تعالى تحذير من الاستدراج لقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، والاستدراج هو كمون المحنة في عيون المنة. يقول المفسرون: أي نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لا يشعرون فخف من دوام إحسان الحق إليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق مع دوام إساءتك معه بالغفلة والتقصير وعدم شكرك أن يكون ذلك استدراجًا منه تعالى، يقول ابن عطاء في تفسير الآية السابقة: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة، ثم قال الحق تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٥]، أي نمدهم بالنعم حتى نأخذهم بغتة، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وتتويجا للمحافظة على نعم الله وضع ابن عطاء في لطائف المنن منهج الشكر فقال:

(والشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان وشكر الأركان وشكر الجنان.

فشكر اللسان: التحدث بنعم الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقول النبي ﷺ: «التحدث بالنعم شكر».

وشكر الأركان: العمل بالطاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا: ١٣]، وقول النبي ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكورا».

وشكر الجنان: بالاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣].

٨- نعيم الله تعالى

السالكون متى يشعرون بالنعيم؟ وما نعيم المؤمن في الدنيا؟ وما نعيم المؤمن في الآخرة؟ ومتى يشعرون بالعذاب؟ إجابة هذه الأسئلة هي علامات للسالكين ليتعرفوا على موقعهم في السير إلى الله، ليصححوا السير أو ينهضوا في السير، وقبل الإجابة نحاول معًا أن نتعرف على معنى النعيم الذي يشعر به المؤمن.

نعيم المؤمن:

نعيم المؤمن: المتعة واللذة وما يصحبه من فرح وسرور بالملتذ به، وله مظاهر يشعر بها المؤمن في فوائده مما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين في الدارين، ولا كمال له، ولا صحة إلا بوجود الهناء، هو شهود منته تعالى وشكره على نعمته، وقيل: هي بالنظر إلى وجهه تعالى في الدنيا بالبصيرة، وفي الآخرة بالأبصار. وقد وضعوا قواعد للنعيم نجملها في التالي:

١- كل نعمة لا يصحبها شهود منته فيها:

- يفتن بها صاحبها.
- يخشى من زوالها.
- يشتغل بغيرها.

فقد فتن قارون بنعمة المال حينما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ثم زالت عنه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ ثم تفتح له أبواب من التطلعات ولكنها إلى فناء لأن الأساس مفقود.

٢- كل نعمة لا يصحبها الشكر فهي:

- إلى الزوال أقرب.
- العقوبة فيها أظهر.

وقد سبق الحديث عن ذلك المعنى في (نعم الله تعالى).

- كل نعيم غاب عنه الحبيب فأي عبرة به؟ أم أي فائدة منه؟

- لولا تجليه تعالى بإحسانه ما صح نعيم لمنعم أبدا.

وتفصيل ذلك في عبارة واحدة: (نعيم المؤمن وعذابه هو نعيم الروح وعذابها برؤية ربها أو احتجابها عن ربها).

ولذلك فنعيمها: روح الوصال وريحان الجمال.

وعذابها: احتجابها عن رؤية الجمال وبعدها عن ربها.

نعيم المؤمن في الدنيا :

هل نعيم المؤمن في الدنيا بعد هذا المعنى السابق هو نعيم أبدان وأجساد؟ من صحة وجمال وقوة وجاه وكل ما يوافق الطبع ويلائمه؟ أما ما خالف ذلك من فقد أو وجع أو ألم أو فتنة فهو عذاب...؟! قالوا: إن هذا النعيم يطلق عليه: (نعيم البهائم) لماذا؟ لسبب واحد إذ لا حَظَّ له من لذة القرب أو مرارة البعد.

وعلى هذا فنعيم المؤمن في الدنيا في القرب ولذته وحلاوته، وكثيرًا من الذين تعرضوا لأذى العذاب البدني غاب عنهم ألمه حينما أحضروا الله في قلوبهم وعندما غاب عن قلوبهم شعروا بالألم وصرخوا بالوجع.

ففي حضور الله استعذبوا العذاب عندما علموا بجلاله وكماله فأنساهم ما فيه من تعذيب، وإنما يكون العذاب الحقيقي لوجود الحجاب، يقول في التنوير: (ولو أن الحق سبحانه تجلى لأهل النار بجماله وكماله لغيبهم ذلك عن إدراك العذاب كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة ما طاب لهم النعيم، فالعذاب إنما هو وجود الحجاب).

ولذلك قالوا: (استلذ العارفون الفاقات، وأنواع التعرفات، وضروب البليات لما ذاقوا في ذلك من إقبال محبوبهم، ورضا مشهودهم). وكان الصحابة يقولون: ألا حبذا المكروهات الثلاثة: الفقر والمرض والموت (أي ما أحبهم وأعزهم لي).

وهذا بلال تصرخ ابنته عند احتضاره: واكرباه، وهو يقول: واطرباه، لا كرب على أبيك بعد اليوم، غدا ألقى الأحبة؛ محمدًا وصحبه.

وهذا عامر بن فهيرة عندما نفذ الرمح من ظهره إلى صدره يقول: فزت ورب الكعبة.

وقد قيل: (لولا الحجاب ما صح العذاب، ولا يتم النعيم إلا برؤية المنعم) وفي ذلك ثلاث فوائد يتذوقها السالكون العاملون:

١- الراحة من الخلق ومن التعلق بهم أو الالتفات إليهم أو النظر إلى منتهم.

٢- سرور القلب وفرحه بالله وذلك مفتاح المعرفة.

٣- القيام بواجب الشكر بمعرفة أنه المنعم سبحانه وتعالى.

متى يشعر المؤمن بالنعيم أو العذاب؟

كان نعيمهم في ذكر ربهم وشهود نوره واقترابه حتى صار لهم غذاء لا بقاء لهم إلا به، ولا غنى لهم عنه، ولو فقدوه لفارقت أرواحهم أجسادهم، لقد سألت أعمارًا مختلفة من السالكين في لحظات صفائهم فتنوعت إجاباتهم بين: (الرضا والتسليم والسرور والأنس والفرح وخفة الروح لأعمال الخير وراحة البال ومشاهدة الله وقربه وذكره الدائم والزوجة الصالحة والجماعة المؤمنة) وكلها تخرج من مشكاة واحدة، فهم يتفقون على معنى واحد وإن تحدثوا عن مظاهره أو وسائله أو علاماته ألا هو القرب من الله تعالى؟

ولذلك فنعيم بهذا المعنى لا ينقطع لأن قرب الله لا ينقطع، فمن بعدت نفسه أحس بالعذاب ولزمه الهموم والأحران والنصب.

وبذلك يستطيع المؤمن أن يشعر بذلك بالنظر إلى قلبه وإلى ما فيه سن هموم وأحزان.. فالهم لما يتوقع مستقبلا والحزن لما فات وحدث... أما من عاين هذه الحقيقة وعاش في هذا المعنى فلا يبقى له هم ولا غم أبدا.

يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن

﴿قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢].

يقول الشبلي: (من عرف الله لا يكون عليه غم أبدا).

تلذ لي الآلام إذا كنت مسقمي وإن تختبرني فهو عندي صنائع

فمن كان نظره إلى محبوبه ومشاهدة نوره وجماله لم يبق له هم ولا غم لأنه قد حصلت له المعية التي توجب النصر والظفر بكل ما يريد، كما في قول النبي ﷺ لأبي بكر: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ومن قواعد ذلك:

- من كان قريبًا من الحبيب فكيف يحس بفراق شيء أو فواته؟
- نظر الحبيب يغيب عن كل بعيد وقريب.
- كل ما ينزل من عند الحبيب فهو حبيب، فلا يلحقه شيء مكروه عنده حتى يهتم به، ولا يفوته محبوب سوى محبوبه، حتى يحزن عليه، ففي محبوبه اجتمعت المحاسن.
- المحب الحقيقي يستغرق في محبة مولاه حتى لم يعد له مطلب، فهو يبذل كل شيء دون أن يكون له مراد، وهذا لا ينفي الطلب والدعاء والاعتقاد بأن الله هو المعطي (فإن المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له).

يقول ابن عباد:

(حظك من القرب إنما هو مشاهدتك لقربه).

القرب الحقيقي قرب الله منك:

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

ويقول تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

والقرب من الله الشعور بقربه تعالى، فهذا مقياس لشعور المؤمن بنعـيم الـدنيا أو عذابها وقد تمر على السالكين انتكاسات في حياتهم فمتى وجدت فعلـى السـالك أن يبقى في هذا الجو وأن يبذل جهدًا في الاستمرار في هذا الشعور.

نعيم المؤمن في الآخرة:

يقول النبي ﷺ فيما رواه البخـاري: «**وما بين الناس وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**».

فأهل الجنان أحسوا بالرضا والرضوان فهم عـالمون بقـرب الحـق مـنهم ورضـاه عنهم لكنهم متفاوتون في العلم.

وأما من كان محجوبًا في الدنيا فهو محجوب في الآخرة لقوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**﴾ [الإسراء: ٧٢].

ولعل ذلك في قول بعض المفسرين: إن نعيم الجنة يتـأثر بحجـاب الـدنيا فـالنعيم التام في الآخرة لمن شهد قربه ورضوانه في الـدنيا، فلـو زال عـنهم القـرب أو انقطـع عنهم الرضا لضاق عليهم فسيح الجنة.

فإن كان نعيم المؤمن في الدنيا إزالة الحجـب بـالقرب مـن الله تعـالى، فنعيمـه في الآخرة رؤية ومشاهدة، وبذلك يتم النعيم، ولكن كيف يتم ذلك النعيم؟

لضعف الإنسان في هذه الحياة، أمره الله بالنظر إلى مخلوقاته ليرى الله تعالى، يـرى ببصيرته المعنى ويرى القدرة ويرى النور من خلال تأمله وتفكره، يقول تعالى:

﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ [المؤمنون: ١١٠].

ويقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِـبِينَ مَـا خَلَقْنَاهُمَـا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

يقـول في لطـائف المـنن: (فمـا نصـبت الكائنـات لتراهـا ولكـن لـترى فيهـا مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها، تراهـا مـن حيـث ظهـوره فيهـا

ولا تراها من حيث كونيتها).

فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السماوات والأرض وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات، أتقف مع القشر وتحجب عن اللب؟، ولأجل هذا السر قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس: ١٠١]، أي ما فيها من عظمته ومعاني كمال إرادته وقدرته وسائر صفاته، ولم يقل: «انظروا السماوات»، لأن ذلك يدلك فقط على الأجرام ثم يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالإنسان يرى الله تعالى في الآفاق والأنفس ويقول هنالك: (الله الله). بالنظر إلى الحسي يرى المعنى وبالتأمل في الحكمة يرى القدرة. أما في الآخرة يتجلى لعباده بوسائط نورانية ظاهرها نور وباطنها نور، ظاهرها معنى وباطنها حس، ظاهرها قدرة وباطنها حكمة. ومعنى ذلك رأى ببصيرته نور الله ثم خرق من بصيرته إلى بصره فرأى بصره ببصيرته: وظن أنه رآه ببصره.

سئل بعضهم: كيف يُرَى الله في الآخرة؟ قال: هي رؤية وجود لا أنه في مكان محدود.

وقال بعضهم: يُرى نفسه لمخلوقاته وليس في جهة من نفسه ولا من مخلوقاته.

وقال بعضهم: معرفتهم إياه بلا كيف.

فالوصول الحقيقي إلى الله ليس بمسافات ومساحات وإنما بمعرفته تعالى عن طريق مخلوقاته وذلك حينما علم أنك أيها السالك لا تصبر عنه لما أنت عليه من الاحتياج وما هو عليه من الكمال فأراك ما برز منه بالنظر إلى مخلوقاته، وقد ضربوا قديمًا مثلاً للتقريب بالثلجة ظاهرها جامد وكثيف وباطنها مائع، فإذا ذابت رجعت إلى أصلها ماء، كذلك هذه المخلوقات كلها إذا تلاشت ذواتها الكثيفة وتلاشت رجعت لأصلها... فمن جهل حقيقتها يقف عند ظاهرها فقط، أما من ينفذ إلى حقيقتها يعرف أصلها وفروعها... وكذلك الأكوان ظاهرها غرة لمن وقف معها، وباطنها عبرة لمن نفذ إلى أصلها ومن معانيهم في ذلك أنهم:

(يسمون الأكوان بالأواني أدلة للمعاني).

فمن وقف مع الأواني حجب عن المعاني، يقول الششتري في ذلك:

(لا تنظر إلى الأواني

وخض بحر المعاني

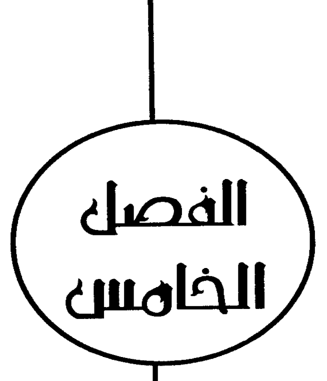
علك أن تراني).

أما حديثا فقد شبه العلماء ذلك بالإلكترون وهو أصغر جزء من المادة فإنك تجد دورانه بالله وقيامه بالله وإمداده من الله، ولو كشف للإنسان أن يرى القدرة الإلهية فماذا يرى؟ اضمحل وجود الإلكترون فالله يرينا آثار قدرته ولم يرنا قدرته.

قد يرى البعض أن هذا كلام لا يفهمه إلا خاصة السالكين وما كان لينشر هكذا، ونحن نتساءل: إلى متى ستظل هذه المعاني بعيدة عن أذهاننا وحبيسة لبعض العقول فقط، وما أتاح الله لنا النظر في كونه والتأمل إلا لنرى المعاني وندرك الحقائق، وهو في مقدورنا، واسمع لقوله تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وتأمل بعد قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يرقيهم إلى الشهود بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وعلى هذا فحاول أخي الحبيب أن تعيش في هذا الجو وأن ترقي بروحك إلى هذا المستوى، وأن تصحب دومًا أهل المعاني، فيكون هناك التدارس العميق، والتذاكر الواعي، واجتهد وكابد حتى ترى الله في الآفاق والأنفس، ونسأل الله تعالى لذة النظر إلى وجهه الكريم فهو تمام النعيم في الآخرة.. اللهم آمين.

* * *



عقبات على الطريق

١- عوائق تمنع السير.

٢- الهوى.

٣- الدنيا.

٤- الشيطان.

٥- النفس.

٦- الطمع.



الفصل الخامس: عقبات على الطريق

١- عوائق تمنع السير

القلب المشترك:

يقول تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

ولذلك فقلب الإنسان كالمرآة ينطبع فيها كل ما يقابلها، فمن عناية الله بعبده أن لا يعلق قلبه بمحبة شيء في الوجود، غير الله تعالى، وإلا لم تجد أنوار الإيمان والإحسان مكانًا فيه، والذين يجرون ويهرولون وراء الماديات في هذه الحياة إنما تراكمت في قلوبهم هذه الماديات فانطمس النور وامتلكت على حس وتفكير صاحبها.

ثم إن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، فإما أن يستقبل النور فيشرق، وإما الماديات فيحرم من الإشراق لأن الضدين لا يجتمعان أبدًا، وعلى هذه القاعدة فمن طَهَّر قلبه من الخلق خلص إلى الحق تعالى.

وكما أن العمل المشترك لا يحبه الله تعالى، لأن فيه الرياء، كذلك القلب المشترك الذي فيه حب غير الله تعالى لا يحبه الله.

لي حبيب إنما هو غيور

يظل في القلب كطير حذور

إذا رأى شيئًا امتنع أن يزور

وهذا تفسير لارتداد الأنوار على القلب المشترك وارتحالها من حيث جاءت، والعلاج بالطبع أن يجتهد السالك في طهارة قلبه، وملئه بحب الله تعالى، فتنزل فيه المعارف والعلوم، أما إذا تعلق بغير الله، يحدث له إحدى ثلاث علامات:

- إقبال الله على العبد يضعف.

- وصول الأنوار إلى القلب يضعف.
- انعدام العطاء الرباني للقلب.

وقد أطلقوا على هذا القلب: (القلب الملوث)، فعلى السالك أن يحذر من ذلك، وأن يصفو قلبه دومًا، فبقدر التصفية تكون الترقية، إن كان هناك بطء في التحقيق، فلا يستبطئ من ربه النوال لأنه جواد كريم حليم رحيم، ولكن ينظر إلى قلبه وأين هو من الإقبال على مولاه، فمن أقوال الحكماء: (لا تطمع أن تصفو وبك عيب ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب).

قيود الشهوة:

عرفت القيود لترحيل المحبوسين من سجن لآخر مكبلين لمنعهم من الهروب، وإطلاق اسم الترحيل مجازًا لأنهم في الحقيقة لا يرحلون، فهم ما زالوا في محبسهم وسجنهم، فالرحيل مع التكبيل لا يجتمعان لأن الراحة تعني الانطلاق والحرية وقطع المسافات، والتكبيل يعني الحبس والتوقف والارتداد، وكذلك يكون القلب، حينما يميل إلى شيء من فانيات هذه الحياة ويتعلق به حتى ولو كان مباحًا شرعًا، فهو محبوس ومقيد به ومكبل في مساحة محدودة، فكيف بالله عليك أن يرحل إلى ربه وتشرق عليه الأنوار؟!.

هذا القلب المسكين لا يستطيع النهوض إلى ربه فقد قيدته الشهوات وقد تعلق بها، يشتغل بالالتفات إليها وهي التي تكبله عن السير، وقد يقول قائل: (لماذا لا تفتح نافذة الأمل فيدخل منها الضياء، قليل من الشهوة ويكون سير بإذن الله)، نقول لقائلنا: التجربة خير دليل، قد ينهض السالك ومعه الشهوة فهل يكون مثل من سارعوا في الطريق؟ وعلى تقدير الإسراع هل يأمن العثار معها لأُنس النفس بها؟ بالله عليك أيها الأخ الحبيب فلماذا ترك الصادقون لذتها؟ حتى قال بعضهم: إن شئتم أن نقسم لكم لن يصل إلى الله من في قلبه علقة..!!

وليس معنى ذلك الدعوة إلى اليأس أو القنوط، بل إننا نوجه كلامنا إلى السالكين الذين قطعوا أشواطًا في الطريق إلى الله، ومقصدنا للجميع مهما كان إقباله على الله

اللجوء إلى المولى تعالى وعدم القنوط، فسر الحكمة الربانية أن يدعوك للخروج من السقوط والتحرر من القيد وتذكر نعمته وشكره كطريق للنهوض.. واستمرار الرحلة إلى الله تعالى، وحينما نعرف موانع النهوض نتجنب العثار ومن إيثار الشيء أو الميل إليه أو انشغال النفس بأي عارض، فإن الخذلان لمن أعطاه الله هذا الفهم من السالكين ثم لم يرحل إلى الله بالسير الجاد، وهذا هو غرضنا.

والقضية أن السائر لا يريد التوقف، والشهوة لها لذتها، والسائر يريد شروق الأنوار على قلبه، والشهوة تطمس هذه الإشراقات، فلماذا الحيرة أمام الضوء الباهر؟ لابد من الفرار من وطن العوائق والانتقال إلى وطن الروح والتعلق بالله، فالذي تطلبه أمامك، ولذلك فابتغاء هذه الغاية يجعل السالك ينشد دومًا الانتقال كالماء إذ طال في موطن واحد تغير، وإذا جرى عذب.

وهذا هو سر الفاتح المؤمن عندما تحرر من قيد الشهوة فانطلق بهذا الدين ينشر دعوة الله، فوجد راحته وريحانته في السفر والجهاد وقليل من أوائلنا من استقر في وطنه! حتى فتح الله على أيديهم سائر البلاد وهدى بهم العباد.

جناية الغفلة:

كما أن المسلم إذا أصابته جنابة فإنه يسرع إلى الطهارة فتخف روحه وينشرح صدره، وبهذه الطهارة يكون جاهزًا للاتصال بالله تعالى، فيتلو كتابه ويردد كلامه أو يصلي بين يديه أو يذكره على الدوام.

هذا شأن الجسد وحظ البدن فما شأن القلب؟ لحضور الله تعالى فيه، لابد أن يكون القلب كذلك طاهرًا... فما جنابة القلب التي يجب الطهارة منها؟... إنها الغفلة التي تمنع حضور القلب مع ربه، وطهارة القلب تعني المجاهدة والمكابدة ثم التفكر والتأمل، والإنسان لا يصفو لربه إلا بالطهارتين معًا: الجسد والقلب، فإذا اجتمعت الطهارة معًا: تتحقق الصلاة الحقيقية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]. فإن كان حد صلاة الناس أوقاتهم فالسالكون العارفون في صلاة على الدوام، حتى أطلق بعضهم عليها: (الصلاة الدائمة) ومعنى ذلك كما قيل لبعضهم:

هل للقلوب صلاة وسجود؟ فقال: نعم إذا سجد لا يرفع رأسه أبدًا.

والغفلة حينما تسيطر على القلب لها علامات مؤذية فإذا بصاحبها مسترسل في غفلته مستغرق في نومه لا يبالي بما وقع منه ولا ينتبه من نومه، وأصل هذه الغفلة في أنه أحاط نفسه وحاصرها بهذه الدنيا وأسبابها فتحولت إلى حجاب فانطمس نور بصيرته، وقلَّ علمه وفهمه ومعرفته، لأن المعاني لا تدركها إلا البصيرة.

وإذا بحركته في الوجود حركة خاطئة فارغة لا يتحرر من رق إحسان الخلق، فلا يزال يراه من الناس، ولا يشهد من رب الناس، وهذا الأمر الذي حذر منه العلماء فقالوا: (إن كان اعتقادًا فشرك جلي، وإن كان استنادًا فشرك خفي)، أي ميل خفي كأن يقول الإنسان بلسان حاله لولا فلان ما كان كذا، أو لولا ما اعتمدت على الأسباب ما كان كذا وكذا، وكان شركًا خفيًا لأنه ينفذ من خلاله إلى رب الأسباب.

ألا تستحق الغفلة أن يسمونها (جنابة) لابد من التطهر منها بصفاء القلوب، ولن يتحقق سير السالكين إلا إذا تخطوا هذه العقبة.

توبة من الهفوة:

هل للسالكين من توبة وهم أهل الطاعة والإيمان؟ ومم يتوبون؟... إن حراسة قلب السالك مهمة مستمرة وجهد متواصل، وسير القلب هنا بمعنى الترقي حيث لا ترقية إلا بعد توبة، وتوبة القلوب إنما تكون من الهفوات، وكان النبي ﷺ يترقى في الساعة الواحدة من مقام إلى مقام، بتجديد الاستغفار والتوبة لقوله ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**» وفي رواية: (**مائة مرة**)، ولذلك كان دائمًا يطلب الترقي: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤]، وإنما ذلك ليكون أسوة لورثته وهو الرحمة المهداة، فقال بعضهم: الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا ﷺ هو عين الرحمة لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وورثة النبي ﷺ السالكون الذين يقتدون به قد فتح الباب أمامهم على مصراعيه وذلك في قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل: بنبيه أو برسوله ليكون الباب مفتوحًا لغيره، ولن يصل إلى كمال العبودية إلا النبي ﷺ، فكان

إسراؤه بالجسد والروح، فإذا حدث إسراء بالروح لأحد حصلت للسالك (قرة العين في العبادة) وهي على قدر صفاء قلبه، فقد كانت قرة عينه ﷺ في الصلاة، وليست (بالصلاة)، أي بمناجاة ربه وشهود منته، حيث لا فرح ولا سرور إلا في الإقبال على الله. فإذا تحقق ذلك فأنت (تعبد الله كأنك تراه) وهذا من علامات التوبة من الهفوات، ومن عبده العبودية بهذا الفهم لم يلتفت لشيء سواه، والقُر (بالضم) هو البرد وقرة العين كناية عن شدة الفرح لأن بكاء الفرح دمعه بارد، يقال في الدعاء: أقر الله عينك، أي أفرحك حتى تبرد عينك بدمع الفرح، وعلى قدر صفاء السالكين تكون (قرة عينهم) بالعبودية، ولهم في الاقتداء بالنبي ﷺ قسط ونصيب من قرة العين، وقد قيل: (قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود)، فعلى قدر معرفة السالك بربه تكون قرة عينه في العبودية.

هنالك أن حارسًا أمينًا لقلبك من الهفوات...

ولذلك يقول أبو سليمان الداراني: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام، رجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا.

وأخيــــرًا:

لا تستغرب أن ينقذك الله من شهوتك أو يخرجك من غفلتك، لأن ذلك يتنافى مع إيمانك بقدرة الله تعالى وكان الله على كل شيء مقتدرا، وإنما جعل الله ذلك في طريق السالكين ليلجأوا إلى ربهم، ويأنسوا به، وحكمته في ذلك ليظل سير السالكين على الدوام فلا يكسلون ولا يفترون ولا يتوقفون بل ينهضون مرات ومرات ويستعينون بالله تعالى وحده.

* * *

٢- الهوى

ميزان الهوى:

للكشف عن الهوى هنالك ميزان دقيق، تتعرف به على عملك الذي أنت عليه، أهو صحيح أم باطل أي فيه الهوى، وهو أن تعرض الموت على النفس وهي في العمل فإذا رضيت بالموت وهي في العمل فالعمل صحيح، وإذا لم ترض بالموت فالعمل باطل، قيل: كل عمل لا يهزمه الموت فهو صحيح، وكل عمل يهزمه الموت فهو باطل وفيه الهوى.

وللكشف عن الهوى هنالك ميزان آخر فقد قيل:

(من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات).

ومعنى ذلك: قد يثقل على كثير من الناس (الواجب) وذلك لمشاركة الناس لهم فيه إذ جل الناس يفعلونه، فلا يظهر له مزية على غيرها بخلاف النوافل فإنه يحب أن ينفرد بها إما لطلب المدح والثناء وإما لطلب الأجر في الآخرة وهذا كله عند المحققين من الحظوظ الجلية أو الخفية.

فالمسارعة إلى نوافل الخيرات وفضائل الطاعات مع التكاسل عن الفروض والواجبات من علامة الهوى، فيجب على الإنسان أن يقدم الفرض الواجب ولا يقدم عليه إلا ما هو من كماله مثل: النوافل قبله وبعده إعانة على الحضور فيه، فقد قال بعضهم:

من كانت النوافل أهم عليه من الفرائض فهو مخدوع، وقال محمد بن أبي الورد: هلاك الخلق في حرفين:

اشتغال بنافلة وتضييع فريضة، وعمل الجوارح بلا مواطأة القلب.

وللخروج من الكسل في أداء الفرائض والواجبات، أن يعلم السالك أن الفرائض المطلوب إقامتها وهي تتم في ثلاث: وجود الصدق فيها. والقيام بلوازمها وآدابها. ورؤية المنة لله سبحانه في وجودها (إذ قد أعاننا الله على ذلك بتقليلها وتقصيرها وتقييدها بالأوقات، وتوسيع أوقاتها، وتلوينها).

وقيل: من رفض الدنيا بحذافيرها وغاب عن نفسه فقد جمع الفرائض والنوافل كلها، أي كان ذلك عونًا له في إقامة الفرائض وأداء النوافل.

يقول الشيخ الشرقاوي: (كانت النوافل تخف على النفس دون الفرائض، لأن العادة أنه لا مزية في القيام بالفرائض لاستواء الناس كلهم فيها بخلاف النوافل فإنها تذكر بها ويحصل لها بها مزية ومنزلة وجاه في القلوب وهذا هو حال أكثر الناس).

حلاوة الهوى:

وللهوى حلاوة وهي قسمان: حلاوة هوى النفس، وحلاوة هوى القلب.

فهوى النفس: يرجع إلى الشهوات الجسمية كحلاوة المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن والتجارات والعقارات...

وهوى القلب: الشهوات المعنوية كحب الرئاسة والجاه والعز والمدح.

أما علاج هوى النفس فأمره سهل ميسور ويمكن علاجه بالفرار منه والزهد وصحبة الأخيار.

أما علاج هوى القلب فإذا تمكنت حلاوته في القلب فهو صعب وأطلقوا عليه اسم: (الداء العضال) أي الذي أعجزهم عن علاجه وقد سبق أن علاجه في أمرين:

خوف مزعج: يزعجه من الشهوة.

وشوق مقلق: يقلقه عن حظوظه فينسيه نفسه ويؤنسه بربه، وإنما ذلك لأن الدواء ما يزيده إلا تمكنا، لأن حلاوة الهوى لا تتمكن أصلاً بالقلب إلا بثلاثة:

- الرضا عن النفس.

- والغفلة.

- والاسترسال مع مرادها.

فمن تعريفات الهوى: أنه ثبات داعي النفس في مقابلة داعي الحق بمعنى: ميل النفس لما تريده طبعا.

ولذلك كان داءً عضالاً لأسباب ثلاثة أوردها الشيخ زروق:

١- أنه من وصف النفس ميلها للأشياء.

٢- يلتبس بحظ خفي لا يظهر إلا بالنظر الدقيق ولذلك كان الاستئصال للأصل والفرع معًا حتى لا يطل برأسه يومًا ما.

٣- يثمر علمًا يجعل صاحبه في موضع الحجة فيفتح باب الجدل وهو مفتاح الضلال.

يقول تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ﴾**.

أي لا تفيد الأسباب في هدايته وقد سبق قول بعضهم: (نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن).

***

٣- الدنيـــــا

الدنيا في حياة السالكين لها حديث خاص ولكنها تقف مع العقبات الأخرى في الطريق، وسنركز في الحديث عنها حول ما اتفق عليه علماء السلوك في مرحلة السير إلى الله حول نقاط محددة؟

طبيعة الدنيا:

كثرت التشبيهات المختلفة للدنيا ولكنها أجمعت كلها على أنها تتلون بطبائع مختلفة تصيب كل صنف من البشر بنصيب، ولكن الدنيا عمومًا من طبيعتها التي لا تنفك عنها هذه القاعدة: (ظاهرها غرة وباطنها عبرة) وإنما كان ذلك لوجهين:

الأول: ما جعل الله سبحانه على ظاهرها من البهجة وحسن المنظر، وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب والمساكن والمناكح والبساتين والرياضات وكثرة الأموال والبنين وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر وغير ذلك من زهرتها وزخرفها، فانكب الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها والجري عليها الليل والنهار والأعوام حتى هجم عليها هادم اللذات فأعقبهم الندم والحسرات ولم ينفع الندم وقد جف القلم، فظاهرها فتنة وباطنها عبرة، وكان السلف إذا أقبلت الدنيا قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر، قالوا: مرحبًا بشعار الصالحين، وهذا رسول الله ﷺ المعصوم من كل آفة وهفوة قد عرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض فأبى إلا أن يجوع يومًا ويشبع يومًا، كل ذلك فرارًا من زينتها وغرتها ورجوعًا إلى ما دلَّ عليه وجود عبرتها.

الثاني: إظهارًا لحكمته تعالى، فقد جعل الله تعالى تجليه لعباده بظهور حكمته في الدنيا سواء كان في الآفاق أو الأنفس، فمن وقف مع ظاهرها كان جاهلاً، ومن نفذ إلى المعنى كان سالكًا عارفًا بربه، لأن النفس تنظر إلى زينتها فتفتنها، أما القلب المؤمن فإنه ينظر إلى حقيقة الدنيا فيرى أفعال الله فيها، وعندما ينظر إليها بعين البصيرة

القرآنية يجدها فتنة، وهذا ميزان السالكين الدقيق، من نظر فاغتر فلينتبه إلى أنـه ينظـر بعين النفس، ومن نظر فاعتبر فهو ينظر بعين القلب، وهي ثمرة التصفية، وذلـك لأن في القلب عين البصيرة التي لا ترى إلا المعاني.

ولذلك فأهل القلوب اشتغلوا بالجد والاجتهاد وأخذوا في الأهبـة والاسـتعداد، واشتغلوا بتطهير القلوب والتأهب للوقوف بين يـدي عـلام الغيـوب، يقـول تعـالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١١، ١٢].

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

يقول بعض العلماء: (ما سطع لي زينة من زخرف الـدنيا إلا كشـف لـي باطنـه فظهـر عنـدي عـزوف عنهـا)، وقـد أمـر الله تعـالى نبيـه ﷺ يـترك النظـر إلى الـدنيا فقـال تعـالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا لِنَفْتِنَـهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وأقرب مثال لطبيعة الدنيا النظر إليها لمن أراد العز فيها بالخلق أو بأسـبابها، فإنـه يموت عزه ويتصل ذله، لأن من تعزز بمن يموت مات عـزه، يقـول تعـالى: ﴿أَيَبْتَغُـونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾، فالعز الذي لا يفنى هو العز بالله والغنى بطاعـة الله أو بالقرب ممن تحقق عزه بالله، فالعز به تعالى يكون بتعظيمه وإجلالـه وهيبتـه ومحبتـه ومعرفته وبالرضا بأحكامه والخضوع تحت قهر جلالـه وبالحيـاء والخـوف منـه بالـذل والانكسار:

إذا كان من تهـوى عزيـزًا ولم تكـن ذلـيلا لــه فقــل الســلام علــى الوصــل

يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

ويقول تعـالى: ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُـونَ﴾ [المنافقون: ٨]، يقول في التنوير:

(فإن اعتززت بالله دام عزك، وإن اعتززت بغير الله فلا بقاء لعزك).

اجعـل بربـك شـأن عـزك يستقر ويثبـت
فـإن اعتـززت بمـن يمـوت فـإن عـزك ميـت

ومن تحقق عزه بالله لم يقدر أحد أن يذله، وهذه قضية الرجل الذي أمر هارون الرشيد بالمعروف، فحنق عليه فقال: اربطوه مع بلغة سيئة الخلق لتقتله، فلم تقض فيه شيئا، ثم قال: اسجنوه ففعلوا، فرئي في بستان فأتى به فقال له: من أخرجك من السجن؟ فقال: الذي أدخلني البستان، فقال: ومن أدخلك البستان؟ فقال: الذي أخرجني من السجن، فعلم هارون أنه لم يقدر على ذله فأمر أن يركب على دابة وينادي عليه:

(إلا إن هارون أراد أن يذل عبدا أعزه الله فلم يقدر).

وسبب العز هو حب الله للسالك، فالعز نتيجة الحب.. ففي الصحيح قول النبي ﷺ: «**إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماوات: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض فيحبه أهل الأرض**» وسبب حب الله للسالك هو زهده في الدنيا ففيما رواه الترمذي قول النبي ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**».

حكمة الدنيا:

يقول تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

فقد يظن من لا علم له بطبيعة الدنيا أن الإكثار منها علامة فضل من الله، ومكانة تنتظره في الآخرة، وقد تحدثنا من قبل أن تمام النعمة على الإنسان الكفاية التي هي عند أهل البصيرة أعظم النعم لأن نقصانها يؤلم، وزيادتها تطغى، وقد تفرح الزيادة الإنسان في البداية وتحزنه في النهاية.

والإنسان يفرح بالولايات الدنيوية مثل الإمرة والجاه والتعظيم والألقاب والأسماء والكنى والمكانات والتصدير والأتباع، ولكن السالك الذي يقتدي برسول الله ﷺ يفهم لماذا اختار النبي ﷺ العبودية (حينما خير أن يكون رسولاً ملكًا أو رسولاً عبدًا).. كل ذلك من أجل أن تتضح حكمة الدنيا للسالك فيحذرها، فأولها حلو لمتعة النفس، وآخرها مر لفقد تلك الولايات ولو بالموت، فإن رغبتك حلاوة بدايتها زهدتك فيها مرارة نهايتها، وإن غرتك بهجتها فاعتبر بحقيقتها، ومن أقوالهم في ذلك: (إن رغبتك البدايات بوجود المنافع زهدتك النهايات بوقوع الفجائع) يقول أبو علي الثقفي: (أفٍ لأشغال الدنيا إذا أقبلت، وأف من حسرتها إذا أدبرت، والعاقل لا يركن إلى شيء، إذا أقبل كان فتنة وإذا أدبر كان حسرة).

وأنشدوا:

ومن يحمد الدنيا يسره ... فسوف لعمري عن قريب يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرًا همومها

فالمفروح به هو المحزون عليه إن قليلاً فقليل، وإن كثيرًا فكثير.

على قدر ما أولعت بالشيء حُزْنُهُ ... ويصعب نزع السهم مهما تمكنا

ولذلك تأمل معي ما تجره الدنيا لتتعرف على حكمتها:

١- سيطرة غير الله على القلب.

٢- وجود الأكدار من آلام ومتاعب بداية ونهاية.

٣- لما تحمله في حقيقتها من فتنة.

٤- لما في طياتها من صراع عليها يجر الكثير من الآلام.

هذه المرارات التي تجرها الدنيا على السالكين يذيقها الله تعالى لهم من أجل حكمة إلهية عظيمة! فالرغبة عنيفة في داخل الإنسان، فمن أجل ألا يتكادم عليها أحد أو يصارع يدعوه الله إلى الزهد فيها والتجافي عنها بهذه المرارات، التي تنقلب إلى نعم

من الله، فالله يذيقه من مرارتها ما يسهل عليه وجود فراقها، وهي دار ارتحال وافتراق، فحينما علم الله أن من عباده من لا يقبل النصح بمجرد القول أو الوعظ، شدد عليه البلاء والمحن ونغص الدنيا عليه، كل ذلك عناية به، فلا يغتر بحلاوة زخرفها، فقد قالوا:

(الامتحان بقدر الإمكان

وكل محنة تزيد مكنة

واختبار الباقي بقطع التباقي).

فقد تبقى في القلب بقية أو ركون إلى شيء فيسلط الله عليه ما يشوشه، عناية به ورحمة وفضلاً ونعمة.

ولذلك جاءت تشبيهات الدنيا على الوجه التالي أورده ابن عباد وغيره:

١- الماء المالح: يغرق ولا يروى فالغارق في حبها لا تروى عطشه.

٢- ظل الغمام: يغطي الأرض ثم سرعان ما ينقشع.

٣- البرق: في سرعة الذهاب والاضطراب.

٤- سحابة صيف: يضر ولا ينفع.

٥- زهر الربيع: يغر بزهرته ثم يصر فتراه هشيما.

٦- أحلام النائم: يرى السرور في نومه وعند اليقظة الحسرة.

٧- العسل بالسم: يغر ويقتل.

٨- الغول: تهلك من أجابها، وتترك من أعرض عنها.

٩- البحر الهائج: موج الشهوات والغفلات وسحاب الزينات.

ومع ذلك كله فواجب المسلم كما قال العلماء: أن يقيم الولاية إذا تعينت عليه فريضة عينية أو كفاية.

ولذلك فالأمر يحتاج إلى بصيرة قلب وعلم صحيح.

فالله تعالى من خلال معرفتنا بحكمته في عقبة الدنيا هو متعرف إليك أي طالب منك أن تعرفه بصفاته وأسمائه، فاطلب أنت معرفته في كل حال، وبهذا الفهم لا يتألم السالك من دنيا عرف طبيعتها وحكمتها!!

ومن ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان.

كيف تتخطى عقبة الدنيا؟

دنيا بهذه الطبيعة، وقد خلقها الله لحكمة أن نحذرها ونزهد فيها فكيف نتخطاها؟.. وإذا كانت الدنيا مسافة فكيف يكون طيها؟... يقال: طي الأيام بلا طعام ولا شراب، وطي الأرض بقطعها دون تعب ولا مشي في أقرب مدة، فما معنى طي هذه الدنيا؟.. الإنسان مبتلى بعالم الأسباب يقيم الأشياء على هذا الأساس وليست فكرة طي الدنيا معناها طي مسافات بل على الإنسان أن يعلم أن الطي الحقيقي للدنيا يعتمد على أشياء أخرى نجملها في التالي:

١- استشعار قرب الآخرة:

حينما يرى الإنسان أن الموت أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه هنالك يستشعر قرب الآخرة، فتطوى له مسافة الدنيا كلها، يقول الصديق ر ضى الله عنه:

كل امرئ مُصَبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ، يعيشون في جو الآخرة، فكان من قول حنظلة المشهور في صحيح مسلم: (فيذكرنا بالجنة والنار فكأنا رأى عين) فالسالك يطوي هذه الدنيا بأن يعيش في الآخرة بعدة وسائل من: التأمل اليومي، والمحاسبة اليومية، والمرابطة الأخروية، فتأمله لنفسه من لحظة وفاته إلى نزول قبره، إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ثم يتأمل حياة الشهداء في قبورهم، ثم الحساب والحشر والنشر والحساب ثم الميزان ثم الصراط، ثم الخلود في النار أو في الجنة، كل ذلك وهو لا يعلم مصيره! وهذا هو الطي الحقيقي للسالك بأن يعيش في الآخرة، ولا يتحقق له

ذلك إلا باستشعاره الموت، فيرى قرب الآخرة منه.

٢- الزهد في الدنيا:

العجيب أن من أراد أن يتخطى الدنيا يحتاج إلى لحظة صدق واحدة وبعدها يستريح، فقد قيل في قوله ﷺ: «**الدنيا خطوة المؤمن**» بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها، فليس الشأن من تطوى له البلاد، وربما يكون ذلك في عصرنا اليوم من الأمر اليسير، أن يجوب البلدان بطائرة!، ولكن الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه، يقول بعض العلماء: (لا تتعجبوا ممن يدخل يده في جيبه فيخرج ما يريد، ولكن تعجبوا ممن يضع يده في جيبه ولم يجد شيئا ولم يتغير)، فقد تمتلئ الخزائن بالأموال ومع ذلك تضيق النفوس وتموت الأرواح، فالعجب الحقيقي ممن خزائنه خاوية وهو مطمئن الجنان، ثابت الوجدان، ساكن الكيان، منتعش الروح.

٣- الفهم عن الله:

قيل: (الليالي والأيام يبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود)، فكأن لسان الحال يقول: إن الدنيا تتقلب أوضاعها، وتتغير ظروفها، وعلى هذا فلا بد أن تنطلق وسائل القرب إلى الله من العبادات المختلفة وفق هذه القاعدة، بمعنى لا يطمع السالك في الدنيا، ويتحلى بالورع، فيتحرر من رقها، ويقبل على الله بقلبه، ويعيش غنيًا بربه، فإذا تحققت هذه القاعدة بهذا المفهوم تحولت هذه الوسائل إلى طي حقيقي لهذه الدنيا، يقول ابن عطاء في التنوير:

(لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده، وإنما يدل على نوره وفهمه:

غناه بربه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال).

٤- اليأس مما في أيدي الناس:

رؤية الدنيا بعين الزوال، يحقق في السالكين ما يسمى (بميزان الرجال)، بمعنى

التعلق بالحق والإياس مما في أيدي الناس.

وهذا يوجب طيها عن نظر السالك لاستشعاره أنـه قـرب مـن أن يرحـل إليهـا، علام يقطع زائلا؟ وكيف يرحـل إلى سـراب؟ وهـذا لا يتحقـق إلا برفـع همتـه عـن الناس، والتعلق بالحق وحده، فلماذا يعيش أسيرا في سجنهم، وقد أراده الله حرًا ينعم بجنته، ويحظى بالقرب منه، ولذلك كان من قول أستاذ لأبي الحسن:

(يا أبا الحسن اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم؛ فـإن خيرهـم يصيبك في قلبك، وشـرهم يصيبك في بـدنك، ولأن تصـاب في بـدنك خـير مـن أن تصاب في قلبك، وعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك).

كيف تنتصر على الدنيا؟

فمن لم يتخطها فعليه أن ينتصر عليها إذا احتدم الصراع، ولكي ينتصـر عليهـا... هذه قواعد العلماء، وإرشادات أهل السلوك، نختصرها في التالي:

١- أن يوقن السالك أن الدار الآخرة جعلها الله محلاً لجزاء عباده المـؤمنين، لأن هذه الدنيا لا تسع ما يريد أن يعطيهم، فأدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشـر مـرات فكيف بأعلاهم؟ يقول:

﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

٢- من أعجب العجائب أن يفر المرء من مولاه مع أنـه لا انفكـاك لـه منـه، بـل كيف يطلب ما لا بقاء له من حظوظ الدنيا الفانية التي إن لم تزل عنه في الحياة أزيلـت عنه بالممات، فاطلب ما يبقى دون ما يفنى.

٣- دوائر الحلال كثيرة، وقد ينتقل الإنسان من حلال في الدنيا إلى حـلال، فقـد يزهد طالبًا الراحة لبدنه، أو أن تفتح له الدنيا لصلاحه، فهو مثل حمار الرحى يظن أنه قطع مسافة وما زاد إلا نقصًا مع تعب، يقول الشيخ أبو الحسن: قف ببـاب واحـد لا لتفتح لك الأبواب تفتح لك الأبواب، واخضع لسيد واحد لا لتخضع لـك الرقـاب فتخضع لك الرقاب، يقول تعـالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، فمـا

الحل؟... الحل في الانتقال إلى الله وحده بقصر الهمة عليه وبالفرار من الحظوظ وإقامة الحقوق ودوام اللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه، وبذلك يستوطن الوطن الحقيقي:

«فهجرته إلى ما هاجر إليه» من وطن المعصية إلى وطن الطاعة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن عالم متطلبات الجسد إلى وطن عالم الروح.

٤- العبرة في هذه الدنيا بمن صدق وليس بمن سبق، وليست أعمار الناس هي المقياس، فربَّ عمر طال زمانه، وَقَلَّت بركته، وربَّ عمر قصر زمانه وكثرت بركته، وكثير من الأئمة والعلماء والمجددين وافتهم المنية في سن مبكرة وقد تركوا للأمة تراثًا وميراثًا وفهمًا وقدوة أفادت من بعدهم أجيالاً كثيرة، أمثال الإمام النووي والشيخ حسن البنا وغيرهما فعندما تهب رياح الإرادة فعلى صاحبها أن ينطلق بكل جد، وهي لا ترتبط بسن متقدمة أو مبكرة، ولكن بالصدق فيها كانوا السابقين، وهو ما يطلقون عليها (بركة العمر)، فربما عمر طويل يمر كطيف منام أو أضغاث أحلام، دون فائدة لصاحبه، فمن أراد أن يطول عمره في الحقيقة عليه بتحقيق سر (بركة العمر) في أن يدرك في كل لحظة من لحظات عمره يقظة مع الله تعالى، فكل ذرة من ذكر أو تفكر أو تذكرة أو قرب أو دعوة أو خدمة أو لقاء مع حبيب... أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغفلة الذين همُّ أصحابها تحقيق حظ أنفسهم أو القرب من الناس فحسب، وقد سلبوا (بركة العمر) وإن طالت بهم الأيام وكثر بهم الزمان، فالبركة في عناية الله من الهداية وإدراك منن الله في يسير من الزمان من علوم ومعارف لا تستطيع عبارات اللسان ورشاقة الأقلام أن تفصح عن معناها ومراميها.

ولذلك فمن منن الله تعالى أن يكتب لك (ملاقاة الرجال وصحبتهم) وبالطبع من النادر أن يجتمع الرجال معًا إلا بقدر من العليم الخبير، فقد تدرك في ساعة واحدة معهم، ما لا يحصل مع غيرهم في أزمنة طويلة ولو كثرت عباداتهم وصلاتهم وصومهم وخدماتهم، إذ ليس العبرة بكثرة الأوراد وإنما العبرة بكثرة الأمداد (الفوائد التي تجنيها) «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»،

فالعبرة ببركة العمر لا العمر.

٥- إذا اقتنعت ببركة العمر، فتعال معي نسأل أهل السلوك عن سبب البركة وسرها؟... قالوا: في تحقيقك ذلك أمران: التفرغ من الشواغل والشواغب أو العلائق والعوائق.. فما معنى ذلك؟

الأول: الشواغل التي تجعل نفسك حبيسة وأسيرة ومسجونة لخدمة الليالي والأيام والشهور والأعوام ومنتهى العمر، وما حققت البركة لأنك أغلقت عنك باب الحرية، فهذا هو الخذلان الكبير؛ أن تتفرغ من الشواغل ولا تتجه إلى الله تعالى.

الثاني: العلائق والعوائق التي تصيب القلب فمن تفرغ منها ولم يرحل إلى الله، فقد كتب كذلك علي نفسه الخذلان وما نال بركة في عمره، أو فائدة في أمد حياته في دنياه، فيما روي البخاري عن ابن عباس قول النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ**».

كيف تجعل الآخرة ترحل إليك؟

القضية المطروحة كيف تري الآخرة بحيث تكون أقرب إليك من أن ترحل إليها؟ وكيف تري محاسن الدنيا بعين الفناء والزوال فإذا بالآخرة ترحل إليك؟ اتفقوا أنك يمكن أن تحقق ذلك إذا أشرق نور اليقين في قلبك. واليقين: هو العلم الذي لا يخالطه وهم ولا يمازحه ريب ولا يصحبه اضطراب ولا يزاحمه قلق، (مشتق من (يقن الماء) إذا حبس ولم يجر، شبه به العلم إذا صحبته الطمأنينة ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب.

ومعني (إشراق نوره): ظهور أثره علي الجوارح وعمل الإنسان مسارعة إلي مرضاة الله والمبادرة إلي محبته، فهذه علامات إشراق نور اليقين في القلب ومن علامته أيضا أن يصير الآجل عاجلاً، والبعيد حاصلاً لقوله تعالي ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ [الأنعام: ١١٤].

فما الدنيا بباقية لحي   وما حيٌّ علي الدنيا بباق

هناك تري الآخرة حاضرة لديك وأقرب إليك من أن ترحل إليها.

وإذا بها هي الراحلة إليك المدركة لك.

أما سبب ابتعاد الناس عن ذلك فهو ضعف إيمانهم وقلة نور يقينهم، وفي الحديث: «**إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح**» قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «**نعم..**

التجافي عن دار الغرور،

والإنابة إلي دار الخلود،

والاستعداد للموت قبل نزوله».

يقول الإنطاكي: (اليقين نور يجعله الله في قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته).

فإذا تساءل سائل: لماذا تكون الآخرة ضعيفة في نفس الإنسان وقضية الدنيا قوية في نفسه؟ فإن لديك إذن الإجابة: فالسر ذلك يعود إلي قوة اليقين وضعفه، فمن كان عنده قوة يقين يعيش وكأنه في الآخرة، ومن كان عنده ضعف يقين تسيطر الدنيا على نفسه، ومن ههنا ورد في بعض الآثار: (إن اليقين هو الدين كله) أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. فمن أهم الأمور التي يبذل السالك جهدًا للوصول إليها هو: اليقين ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥].

ويقينك يقوي بالتقرب إلي الله بالوسائل التي اعتمدت في الشريعة كطرق الوصول إلي هذا اليقين الذي هو ذروة مقامات القلوب وتزكية النفس.

* * *

٤- الشيطـــان

هل للشيطان من سبيل علي المتقين؟ وهل يستطيع أن يَنْفُذْ إلي السالكين وهم في طريقهم إلي الله؟ وما حكمة وجوده في طريق السالكين وهم يمتلكون من الوسائل ما تبعده عنهم وتجعله مهزوزا؟

خطوات الشيطان:

وللإجابة عن هذه التساؤلات على السالك أن يدرك أن المراحل التي يحارب بها الشيطان الإنسان أربع مراحل تحددت فيها أسلحته، ويستطيع السالك أن يواجه هذه الأسلحة بأسلحة منيعة حتى ينهار الشيطان ويخنس، ولكنه لا يزال يبر بقسمه القديم أمام رب العالمين فيحوم ويحوم حتى مع المتقدمين في سلوكهم، ولكن بمعرفة الحكمة يكون الفهم وحسن التعامل معه، هذه الخطوات أو المراحل الأربع نجملها في:

١- مرحلة التخريب:

وهي تجري في مجري الدم غير مرئية، يوجه فيها سلاحي الشبهات لتخريب العقل، والشهوات لتخريب القلب، ولكن الإيمان الكامل الذي يواجه به السالك هذين السلاحين يستطيع أن يفسد على الشيطان عمله، وعلامة انتصار المؤمن، أن يسارع في الخيرات وينطلق بالإسلام عاملاً داعيًا مجاهدًا معلمًا في طريق السالكين.

٢- مرحلة العقبات:

ربما بهذه العقبات التي يثيرها الشيطان في طريق السالكين أن يحقق الردة عن السير والتوقف عن السلوك. فإن تحقق الأول وجه سلاحي المرحلة الأولي مرة ثانية، وإن تحقق التوقف أثار عقبات أخري حتى يرتد عن السير، ويتقهقر إلي الوراء. وهذه العقبات هي التي يتعامل معها السائر في حياته اليومية من دوائر أسرته وأولاده وعمله وطموحاته ودعوته، أجملها الله تعالى في قوله:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقد حددت الآية سلاح مواجهة المؤمن لهذه العوائق **بحب الله ورسوله، وحب الجهاد في سبيله**.. أي العمل في سبيل الله والثبات على الطريق، وسبيل الله للسالكين العاملين له حد أدني وله حد أقصي وكل ما بينهما في سبيل الله، فكما حدد الرسول ﷺ الحد الأدني في صورة هذا الرجل الجلد القوي حينما خرج علي الأصحاب رضوان الله عليهم فقالوا: (لو كان جلده في سبيل الله فصحح النبي ﷺ للأجيال هذا المفهوم فقال: «**لو خرج علي أبوين له كبيرين فهو في سبيل الله، لو خرج علي أولاد له صغار فهو في سبيل الله، لو خرج علي نفسه يعضها فهو في سبيل الله**» فأدني شيء أن يبحث السالك عن رزقه يتحري الحلال من أجل ألا يسأل الناس سواء كان علي نفسه أو أبويه ثم يقول النبي ﷺ محددًا أقصي حد لسبيل الله:

«**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

وكل نوع يقدمه السالك من حب لله وتمكين شريعته أو حب للرسول واتباع لسنته أو جهاد في سبيل الله لكل مجالاته من عمل سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو علمي أو رياضي أو ثقافي ، فإن رفع أعداء الله راية الكفر كان أول الملبين في رفع كلمة الله عالية يقدم ماله ونفسه في سبيل الله: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾**..

فهل يستطيع الشيطان أن يأتي من هذه العقبات لسائر جاد وعامل مجد يطلب الجنة ويرجو رحمة ربه؟.

٣- مرحلة الحالقة:

السالكون وقد تجمعت قلوبهم علي محبة الله، والتقت على طاعته، وتوحدت على دعوته، وتعاهدت علي نصرة شريعته.. وقد شمروا ساعدهم علي روح العمل والثبات على الطريق، متوجهين إلي ربهم فالله غايتهم، والرسول قدوتهم، والجهاد

سبيلهم والقرآن دستورهم، والموت في سبيل الله أحلى أمانيهم، والسالكون وقد صفت قلوبهم لربها تسبقهم أنوار إيمانهم وأمداد ربهم.. هل يستطيع الشيطان أن يَنْفُذَ إليهم؟ نعم.. ينفذ بهذه المرحلة بأخطر سلاح، دلنا عليه النبي ﷺ في قوله: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرتهم ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم**» إنها فساد ذات البين التي أطلق عليها النبي ﷺ:

«**إنها الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»... فبينما السائرون يسعون في سبيل الله قلوبهم متعاكسة! وبينما المجاهدون في صف واحد أرواحهم متشاكسة! وبينما السالكون على ألم واحد وأمل واحد وحب واحد يأتيهم الشيطان من ثغرة التحريش بين القلوب، مرحلة حلق الدين... ومن أسرار هذا الدين هذا الحب في قلوب العاملين... هذه الأخوة الصادقة.. تلك الرابطة المتينة... هذه المودة الدائمة، وهنالك ينهار عمل الشيطان وبالحب يفسد عمله، لأنها الجبل الأشم الذي تدمر عنده أعمال المفسدين.

٤- مرحلة الصبر والمرابطة:

هل بعد هذه الهزائم التي يشهدها الشيطان أمام المؤمنين يترك الميدان، ويفر من الساحة؟... كلا إنه في هذه المرحلة الأخيرة يعطي الأمر لتلاميذه النجباء الذين ينتظرون طويلاً هذه اللحظة، وقد أعدهم لها، إنهم شياطين الإنس، يقول لهم: هلموا يا جنودي الأحبة، إنهم الكافرون والملحدون والمشركون واليهود والصليبيون والمنافقون والمتملقون بل ومعهم ويسير في ركبهم ضعاف الإيمان من المسلمين، وهم على أهبة الاستعداد، فقد طال ليل تآمرهم، وقد أحبكوا مكرهم، وخططوا كيدهم، وهي خطة قديمة واجهها الأنبياء والرسل والمصلحون، تشريد ونفي واتهام ومحاكمات وسحق وسجن وضرب وقتل وأشلاء واعتقالات، بلا قضية ولا تهمة ولا دليل ولا قضاة ولا دفاع، فهم الخصم والمدافع، وهم القاتل والمحزون، وهم السجان والباكي... والسالكون سلاحهم قول المولى تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وبالصبر يغلب المؤمنون خصومهم، فهم

يصبرون كذلك: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ ولكن صبر المؤمنين بالله، فلهم الغلبة، ثم بالمرابطة والثبات والتقوى، يأتي أمل المؤمنين المنتظر في نصر الله القريب، فهو قريب ولكننا نبتعد عنه ونناى عنه، حينما نتخلى عن هذه الأسلحة الركينة في مواجهة خطوات الشيطان.

حكمة ربانية:

في كل خطوات الشيطان، كيف تدفع عنك كيده؟ وما حكمة هذا الاستمرار والمداومة على غوايتك من الشيطان؟

قال في الحكم: (إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده) فإذا علمت أيها السالك أن الشيطان لا يغفل عنك ساعة، لأن له كما قيل: (له بيت في صدرك من جهة شمالك)، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك وناصيته بيده وهو الحق تعالى، فإذا شُغِلْتَ بالله رده عنك وكفاك أمره، يقول تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ويقول تعالى محذرا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وقد قال أحد المفسرين: (فهم قوم أن الشيطان لهم عدو فاشتغلوا بمحاربته ففاتهم محبة الحبيب، وفهم قوم أن الشيطان لهم عدو وأنا لهم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم عداوة العدو).

ولذلك كان دفع كيده بدوام الذكر واتباع أمر الله ونهيه، والقيام بالعبودية والشكر، ليكفيك أمره، وحتى لا تكون له حجة عليك، بل لا يجد طريقًا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

يقول الشيخ الشرقاوي: (فمن تحقق بهذه الصفات كيف لا ينصره على عدوه)، ويقول ذو النون المصري: (إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه)، وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال إبليس لربه عز وجل: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له الله عز وجل: «وعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني».

وقيل: (الشيطان كلب، إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب، وإن رجعت إلى ربك صرفه عنك برفق).

أما حكمة وجود الشيطان فقد أجملها ابن عطاء بقوله: (جعله لك عدواً ليحوشك به إليه) فالله لم يخلق شيئا عبثا لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فما حكمة وجود الشيطان؟ نجملها فيما اتفق عليه علماء السلوك كابن عجيبة والشيخ زروق في التالي:

أولاً: ليحوشك إليه بمعنى ليردك بالكلية إليه على وجه لا يمكنك الانفكاك عنه، وذلك لأن العبد ضعيف إذا رأى عدواً يطلبه هرب إلى سيده والتجأ إلى حصنه فيكفيه أمره.

ثانياً: قيام الحجة على عباده، فإذا خافوا أمره قال لهم: اتبعتم عدوى وعصيتم أمري، يقول تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ثالثا: قالوا: ليكون منديلاً للعار تمسح فيه أوساخ الأعمال: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾، ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

رابعاً: ليتميز المؤمن عن غيره، ويعرف السالك بمجاهدته وبمحاربته، واتباع الهدى فقد خلقه الله في مقابلة الرسل، هم يدعون إلى الهدى وهو يدعو إلى الضلال.

﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، فاستعن بالله تعالى عليه وكما قيل: (إن عدوا يراك ولا تراه لشديد إلا من عصم الله).

* * *

٥- النفس

احذر نفسك:

معرفة الإنسان بعيوب نفسه والعمل على تلافيها أو اكتشافها أو علاجها، سبب في حياة القلوب والإحساس بالنعيم الدائم، أما هؤلاء الذين لم يدركوا هذه الحقيقة، واكتفوا بنظر العين التي أول ما تقع على مساوئ الغير، فتركوها تلتقط عيوب الآخرين، فانشغلوا بها، قد كتبوا الهلاك لأنفسهم لأنهم حجبوا بأنفسهم عن أنفسهم عيوبهم التي كانت سببًا في مصارعهم.

ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يكتشف عيوبه؟ إذا أراد تحقيق ذلك، قالوا: (ينظر إليها بعين السخط ويتهم نفسه ويسيء الظن بها)، هنالك تظهر له عيوبه، ويستخرج مساويها، وذلك لأن أصل العيوب من معصية أو غفلة أو شهوة أن يرضى الإنسان عن نفسه فيستحسن أحوالها، فتحجب عنه هذه العيوب.

ومن الوسائل القوية في كشف عيوبها: الجماعة والصحبة الصالحة، بمعنى صحبة من لا يرضى عن نفسه، فمن أراد أن يتخلص فليصحب من تخلَّص، وصحبة من يرضى عن نفسه شرٌّ محض، ولو كان أعلم أهل الأرض، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟

والله تعالى إذا أراد إهانة عبد وإذلاله رده إلى نفسه، فقادته إلى مهاوي الردى، وإذا أراد الله إعزاز عبد وعنايته تولاه وحفظه ولم يتركه مع نفسه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعوزة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك**».

ولسان الناس بالثناء والمدح ميزان لهذا الأمر، فالذين ردهم الله إلى أنفسهم لا يتناهى ذمهم، أما الذين كانوا بربهم فكمل عزهم وأثنى عليهم الناس حينما تولاهم الله بحفظه ورعايته وحجزهم عن أنفسهم وحال بينهم وبين قبائحهم، فإن للنفس من

النقائص ما لله من الكمالات، حتى في صراع الأنبياء مع أقوامهم كان الذم منهم مدحاً للدعاة: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وهكذا يحدث في كل زمان ومكان.

ميزان التعامل مع النفس:

يقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فهل يوجد ميزان في حق السالكين المشتغلين بالمجاهدة يعرفون الحق والباطل مع أنفسهم؟ إذ أبلغ ما قيل في ذلك من قواعد هذه القاعدة الميزانية:

(إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً).

فكل ما يثقل على النفس فالواجب اتباعه فهو حق، وكل ما يخف عليها فهو باطل وفيه حظها فالواجب اجتنابه، ومثال ذلك: قد يثقل عليها الصوم أو قيام الليل أو الصدقة أو حفظ القرآن أو الصمت أو الاعتكاف، وقد يخف عليها غير ذلك، فليكن العبد على نفسه بصيرة، ومن البصيرة أن يسير معها على عكس مُرَادِهَا، ويخالفها ويتهمها فيما تأمره أو فيما تستحسنه.

وهذه سنة الله في عباده، فإن النفس لا تريد أن تخرج عن رأيها ومرادها أبداً.

فإذا قال قائل: أنا أعمل العمل، كيف اكتشف أن لنفسي حظًا في هذا العمل؟ نقول له: إن كان العمل ثقيلاً عليها فهو حق وصحيح فامضه متوكلاً على الله تعالى، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

وأمثلة ذلك في حياة المسلم اليومية وخاصة الذين يشتغلون بالعمل الاسلامي، في هذا الميزان الذي هو المخرج حينما تختلط الأمور، ألا وهو (مخالفة النفس)، فالبعض يُضَيِّعْ وقته في القيل والقال بظن الإصلاح وهو لغو، أو في النوافل وترك فروض العين والكفاية، بظن التعبد الزائد وهو من علامات هوى النفس، ويبقى هذا الميزان يعرف السالك به (أين عمله من حظ وهوى نفسه؟).

والمقصود بالأمرين في هذا الميزان: (أمران واجبان أو مندوبان أو مكروهان) لا مندوحة عنهما ولا أرجحية لأحدهما على الآخر، ولا يمكن الجمع بينهما، ومثال ذلك: بر أحد الوالدين لمخالفته الآخر، أو أخذ هدية أو تركها لمن يتغير بالرد ولا يُسرُّ بالقبول.

والثقل هنا من جهة الطبع وعلاماته ثلاث:

(العجلة والأمن وعمي العاقبة).

فمن توجه لشيء لا يعرف له مادة في الأحكام ترجح فيه الترك من الفعل، فإن كان مع أمن لا مع خوف، ومع عجلة لا مع تأن، ومع عمى العاقبة لا مع بصيرة بها، فاعلم أن خفته على النفس من هواها وحظها، وذلك لأنها مجبولة على ضد الخير، **فإذا أدبرت** بلا علة أو أقبلت بلا دليل يذكر، فهو دليل هواها، وهذا حال النفس **اللوامة التي تخطىء وتصيب، أما من رزقها الله نورًا تهتدي به، فهي تتبع الشرع وتحسن الظن بالمسلمين، فإن وجدت شبهة توقفت، والأصل في ذلك قوله ﷺ: «استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك».**

حكمة النفس:

تتحرك النفس مع الإنسان حركات عجيبة، فلماذا حركها الله تعالى؟ وكيف **تتحرك؟** معنى تحريك النفس: **أن تطلب ما تهواه، وأن تؤثر دنياها، وأن** تلبي كثرة **متطلباتها**، وأن لا تفي بعزمها، **وهذا هو الرضا عن النفس، فما الحكمة الربانية في ذلك؟**

يقول ابن عطاء: (حرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه).

وإقبالك على الله تعالى في ثلاث صور:

الأولى: الثقة فيما ترتجيه.

الثانية: اللجوء إليه فيما تتقيه.

الثالثة: الإنابة له فيما ترتضيه.

وتفصيل ذلك أن النفس تتحرك على صاحبها، وهو تحت المقادير، إن كان مظلومًا أو مسجونًا أو مهموماً أو مبتلى، فنفسه ترجو له الإفراج والفرج والتفريج مما هو فيه، وتلح عليه بحركاتها، فمن لم يجد إيمانًا في قلبه فإنه يتقطع حسرة وهمًّا وحزنًا وتضيق عليه الأرض بما ترحب، أما المؤمن فإنه يزداد بالله ثقة في وعده وفرجه القريب، يراه كلما ضاقت ويشعر به عند استحكام الحلقات.

وكذلك نفسه تتحرك عليه: بأن يتقي الظلام والحبس والابتعاد عن ماله وأولاده وزوجته ووطنه ومسكنه، وكبت حريته، وضياع هدفه، فالمؤمن يلجأ إلى الله، يستمد العون ويتزود، فالله بيده الأمر ويسمع ويرى، ويكفيه فخرًا وتيهًا أن المبلي له هو الله فيزداد منه قربًا لاختياره إياه، وتقديره له.

وكذلك نفسه تتحرك عليه: بكثرة متطلباتها وحظوظها وإيثار متع وشهوات دنياها، فيقع في أخطاء الرضا بذلك التي تبعده عن ربه، وحال المؤمن أمام ما يرتضيه هو الانخلاع من منبع العيب بالإنابة والأوبة والعودة والتوبة، لتجديد السير والنهوض من جديد وهكذا حركات النفس تدفعك إلى مداومة الإقبال على الله تعالى في كل لحظاتك، فلا تنزعج ما دام قلبك عامرًا بالإيمان، حيًّا بالرحمن، صادق التوجه إليه تعالى، متسلحًا بالعلم القلبي الذي تفر به إلى الله إذا أعرض الناس عنك أو امتدت أيديهم بالإيذاء أو إذا ادلهمت الأمور، ثم بيقظتك الدائمة وملازمة الإقبال على الله في كل الظروف وطاعته، وبذلك تتخطى عقبة النفس، يقول أبو الحسن: (أعظم القربات عند الله مقاومة النفس بقطع إرادتها وطلب الخلوص منها بترك ما تهوى لما يرجي من حياتها، وإن من أشقى الناس من أحب أن يعامله الناس بكل ما يريد، وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد).

لولا النفس ما تحقق سير!

وكما أن النفس لولاها ما كان شر، كذلك فلولا النفس وميادينها وتحركاتها في المجالات المختلفة ما تحقق سير للسالكين...فمدار ميادين النفس التي تتحرك فيها، أو قل المسارات التي تعمل فيها بوسائل مختلفة، لا تخرج عن ثلاثة ميادين تحدث عنها

خبراء الطريق، في إجمال يحتاج إلى تفصيل وتبيين:

الأول: سير في الغفلة: (ميدان الغفلة)

وفيها تطلب النفس حظوظها وشهواتها وهواها، وفي ظلال الغفلة تنتفش هذه القبائح ولا تدري بها النفس، وعلاج هذا الميدان: الإيمان ثم الاستقامة حتى تتحقق النفس بالورع، فلولا نقائص النفس في هذا المجال ما كان سير بهذا الفقه وما كان ورع.

الثاني: سير في الوهم: (ميدان الوهم)

إن كان ثمة إهمال في تحقيق الميدان الأول، انخدع صاحبها بنفسه، فتراه يعلن إيمانه دون تحقيق، ويرفع إسلاماً دون استقامة، فلا يتقيد بشرع ولا يحتكم لدين، ولا يتبع سنة ولا تشريعًا، بل نفسه تدفعه إلى غير الإسلام يستمد منه العون والنبراس والقدوة كمن يسأل عن نجد وهو فيها، هذا يسير في الوهم رفع العلم دون اتباع، ولم يحقق غاية العلم من خشية القلب لربه، وخضوعه لمولاه.

وعلاج هذا الميدان بالتحقق بالعلم النافع، من خشية وهيبة لرب العالمين، ومن حضور في القلب وطمأنينة دائمة حتى يتحقق بالبصيرة، ولا يزال يتبع الإسلام عملاً وتطبيقاً حتى يتحقق فيه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وهكذا تتحرك هذه المساوئ المدمرة إلى سير يبدد الوهم بالاتباع والبصيرة والهدى.

الثالث: سير في الدعوى والزعم (ميدان الزعم والدعوى)

وكما قالوا: إن أي إهمال في واحدة يؤدي إلى خلل في التي تليها، وهذا السير في مجال العمل الدائم والسلوك المتقدم، يكثر الزاعمون للإصلاح والصلاح والعلم والدعوة والتربية، والادعاء في هذا الطريق يتعرض لامتحانات عاصفة، والمرء تفضحه شواهد الامتحان، ومن ارتدى رداء الادعاء كشفته العواصف الهادرة، ومدار هذا الزعم يغلب في الخير بل يكون كله في الخير، لأن النفوس ما زالت في ميدان الإيمان

وميدان العلم وميدان العمل، أما زعم الكافرين والمنافقين بالإيمان والإصلاح وعمارة الكون فهو باطل محض لأن نفوسهم مغلقة لا بصيص أمل ينتظرها فكيف لها ذلك وقد أغلقت النوافذ أصلاً عن الإيمان والعقيدة والتوحيد؟

وعلاج هذا الميدان سهل ميسور، إنه في الفرار إلى الله الدائم واستمرار اللجوء إليه حتى تتحقق المعرفة فتبدد سراب الزعم وتدمر ليل الدعوى، وهكذا ميدان القول غير ميدان العمل غير ميدان الجهاد، ورضي الله عن عبد الله بن رواحة يوم أن ترددت نفسه يوم مؤتة فخاطبها بقوله:

أقسمت يا نفس لتنزلن ... لتنزلن أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... مالي أراك تكرهين الجنة

* * *

٦- الطمــــــع

الطمع في حياة الناس:

المتأمل في تصرفات الناس وفي حياتهم اليومية يتساءل: ما الذي يقودهم إلى مثل هذا الصراع على هذه الدنيا؟ وما الذي يدفعهم إلى قبائح هذا السلوك البشري الجلي الواضح؟

أما السالكون فالميزان عندهم واضح وسهل، ما داموا يعملون لوجه الله تعالى على بصيرة، وما داموا طامعين بفضل الله مع عملهم الصالح، فإنهم علي خير، ولكنهم من البشر، يجتهدون في السير، ويجاهدون في السلوك، فكان لزامًا أن تظهر لأنفسهم هذه العقبة، ولكنهم سرعان ما يتخطونها بأمان، يكفيهم ما تراه عين بصيرتهم من مصارع أقوام على مذبح الطمع، فكم من كبار أصبحوا أذلاء ما قادهم إلا الطمع، وكم من زعماء وفي حقيقتهم يتحرك الذل في مداهنة الناس والأتباع، والمداهنة أثر من آثار ذلة النفس.

والطمع هو تعلق القلب بما في أيدي الناس وتشوق القلب إلى غير الرب وهو أصل شجرة الذل، ولذلك قال بعضهم: (والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق) يقول في التنوير: (وكن أيها العبد إبراهيميا فقد قال أبوك إبراهيم عليه السلام: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وكل ما سوى الله آفل إما وجودًا وإما إمكانًا، وقد قال سبحانه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، ومن ملة إبراهيم معاداة كل ما شغل عن الله وصرف الهمة إلى الله، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وعلامة على فهم السالك في تحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع، يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

ولذلك كان يقول أبو العباس: صاحب الطمع لا يشبع أبداً، ألا ترى حروفه

كلها مجوفة؟ الطاء والميم والعين.

الطمع يقود إلي الذل:

الطمع أصل الذل، ومن طمع ذل علي قدر طمعه:

ترك المطامـــع للفتي شـرف له حتى إذا طمـــع الغني ذل الشـرف

وإنما كان ذلك لأن صاحب الطمع ترك ربًا عزيـزًا وتعلـق بعبـد حقـير، فـاحتقر مثله. ترك ربًا كريمًا وتعلق بعبد فقير، فافتقر مثله. ترك رفع همته إلـي الغـني الكـريم وأسقط همته إلي الدنيء اللئيم، وأيضًـا كـان عبـد الله حـرًا ممـا سـواه فصـار عبـدًا للمخلوق وعبد لنفسه وهواه.

فمن ثبت طمعه طال ذله، فالطمع بذر للذل، وذلك لأن الطمع مقرون بثلاث:

الأول: التعلق للمطموع فيه.

الثاني: استشعار الخيبة عن الطلب أو هيمنة المعطي عند المساعدة.

الثالث: بذل ماء الوجه عند المواجهة.

يقول أبو بكر الوراق:

لو قيل للطمع: من أبوك، لقال: الشك في المقدور.

ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل.

ولو قيل: ما غايتك.؟ لقال: الحرمان.

الطمع مبناه علي الوهم:

إذا كان الذل أصله الطمع، فما أصل الطمع؟ وعلى أي شيء يرتكـز؟ نعـم إنـه الوهم، فغالب النفوس في قياده لأن النفس إذا تخيلت شيئًا عملت عليـه فحصـل لهـا منه الطمع، فإذا بها تقع في الذل والحرمان والتعب،والـذي يـدعو النـاس إلى الطمـع توهم النفع في المطموع فيه، وبذلك تحصل العبودية له، فلما تخيل صاحب الطمـع أن

الناس بيدهم نفعًا أو ضرًا أو عطاءً أو منعًا طمع فيهم وتذلل لهم، واعتمد عليهم وخاف منهم، ولو حصل له اليقين بأن أمرهم بيد الله وأنفسهم في قبضة الله، عاجزين عن نفع أنفسهم فكيف يقدرون على نفع غيرهم، لقطع يأسه منهم ولرفع همته عنهم، ولتعلقت همته برب الأرباب وحده، يقول في التنوير:

(وإنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلق بغير الله، فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله، جذبها ذلك التعلق إلى ما به تعلقت فَكَرَّت راجعة إليه مقبلة عليه).

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨،٨٩].

وقيل في تفسير (القلب السليم): هو الذي لا تعلق له بشيء دون الله، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، أي بمعنى أنه لا يصح مجيئك إلى الله بالوصول إليه إلا إذا كنت فردًا مما سواه.

وإذا كان الوهم في حياة الناس سببًا للطمع لأنه الذي يقودهم إلى التعلق ببعضهم البعض ويمنعهم عن السير إلى الله تعالى فاشتغلوا بمن يحبهم ويكرههم صداقة أو عداء، ففاتهم محبة الحبيب والتقرب إليه، فما شأن الوهم في حياة السالكين المنشغلين بمحبة مولاهم؟ وكيف يكون حجابًا في سيرهم إلى الله تعالى؟ إن الظن بأنهم على صلاح وخير وتخيل أن ذلك يكفي هو الوهم في حياة السالكين فيكتفون بما وصلوا إليه من طاعة وعبادة وزهد وعلم ويقنعون بذلك ويقفون ولا يتطلعون إلى ما وراء ذلك من خيرات ونفحات وأنوار ربانية، ويصطدمون بذلك مع قاعدة أهل السلوك:

(القناعة من الله حرمان وليس الخبر كالعيان) وما يزال السالكين يتقدمون ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ مقتدين بالأسوة ﷺ حتى لا يتعلقوا بشيء، ولم يحجبهم عن ربهم شيء، نسأل الله بمنه وفضله وكرمه أن نكون منهم، اللهم آمين.

إنما الحرية بترك الطمع:

ما أروع الحكمة البليغة: (أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع).

الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله بها، فأي نفوس هذه، بيدها قيدت حركتها، وأحكمت القضبان حتى على شعورها وإحساسها، وهذا سر الأمم الضعيفة لا مفر لها من العبودية لحملة التيجان أو حملة البيان، وهذا حال الشعوب التي تفقد حريتها: تدنوا بها كلمة وتنأى بها أخرى، وتجذبها دمعة وتدفعها ابتسامة، وتطير بلبها الخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء، وما ذلك إلا لأفراد فقدوا أعز ما يملكون؛ حريتهم، فما أنت له طامع آخذ بقلبك، فأنت له بكلك، وما أنت عنه آيس أنت عنه معرض بقلبك، فليس له شيء من وجودك:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وإن تعجب فاعجب من طائر يطير بحرية في فضاء رحب، فإذا بقطعة لحم يراها، يسوقه الطمع فيها متوهمًا فيها النفع، فيقع في شباك صبي صغير سرعان ما يلهو به ويلعب. وصدق الحسن البصري وهو يقول قولة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (فساد الدين الطمع وصلاح الدين الورع).

فأنت حر مما آيس منه، وذلك لأنك رفعت همتك عنه، وعلقتها بالله تعالى، فلما علقتها بربك سخر الحق تعالى لك سائر الخلق، فمن كان عبداً لله كان حرًا مما سواه، وإنما كان الإنسان عبدًا لما طمع فيه، لأن الطمع في الشيء يقتضي المحبة له والخضوع والانقياد إليه فيكون عند أمره ونهيه لأن حبك للشيء يعمي ويصم.

ولذلك فلما كان الوهم ينشأ عن الطمع، والطمع ينشأ عن الذل والعبودية، واليقين ينشأ عن الورع، والورع ينشأ عن العز والحرية، فكان لزاما على السالكين أن يتفقدوا الورع في أنفسهم فهو سبب حريتهم، يقول في لطائف المنن: (من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره، أو يميلوا بالحب لغيره، أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره)، وجملة ورعهم: تورعوا عن الدنيا وفاء، وعن الآخرة صفاء، فمن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة.

يقول أبو الحسن: (الورع نعم الطريق، فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة)،

ولذلك إذا أراد الله خذلان عبد ورَّعه عنه تعالى، فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزوِّد بعلمه وعمله افتقارًا لربه واحتقارًا لنفسه وتواضعًا لخلقه فهو هالك.

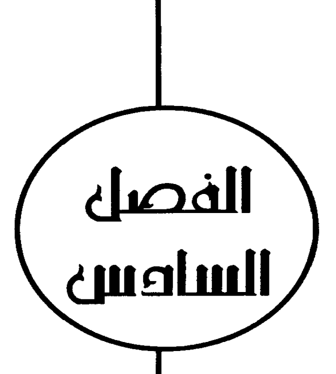
ولذلك كان الورع على وجهين:

الأول: ويظهر في حركة السالكين بالله أي بتحري الحلال والحرام.

والثاني: ويظهر في حركة القلب بمعنى ألا يدخل قلبك إلا الله، بصحبة اليقين وكمال التعلق برب العالمين، ووجود السكون إليه، وعكوف الهم عليه، وطمأنينة القلب به، حتى لا يكون له ركون إلى شيء غيره.

فمن أراد الحرية فعليه بتحرير قلبه من كل طمع إلا الطمع بالله عز وجل، فالحرية أن لا يكون عندك طمع بمخلوق وأن لا يكون عندك طمع دنيوي وأن يكون قلبك معلقًا بالله عز وجل.

❊ ❊ ❊



التأثير في الآخرين

١- عند المدح والذم.

٢- عند أذى الناس.

٣- عند المخالطة والمعايشة.

٤- القلوب المؤثرة.

٥- خالط الناس بخلوة فكر.

الفصل السادس: التأثير في الآخرين

١- عند المـــدح والـــذم

لتحقيق المجتمع الرباني واستقامة الأفراد على دين الله تعالى كان لابد من وجـود العارفين المرشدين الذين يدلون الناس إلى ربهم، يقول تعالى: ﴿**وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾ [الكهف: ١٧].

فغاية الهداية وجود الولي المرشد، والسالكون لكي يحظوا بهذه المرتبة، في إرشـاد المجتمع إلى ربه لابد أن يصلوا دومًا إلى درجة الكمـال في مخـالطتهم للنـاس والتعامـل معهم، ومن الأمور المهمة في مواقف السالكين مع الناس (المدح والذم)، فكيف تكون قلوبهم عند الأمرين؟

أولاً: آداب المدح والذم:

١- ذم النفس:

لو كان هناك نقـص في الـنفس هـل يستكمل بمـدح المـادحين؟ أو يعـالج بثنـاء الآخرين؟ المتأمـل يتأكـد لـه في كـل لحظـة أن المـدح لا يـدفع نقصًـا ولا يعالجـه ولا يستكمله! بل قد يفتح أبواب نقص جديدة لم تكن موجودة أصلاً!!.

ولذلك فقد اتفق أهل القلـوب علـى أن الواجـب أن لا يقـف السـالكون أمـام مادحيهم ولا يلتفتون إلى أقوال الثناء بل يرجعون إلى أنفسهم بالذم لما يعلمونه منها.

هذه الوقفة مع أنفسهم لعدة أسباب ووجوه منها: أن هـذه الـنفس مجبولـة علـى النقص فلماذا يراها أهلاً للمدح؟ وإذا نظر إلى المـدح يـرى نفسـه في تقصـير وإسـاءة ورياء، ثم إذا نظر إلى سيئات أخرى لأعمال خفية، فلكل إنسان خبيئة من نفسـه ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ هذا لو كان ما مدح به موجوداً فيـه، وإلا فيـذمها بـالنقص والتقصير، ولذلك قالوا:

- إذا مدحك الناس بشيء ليس هو موجوداً فيك فلا تركن إلي ما هنالك بل ارجع على نفسك باللوم.

- لا يغرنك ثناء الناس فإنهم لا يعلمون منك إلا الصوان الظاهر، وأنت تعلم من نفسك اللب الباطن.

- من فرح بمدح الناس فقد مكن الشيطان من أن يدخل بطنه **﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قِرِينًا﴾** [النساء: ٣٨].

- يقال عند المدح: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون.

- أهل الفهم عن الله إذا استمعوا إلى حديث مادحيهم، نظروا فإذا كان فيهم علموا أنه تنبيه لهم على تحصيل ذلك المدح والوصول إلى تحقيق هذا الثناء، ولهذا لما سمع أبو حنيفة قومًا يمدحونه بقيام الليل كله وكان لا يقوم إلا نصفه جعل يقوم الليل كله.

- وقد ذم الله قومًا أحبوا أن يمدحوا بما لم يفعلوا فقال تعالى: **﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾** [آل عمران: ١٨٨].

٢- الحياء من الله:

إذا توجه الناس إليك بالمدح فذمك لنفسك السابق، إنما هو حياء من ربك، حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك، فالمؤمن الحق الكامل، إذا مدح بما فيه أو ليس فيه، فإنه يستحي من الله أن قد ستره فيما هو به وهو يجري عليه ثناءه الجميل بما لم يكن من شأنه، ولذلك يقول النبي ﷺ: «**المؤمن إذا مدح ربا الإيمان في قلبه**» وذلك لأن المدح في ذاته ليس محمودًا أو مذمومًا، وعليه فقد يكون سبيلاً للكمال أو موصلاً للنقص أو غير موصل لشيء منهما.

ولذلك قالوا:

- المؤمن إذا مُدح استحيا من الله أن يثني عليه بوصف لا يشهده من نفسه.

ومعنى ذلك أن تحقيق السالكين للأعمال من توفيق الله تعالى، ومن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فإذا أطلق الثناء عليك لشيء لا نسبة لك فيه وإنما أنت محل لظهوره فاستحى من الله تعالى أن يثني عليك بشيء تعلمه أنه من فعل غيرك.

فإذا لم يظهر عليك شيء منه فإذا مدحت لشيء زائد على ما ظهر منك فاطلب من الله القدرة على المزيد: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [هود: ١٠٧].

وفي الحديث: قيل يا رسول الله: الرجل يعمل العمل خفية ثم يتحدث الناس به فيفرح، فقال ﷺ: «**له الأجر مرتين: أجر العمل وأجر الفرح**».

٣- الرجوع إلى يقين ما عندك:

قيل لبعض الحكماء: إن الناس يثنون عليك، فأظهر الوحشة من ذلك وقال: لعلهم رأوا مني شيئاً أعجبهم ولا خير في شيء يعجبهم ويسوؤني.

رب رام بأحجار الأذى ... لم أجد بُدًّا من العطف عليه

فعسى يطلع الله على ... فرح القوم فيدنني إليه

ويقول يحيى بن معاذ: (تزكية الأشرار هجنة لك، وحبهم لك عيب عليك)، وهذا ميزان دقيق حتى لا يلتبس عليك الأمر، أو تختلط الأوراق، وكثير من الناس كانوا صرعى حينما اغتروا لظن الناس بالباطل وافتقدوا هذا الميزان الدقيق.

- والرجوع إلى يقين ما عندك هو علمك بمساويك وخفايا عيوبك، وما انطوت سرائرك من النقائص والتقصير، وذلك أمام ظن ما عند الناس من توجههم بالمدح والثناء لما يرون من صور الكمالات والطاعات والمحاسن الظاهرة، فإذا قنع الإنسان بذلك فرح بما هنالك، فهو أجهل الناس وأحمق الناس، وكذلك كانت قاعدة ابن عطاء:

(أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس).

يقول الشرقاوي: (إنه ليس مأمورًا بتكذيب الناس، ولا بالسعي في تبديل ظنهم

فيه، وإنما هو مأمور بعدم الاغترار وتقديم علمه على ظنهم).

نعم إن كان المادح كاذبًا في مدحه بارتكابه المبالغة والغلو تأكد تكذيبه وزجره، وعليه يحمل قوله ﷺ: «**احثوا التراب في وجه المداحين**» فمدحه حينئذ منهى عنه، وكذا لو كان مدحه يورث عند الممدوح غرة ويغلطه في نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ: لمن مدح عنده رجلاً: «**قطعت عنق صاحبك**»، وقال: «**إياكم والمدح فإنه الذبح**».

٤- الثناء على الله بما هو أهله:

فإذا تأكد لك عند المدح أو الذم أن تذم نفسك لطبيعتها، وحياء من الله الذي أظهر محاسنك وستر عيوبك، وذلك بالرجوع إلى يقين ما عندك غير مغتر بظن الناس فيك، وبما ليس من فعلك، وفيما أنت لست له بأهل، فإلى من يتجه ثناؤك ومدحك؟.

ولتفصيل الإجابة فإن الثناء عليك إذا ملأ عنان السماء وأطراف الأرض فإنه نعمة من الله: إذ أنه تعالى هو الذي أطلق الألسنة بالثناء مع علمه بمساويك وعيوبك، وهذه نعمة أخرى أن ستر الله عليك قبائحك وأظهر محاسنك، فشأن السالكين عند هذا الموقف وهم ليسوا بأهل للثناء ولا يعلمون ذلك من أنفسهم، عليهم أن يتوجهوا بالثناء على الله بما هو أهله، أي ما يستحقه من تعظيم وإجلال، فما منا من نعمة فمنه تعالى، ولسان حال الذاكرين عند ذلك قولهم: إذ ستر القبيح، وأظهر الجميل، ولم يؤاخذ بالجريرة.

بالثناء على الله تتوج آداب السالكين في موقف المدح أو الذم حتى يبتعدوا عن حياة الوهم، أو السير في السراب، ويفتقدوا لحظات قرب من الله بفعل لسان مادح أو كلمة ذام، ولذلك كانت تحذيرات أهل السلوك أن الناس ثلاثة:

١- رجل رأى نفسه مستحقًا للمدح والثناء فهذا هالك.

٢- ورجل رأى نفسه ليس بأهل ولم يشعر بإحسان الله إليه فاشتغل بذم نفسه وتوبيخها فسلم من آفاتها.

٣- ورجل رأى نفسه ليس بأهل مع شعوره بإحسان الله إليه وستره إياه على

عيوبه فأمره بالله ولله ومن الله، ولذلك كان من ثناء علي كرم الله وجهه:

(اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذني بما لا يعلمون، واغفر لنا ما يقولون).

ثانيًا: الناس عند (المدح والذم):

الهالكون:

نفوسهم غالبة عليهم، محط نظرهم الناس، غافلون عن طلب الحق ورؤية الله تعالى، إذا مدحوا فرحوا، وإذا ذموا انقبضوا، فهؤلاء قلوبهم خربة من النور، لا يرون إلا أفعالهم، يستجدون الناس لسماع ألسنتهم بالمدح، فيقبلون عند مدحهم، تنفرج أساريرهم، وتنشرح صدورهم، وربما أقاموا الحفلات وجمعوا الناس لسماع المزيد، فتطرب له نفوسهم، وتتحرك إلى الناس محبتهم وهم لا يدرون أن المدح ذبح لهم، لكونه يدعوهم لمراءاة الناس والتصنع والتزين لهم، وهم هم عند الذم يدبرون، وتنقطع أفراحهم، وتتصل أحزانهم، ويكرهون من ذمهم، بسبب غلبة أنفسهم عليهم، فهم الغافلون اللاهون الهالكون.

الناجــون:

العباد: مجتهدون في العبادة، فارون من الناس، طالبون رضا الحق، يكرهون المدح، ويحبون الذم، إذا مُدِحوا حَزِنُوا وانقبضوا، وإذا ذُمُّوا فرحوا وانبسطوا، لتفرغهم حينئذ للعبادة، ولذلك تراهم يسكنون إذا ذمهم الناس، ويضطربون عند مدحهم، يفرحون لإدبار الناس عنهم أكثر من إقبالهم عليهم، لقوله ﷺ: «**احثوا التراب في وجوه المادحين**»، ولقوله ﷺ: «**المدح هو الذبح**»، ولقوله ﷺ لمن مُدِحَ عنده: «**قطعتم عنق صاحبكم**».

السالكون: أما السالكون فلهم شأن آخر، أكثر إشراقًا في تقربهم إلى ربهم، لأنهم عاملون على قتل نفوسهم، باحثون عن حياة قلوبهم، فإذا ذُمُّوا فرحوا، وإذا مُدِحُوا انقبضوا وحزنوا، خوفاً على قوة نفوسهم، أو أن تضعف قلوبهم، إذ في موت النفس

حياة القلب وفي حياة القلب موت النفس، فهم يحققون العبودية كالعباد، ويزيدون عليهم بحياة القلب زاد سلوكهم وعنوان سيرهم إلى ربهم.

المقربون:

ولا يزالون السالكون في رقي من أحوالهم، قد تحققت فيهم معرفة الله والوصول إلى العلم به، هؤلاء ظفروا بنفوسهم، وصلوا إلى شهود معبودهم، فهم باقون بربهم، غائبون عن الناس إلى رب الناس، يستأنسون بكل شيء لمعرفتهم به تعالى في كل شيء، ولذلك إذا مدحوا فرحوا وانبسطوا بالله لمعرفتهم بأن المدح من الله وإلى الله، ولا شيء في الكون سواه، فإذا أثنى عليهم رأوا ألسنة الخلق أقلام الحق، وهذا سر فرحهم بمدح مولاهم لا الناس، ومن عند من تولاهم وهو الله، فيزدادوا له حبًّا وشوقًا، وفي مثل هذا ورد قول النبي ﷺ:

(إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه رَبْوَة).

أما حالهم في الذم فإنهم يحزنون وينقبضون تأدبًا مع جلال الله تعالى، وحبًّا للوصول إلى الكمال، فهم المقربون العارفون، جعلنا الله منهم.. اللهم آمين.

* * *

٢- عند أذى الناس

أعراض مؤلمة وعلاج ناجح:

من سنن الله الماضية في أوليائه وصفوة خلقه أن يعرضهم إلى موقف (الأذى من الناس) لاختبارهم ومعرفتهم أو صقلهم ليخلصوا إليه تعالى، وما إن تتحقق هذه السنة إلا ويقابل بعضنا إعراض الناس عنه بإعراضه عن ربه، وتوجههم بالأذى إليه بالانشغال بهم، مما يسبب له ألمًا فاجعًا ووجعًا متواصلاً، فيلفه الهم، ويحاصره الحزن، فإذا به مأسوف على حاله، مكلوم من أمره كله، يئن ويشكو، ويبث ألمه في الآفاق، التي ضاقت في عينه، وربما يصل الألم إلى الحلقوم، فتراه مخنوقًا من غير خانق، بل خانق على نفسه لإدبار الناس عنه بعد إقبال، وإعراضهم بعد التفاف، وإيذائهم بعد إجلال، والعلاج لهذه الأعراض سهل ويسير ومع الإنسان وفيه، ومع ذلك هو بمنأى عنه ولا يستعمله وهو بين يديه، ألا وهو الرجوع إلى علم الله فيك، واطلاعه عليك إذ لا يخفي عليه شيء من أمرك، فإن كفاك ذلك وقنعت به، وآنست بذكره، استوى عندك أمر الناس، في إدبارهم أو إقبالهم، بل ربما آثرت إدبارهم، إذ فيه راحتك وتفريغ قلبك مع ربك.

فلماذا إذن يقع البعض فريسة لذلك، فيتركون العلاج وهو كامن في قلوبهم، فالأحرى بالسالكين أن يثبتوا عليه ويعلموا أن الأذى من الناس أمر طبيعي، وطبيعة ماضية وسنة جارية في حياة الأنبياء، وورثتهم من الدعاة، فعلام يتألمون أو يتوجعون أو يشكون؟ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

والرجوع إلى علم الله فيك يجعلك تسلك طريق الأوبة والتوبة والاستغفار واللجوء إليه، إن كنت ظالمًا، أو تسلك طريق الرضا والتسليم لمقادير الله إن كنت مظلومًا، فإلى من تلجأ ليدفع عنك.. إلا إلى الله تعالى؟ عبودية وتضرعًا فإن حققت

ذلك فقد تحقق فيك هدف الابتلاء.

وفي كل من الطريقين: لا ينفع إلا الصدق في التوجه إلى الله تعالى، فما فائدة أن يصدقك الناس؟ ولا يصدقك الله؟ وكما قال أهل السلوك: (رب علة بينك وبين الله من حيث أمرك خير من علة بينك وبين الناس من حيث نهاك، ورب علة تردك إلى الله خير من علة تقطعك عن الله).

ولذلك فهذا الصدق يلقي في كيانك بأخلاق ربانية حينما تعلن: وكفى بالله هاديًا ونصيرًا ووليًا:

هاديًا: يهديك ويهدي بك ويهدي إليك.

نصيرًا: ينصرك وينصر بك ولا ينصر عليك.

وليًا: يواليك ويوالي بك ولا يوالي عليك.

فهل بعد هذا التعامل وهذه الأخلاق، وهذا العلاج من ظهور أعراض أخرى تدعو إلى مس ألم أو وجع أو شكوى؟! ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ٤٥].

متى يثمر هذا العلاج؟

ولكن يبدو أن البعض لا يقنع بهذا العلاج ويظل محاولاً أن يعلم الناس حقيقة ما هو عليه، ويتأسف على إدبارهم ويتألم من أذاهم، فتراه لا يكتفي بعلم الله، فمصيبته بضعف إيمانه وذهاب يقينه الذي دفعه إلى الالتفات إلى الناس، أشد من مصيبة ذمهم وإدبارهم عنه أو امتداد أذاهم إليه، لأن هذا موجب لسخط الله وغضبه وسقوطه من عين الحق تعالى، بل عده بعضهم قائلاً: (ذلك من أعظم المصائب وأكبر الآفات والنوائب، ومن أعظم ما فيه رجوعك إلى الخلق بدلاً من الاكتفاء بالحق). وذلك لأن من وقع فريسة هذه المصيبة تراه يتقلب في نوائب ثلاث: الرياء والتكلف وعدم احترام الناس له، فينقلب عزه ذلاً، وغناؤه فقرًا، ويظهر عليه من أسباب المقت ما لا مزيد عليه، لأنه تعلق بالخلق، يقول الجنيد: (من أشار إلى الحق وتوجه للخلق

أحوجه الله إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه).

أما ثمار هذا العلاج فلها علامات يعرف بها السالكون مواطن أقدامهم في السير إلى ربهم:

الأولى: علاقته بمن أذاه لا تصل بحال إلى الوقيعة معه، وهذا من حكمة الدعاة ورسالة الأنبياء لكسب القلوب من مجموع البشر عامة.

الثانية: علاقته في العمل بأسباب دفع الأذى متوازنة لا شطط فيها ولا هروب، بل غايته فيها القصد حيث توجه.

الثالثة: علاقته بالله تعالى القيام بحق العبودية افتقارًا وتضرعًا فيما هو عليه، فهو المدافع والدافع هادياً ونصيرًا ووليًا.

وعلى هذا عد البعض مصيبة الأذى من الناس أشد وأخطر من مصيبة عدم القناعة بالاكتفاء بعلم الله فيك، فمتى يثمر علاج لا تستعمله ولا تقنع به، بل إنه يرديك في مهاوٍ ساحقة سافلة لا زرع فيها ولا ماء، فإذا اشتغل الناس بإضرارك فانظر أنت مقامك مع ربك فإن كنت مع ربك صافيًا فلا يكيدك شيء، ولا يضرك شيء.

حكمة الأذى من الناس:

خلقت الروح لتسكن، وسكونها إلى المولى تعالى، وعلى هذا فسكونها إلى غير الله مذلة وتسفل لها، وحجاب يتعذر به نقلها إلى عالمها الذي من أجله خلقت!

وهكذا لا يزال السالكون ينكرون ما تحبه أنفسهم أو تتعلق به قلوبهم، حتى تنكر أرواحهم الأرض قاطبة، وتضيق عليها الآفاق، فترحل إلى مولاها.. وكلما قوى الأذى على نفوس السالكين دل على علو مكانتهم عند الله تعالى، كي لا تكون سالكًا إلى الناس بقلبك وروحك، فتعجز عن الانطلاق إلى ما خلقت من أجله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، يقول أهل السلوك:

- فإذا تنبهت لذلك وعملت عليه فأنت مكروم وإذا تفلت عنه وسكنت إليهم فأنت محروم.

- إنما أجرى الأذى عليك منهم كي لا تكون ساكنًا إليهم.

إذ أن في السكون إلى الناس أمورًا مدمرات ناسفات:

أولها: تكون أسيرًا لإحسانهم وبرهم بك.

ثانيها: لا تسلم من رد ذلك بخدمتهم والانشغال بهم.

ثالثها: لا تسلم من الفتنة بحبهم وبذلك لا يصفو قلبك لحب مولاك.

ومن خير ما قيل في ذلك: (السوط من العدو سوط الله يرد به القلوب إذا شردت عنه وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه وهو حجاب عن الله عظيم). فالمؤمن إذا أحاطته ظلمات الأذى من الناس لا ينشغل بهم أو الرد عليهم، وإنما ينظر بعين القلب إلى الحكمة الربانية، فينشغل بالله تعالى حتى لا يشرد القلب إلى الناس، لقد رأينا من يحتمي بالجاه والسلطان والملتفين حوله، ظانًا أن ذلك فيه عز ورفعة، وإنما هو قبر لقلب أرقده الله، عقابا لإعراضه وأنفته ومنازعته فكان ما حسبه عزًا حجابًا عن الله تعالى.

ولذلك كانت وصية أبي الحسن: (اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن شرهم يصيبك في بدنك وخيرهم يصيبك في قلبك، ولأن تصاب في بدنك خير لك من أن تصاب في قلبك، ولعدو ترجع به إلى الله خير لك من صديق يصدك عن الله).

وفي (لطائف المنن): (إن الله يسلط على أحبابه وأصفيائه الأذى من الناس، ليطهروا من كل باقية، ولتكمل فيهم المزايا، فلا يساكنوهم باعتماد أو استناد).

ولو علم الناس أنهم حينما يتعرضون لك بالأذى فقد خدموك وما حققوا أهداف أذاهم عليك، وذهب تدبيرهم أدراج الرياح، إذ أنهم يحررونك من رق إحسانهم وقيد برهم، ولذلك كان سر حديث رسول الله:

«من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له».

حتى يطمئن قلبك تمامًا أنك في حرية لا تكبيل، وفي انطلاق مع الرب لا تقييد، بهذا الخلوص يتعلق القلب بربه.

وهكذا كانت حكمته الربانية لمن يتدبرها ويعايشها (أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه بشيء).

فأزعجك الله بالناس لترجع إليه، إما باللجوء إليه في دفع أذاهم وبلواهم، وإما بالفرار منه إليه، وتأمل معي قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ [الذاريات: ٤٩، ٥٠]، فكانت حكمة ازعاج الخلق لتفر إلى الخالق.

وقد فطن السالكون إلى أن هذا الإزعاج بالناس يكون في صور ثلاث فاتقوها:

- الفتنة التي تصاحب إقبال الناس عليك.
- والأذى الذي يصاحب إدبارهم عنك.
- وأهوال ومجاملات وتكلفات وتصنعات المخالطة والمعايشة والملابسة بهم.

ومعنى ذلك أن هذا الإزعاج أمر طبيعي وسنة ربانية في أحبائه وأصفيائه لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤] وهكذا ينقلب أذى المؤذين ومعارضة الجاحدين إلى رفع الهلاك عن قلوب السالكين.

عُداتي لهم فضل عليَّ ومنَّة ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

فهم بحثوا عن زلتي فاجتنبتُها ... وهم نافسوني فارتكبتُ المعاليا

ولم تكن حياة النبي ﷺ إلا ترجمة حية لكيفية مواجهة الأذى من الناس، فلم تكن له راحة، من جهاد وتربية ومعاناة أحبار يهود، وكذلك أصحابه معه وبعده جلهم ماتوا مقتولين في مواقع عمل وجهاد، فقد مات الفاروق مقتولاً، وعثمان مذبوحًا، وعلي مضروبًا بالسيف مسممًا، وهكذا كان طريق العلماء في محنهم، والدعاة في ابتلاءاتهم، ثم تنتصر الحقيقة الربانية، لمن استوعب الحكمة، ونفذها وثبت عليها حتى الممات.

***

٣- عند المخالطة والمعايشة

مخالطة ربانية:

إن سر نجاح المخالطة والمعاشرة بين الناس، في وجود الربـانيين، الـذين يسـلكون بفقه، وينفذون إلى مشاعر الآخـرين، فتسـري فـيهم المخالطـة نبراسًـا يـنير طـريقهم، ويعاونهم على المضي قُدُمًا نحو الله تعالى، والمخالطة الربانية لا تتحقق بهذا المعنـى إلا بشيء واحد وهو التواضع الحقيقي وليس الخـداع الـذي لا أثـر لـه ولا قيمـة، فكـم هدمت الأنفة علاقات بعد تشييدها، ودمرت مجتمعات بعد إحكامها.

وحقيقة الإنسان أن نفسه التي بين جنبيه موسومة بالنقص أصلاً وفرعًـا، فكيـف يرى لها رفعة ومزية ومرتبة؟ هل يصير ذلـك عنـد العقـلاء مقبـولاً؟ وحينمـا عـرف اللغويون معنى التواضع اللفظي قالوا: ثبوت منزلة ورفعة صدر التنازل عنهـا، وهـذا يتنافي مع حقيقة الإنسان التي تأبى ذلك...فهل نسمى ذلك تواضعًا؟ من أقوالهم: (من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقاً)، ويقول الشبلي: (من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب). ويقول أبو سليمان الداراني: (لا يتواضـع العبـد حتـى يعـرف نفسه) بل إن أبا يزيد يقول: (مادام العبد ينظر أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر وقيل: فمتى يكون متواضعًا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه حالاً ولا مقامًا).

وعلى ذلك ليس المتواضع إذا تواضع رأى أنه فوق مـا صـنع، ولكـن المتواضـع الذي إذا تواضع رأي أنه دون ما صنع.

فما التواضع الحقيقي؟

التواضع أساسًا يقوم على أمرين: إما نظر الإنسان إلى نفسـه ووصـفها بـالنقص، فإذا ادعى لها رفعة خالف بذلك أصلها، وإما نظر الإنسان إلى أوصاف ربـه وكمالـه، فيرى أن كل شيء دون الله نقص ومحتقر، وهذا قول ذي النـون: (مـن أراد التواضـع فليوجه قلبه إلى عظمة الله تعالى، فإنه يذوب ويصغر، ومن نظر إلى سـلطان الله تعـالى

ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى. ومن أجل هذا المعنى كان اختيارهم الثاني هو (معنى التواضع الحقيقي)، في قولهم: (لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس وفي ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق).

تواضع السالكين:

إذا كان التواضع في معناه مجاهدة النفس في وضعها وسقوطها لأنها تريد الرفعة والإنسان يريد السقوط، فإذا تعقل أمره ونظر بعين فكرته وجد الأشياء كلها مستوية، والذين تكبروا كان السبب في تكبرهم أنهم أثبتوا المزية لأنفسهم ورفعوها ثم أثبتوا لها التواضع فهم المتكبرون على الناس حقاً.

أما السالكون فلم يثبتوا لأنفسهم مزية قط: رأوا الأشياء وكلها سواء، فلم يثبتوا لأنفسهم رفعًا ولا وضعًا، فهم يتواضعون من أول مرة، فأصلهم التواضع، لأنه من أثبت لنفسه تواضعًا ورأي أنها تواضعت دون قدرها فهو المتكبر حقاً. فلا يتحقق للسالكين تواضع حتى يروا الأشياء كلها مثلهم أو أحسن منهم في حال عصيانهم ربهم.

يقول الجنيد: (من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعًا).

ويقول النبي ﷺ: «**إنما الكرم التقوى، وإنما الشرف التواضع، وإنما الغنى اليقين. والمتواضعون في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة.**

ولا يزيد التواضع العبد إلا رفعة. فتواضعوا ليرفعكم الله.

وإذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين من أمتي فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار بهم».

... نعم فليس المتواضع الذي يرى لنفسه مزية على الأشياء، فإذا تواضع معها رأي أن نفسه فوق وأفضل مما صنع من التواضع، فهذا هو المتكبر الذي أثبت لنفسه

تواضعًا أكثر مما تستحقه.. وعلى ذلك فالتواضع مجاهدة للسائرين، حتى يكون اختيارًا حقيقياً للسالكين، لأنه ناشئ عن شهود عظمة الرب تعالى فلا يتخلف إلا في وقت الغفلة وهو قليل.

ومن لم يحقق هذا المعنى فلن يخرج عن أوصاف نفسه خروجًا كليًا ولذلك يكون بين طلوع ونزول.. تارة له وأخرى عليه.. حتى يشاهد أوصاف ربه من العظمة هنالك يتولاه الله تعالى فيكون سمعه وبصره ويده ورجله ويؤيده.. فلا يتصرف إلا بالله، يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: ١٠١].

فما التأنيث في اسم الشمس نقص ولا التذكير فخر للهلال

نعم.. إذا تحقق هذا المعنى فلا نقص ولا كمال للنفس لأنها ستبقى بالله، فيكون الكمال لله وحده، فله الحمد والثناء على كل حال.

وهذا سر المخالطة الربانية في حياة النبي ﷺ مع أصحابه الكرام: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩]، ويقول تعالى: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤]، ومن أجل أن يصل السالكون إلى تحقيق هذا المعنى عليهم بالتالي:

- لا يثبتون لأنفسهم تواضعًا مهمًا تواضعوا.

- يرون أنفسهم دون ما صنعوا لا فوق ما صنعوا مهما تواضعوا.

- إذا قدموا غيرهم أو رفعوا أو رحموا أو تحننوا فإنهم يرون أن ما فعلوه دون المطلوب.

- لابد أن يشهدوا عظمة مولاهم وينسوا أنفسهم وأعمالهم وحظوظهم ويتعاملوا مع المؤمنين بخفض الجناح.

- اعتبار خفض الجناح هو المقام الحقيقي، فالتواضع هو شعورك بأنه يراك ويسمعك وأن كل شيء بعلمه وإرادته وقدرته.

يقول تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩] وهذا هو سر المخالطة الربانية أو تواضع السالكين.

٤- القلوب المؤثرة

أصل التأثير:

لكي يكون الحديث حديث قلب ومؤثر في الآخرين، ويفعل فيهم فعل السحر، فإن من البيان لسحرا، ليس في بلاغة ألفاظه ونسق عبارته، وجمال بلاغته، بقدر ما فيه من نور وحياة وروح وحيوية، وهذه لغة القلوب، من أصابها أصاب، ومن تجاوزها لا يصل كلامه أصلاً ولو اكتمل فيه الزخرف والزينات، لذلك فعلى المتحدث المؤثر ألا يعتمد على نفسه وإنما يغترف كلامه من بساط إحسان الله تعالى، والفرق واضح في أن حديث القلب لا يعرف التوقف عن التبليغ ولا يعترف بالإجازات بل صاحبه في موقف دعوة متصلة دائمة -حتى وإن أساء- لأنه يتكلم عن الله وبالله، في الوقت الذي يتوقف من اعتمد على نفسه إذا أساء لأن اعتماده عليها، فإن ساءت توقف.

وتفصيل هذا الأصل: أن أهل التعبير هم أهل التذكير، هم الدعاة الصادقون من السالكين الذين يرشدون الناس.

وهما نوعان:

الأول: يعبر معتمدًا على نفسه فيقول: فعلت كذا ورأيت كذا ووجدت كذا وأقول كذا.. وافعلوا أيها الناس كذا واتركوا كذا.. فإذا وقع في زلة أو هفوة سكت حياء من الله وخوفًا أن يأمر بما لم يفعل.. وهذا النوع إذا فعل طاعة فرح بها، واعتمد عليها، وإذا فعل زلة حزن، وجزع، وسقط في يديه، ولذلك قيل: (لما اعتمدوا على أنفسهم أصمتهم هفواتهم وإساءاتهم).

والثاني: يعتمد على الله ويعبر من بساط إحسان الله تعالى، فلم ير إلا إياه، ولم ينظر أبدا إلى الناس، أو إلى نفسه، فيبقى بالله تعالى، وهنالك يمنحه الله تعالى من العلوم والمعارف والأنوار والفتوحات والمواهب ما يجعل تعبيره دائمًا، وتذكيره نافعًا، وعند الإساءة أو الهفوة لا يصمت أو يسكت بل يداوم على الدعوة والتذكير

والإرشاد لأن الإساءة من نفسه، والتعبير من الله تعالى إليه.. وكما قيل: (فهم مغموسون في بحر المنة الإلهية لا يرون في الكون سواه تعالى).

فكأنما النوع الأول تناديه مساويه اسكت.. أما تذكر فعلك القبيح وعملك الذميم؟! فيسكت خجلاً.. أما النوع الثاني فغابت عنه مساويه لغيبه في محاسن مولاه فلا يشهد إلا إياه.. فكيف يسكت ومم يستحي أو يخجل؟!!

كيف تكون عبارتك مؤثرة؟

إجمالاً:

بقدر نور القلب يكون نور الكلام، فأنت تتوجه بقلبك إلى الله بالانكسار والافتقار، وبقدره يكون التوجه إلى القلوب ثم الكلام المستنير، فإن كان القلب مكسوفًا فالكلام يكون عليه ظلمة، ولذلك كل من تعرض للدروس والمحاضرات لا يكون إلقاؤها مؤثرًا في القلب إلا بعد النضج وتحقيق هذا المعنى.

تفصيلاً: الدعاة الذين يتكلمون بالله ويصمتون بالله إذا أرادوا أن يعبروا عما منحهم الله من العلوم سبق نور معرفتهم بالله إلى قلوب المستمعين، فتسري فيهم على قدر صدقهم، (فمنهم من يدخل النور سويداء قلبه، ومنهم من يقف النور على ظاهر قلبه، ومنهم من يشرق النور على طرف قلبه). هكذا قال أهل السلوك وزادوا:

(فالأول ينهض من ساعته إلى ربه. والثاني خشع وخضع وعزم على البر والتقوى. والثالث عرف الحق وصدق) ولذلك اتفقوا على قولهم: (حيثما صار التنوير وصل التعبير)، فمن المشهور أن أعرف الناس بالله أشدهم له خشية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وسئل مالك عن الحكمة فقال: ما زهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة، وسئل مرة أخرى عن الحكمة فقال: (نور يقذفه الله في قلب العبد المؤمن) فأهل التنوير هم العارفون بالله، ولله در القائل في وصفهم:

لا ينطقون بغير الحق إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكثار

من تلق منهم تَقُلْ لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

بل زاد بعضهم أن تفصيل نور القلب في ثلاثة:

الأول: يشهد ما منه إلى الله.

فهو ذو حزن وأشجان، ذو كد وتكليف.

الثاني: يشهد ما من الله إليه فهو ذو فرح وامتنان، ذو عناية وتعريف.

الثالث: يشهد ما من الله إلى الله.

فلم يشغله عن الله شاغل فهو مشاهد للمولى اللطيف.

وهذا رقي من وراء رقي، مراتب بعضها فوق بعض، أي خلل في واحدة لا تصل إلى التي تليها، وما منك إلى الله سيئاتك وهفواتك وخطراتك وذنوبك، وما من الله إليك كرمه وجوده وبره ورحمته وعطاياه، وما من الله إلى الله صفاته وأسماؤه، ولذلك فمن انشغل بهذه المرتبة لا يشغله شاغل عن مولاه اللطيف. وبقدر المرتبة من النور يكون تأثير عباراتك في قلوب الآخرين، ولذلك كانت هذه القاعدة: (حيث صار التنوير من قلوبهم وصل التعبير إلى قلوب غيرهم)، فمن كان نطقه عن نور تام أفاد المخاطب نورًا تاماً، ومن كان عن ناقص فعن ناقص، ومن كان عن هوى فهو كذلك.

لأن ما خرج من القلب دخل القلب، وما قصر على اللسان لم يجاوز الآذان، ثم إذا وصل القلب وعرفه لم يمنعه من التمكين والتأثير إلا جحود أو ضلال كحال الكفار، إذ أقروا بالحقيقة ولم يصدقوا بها جحودًا وعنادًا حتى كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم خوفًا من تأثيرها في قلوبهم فتتمكن، وكم كانوا في الظلام يصطدم بعضهم بعضاً ويتواعدون بمواثيق غليظة على عدم سماع الحق مرة أخرى ما منعهم إلا الضلال والجحود.. ولو تدبروا الحق لأدمغ باطلهم أشلاء ممزقة فنور الحق يبدد كل ظلمة سوداء.

علامة التأثير.. النضج:

كل كلام وعليه كسوة القلب لأن الألفاظ حلية المعاني، والمعاني قلبية، فما برز من عبارات تحمل الأثر القلبي الذي منه برزت.. وكل كلام سواء كان عاديًا أو

شرعيًا أو غيره له تأثيرات ثلاثة:

كلام مجموع: تنفع معانيه وتفيد عبارته.

وكلام مسموع: تستحلى عبارته ويفهم معناه.

وكلام مدفوع: تمجه الأسماع ولا يحصل به انتفاع.

ولذلك كانت القاعدة: (كل كلام عليه كسوة القلب)، فإذا كان القلب مكسوفًا فالكلام يكون عليه ظلمة، واشترطوا النضج لكي يؤذن للداعية بالتعبير والإرشاد وإلقاء المحاضرات والدروس، فما علامة النضج التي بها يستطيع السالك أن يكون كلامه مؤثرا؟، قالوا: (علامة الكلام الذي يسبقه التنوير هو تأثيره في القلوب وتهييجه الأرواح وتشويقه المشاعر والإحساس:

فإذا سمعه الغافل تنبه.

وإذا سمعه العاصي انزجر.

وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه.

وإذا سمعه السائر تقدم في السير واختفى عنه تعب السير.

وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله).

فالكلام صفة المتكلم إذا كان ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، وإذا كان ذا تكدير حد كلامه آذان السامعين، ولذلك يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من تكلم عرفناه من ساعته ومن لم يتكلم عرفناه من يومه.

وقالوا في ذلك: (الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان حده الآذان، وإنه من الحال أكثر من المقال، وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر الطام والنجم الثاقب التام).

وحتى لا ينخدع البعض فليس من النضج من يكون من الناس (عالم اللسان جاهل القلب) وعلامته: ألفاظ خاوية من المعاني، أو معان ميتة لا روح فيها، لأن قلبه ميت. والسالكون يحذرون ذلك النضج الخادع بل يتحققون بالنضج الصادق، فإذا وصلوا إلى درجته استطاعوا أن يعبروا وأن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

نتائج النضج في التأثير:

فمن تحقق فيه النضج وأصبح من الدعاة إلى الله والمرشدين إلى الخير.. حصد من النتائج الطيبة والثمار اليانعة ما يحقق هدف الدعوة والإرشاد، فإذا عبر أخذ بمجامع القلوب، وفاض من لسانه علم ينفذ إلى المشاعر، فتحسن في مسامع المدعوين عبارته، وتفهم وتظهر معانيه، وكما قيل: (إنما العبرة بالمعاني دون القوالب والأواني) أي لا عبرة بلحن الكلام وإعرابه ولا خطأ في رفعه وضمه من صوابه، ولو اكتمل الاثنان كان أعظم وأرفع شأنا، فليس المراد فصاحة المقال، وإنما المراد فصاحة الفعال، ولو كان الفضل في فصاحة اللسان لكان هارون أولى بالرسالة من موسى عليه السلام حيث يقول: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، ومما ينسب للخليل ابن أحمد:

لسان فصيح مُعرب في كلامه فيا ليته من وقفة العَرْض يسلم

ولا خير في عبد إذا لم يكن تُقَي وما ضر ذا تقوى لسان معجم

ومن اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال فهو كمال الكمال، وقد حاز قصب السبق في التعبير، وسرت عباراته مبلغ التأثير، ورحم الله إمام العصر الشيخ حسن البنا فقد كان له شأن عظيم في هذا المضمار وهو يدعو إلى الله تعالى، فقد قرَّب المدارك وبيَّن المسالك في أحسن عبارة وأوجز لفظ.. جزاه الله عن المسلمين خيراً.

أما الذين لم يصلوا إلى النضج ولم تظهر عليهم علامته. فإنهم يتكلمون بالحكم والحقائق، مع فصاحة وبلاغة، لكنها مكسوفة الأنوار مطموسة المعاني، ليس فيها حلاوة، ولا عليها طلاوة، كأنها شمس اعتراها كسوف لا تكاد تقبل لثقلها ولا تفهم لبعدها، ولا تسمع لاحتجابها.. سبب ذلك عدم النضج وبالتالي لم يؤذن لصاحبها في التعبير وإلا ظهر عليها كسوة التنوير وكما قيل: (من أجلِّ مواهب الله للدعاة وجود العبارة) فمن رزقه الله ذلك فليحافظ عليه ويعمل على ترقيته وتنميته.. فربما يتكلم الرجلان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر، وربما قبلت من الواحد في وقت ورَدَّت عليه في غيره، بل ربما قبلها مستمع وردها آخر في وقت واحد

وخطاب واحد، وما ذلك إلا لاختلاف النضج بحسب الزمان والحال والناس.

حكمة العبارة المؤثرة:

أهل الدعوة والتعبير يخاطبون الناس بقدر ما يفهمون، فليس أهل البداية كأهل النهاية، وفي الحديث الذي رواه مسلم: **(ما أنت محدث قومًا حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)** فعلى المتحدث ألا يتجاوز في كلامه طاقات وقدرات المستمعين وكذلك أحوالهم في السير، فإذا حدث تجاوز وصل نور الكلام ضعيفًا، وكانت طريقة الجنيد أن يخاطب جميع المستويات من بداية ووسط ونهاية، فقد قيل: كان يلقي الحقائق على رؤوس الأشهاد، ولما سئل في ذلك أجاب: العلم محفوظ أن تأخذه غير أهله، بمعنى إن لم ننشره ونبلغه بالحق سيبلغه من هو غير أهل له بالخطأ. ثم إن العلوم والمعارف التي أودعها الله في قلوب السالكين، وقد اجتمعت أنوارها في قلوبهم نتيجة للعمل والتنفيذ المتواصل والعبارة الدائمة، هذه أمانة في قلوبهم، وهم أمناء الله عليها فلا ينقلونها إلا لمن هو أهل ومستحق لها، ولذلك كانت حكمة العبارة المؤثرة في أمرين:

الأول: فيضان يفيض من القلب على اللسان، وعليه أغلب السالكين، إذا غلب عليهم الحال فاضوا ولم يشعروا ولم يتمالكوا، وهم ليسوا من أهل القدوة حتى يحتاجوا لهداية غيرهم، فشغلهم بأنفسهم وقلوبهم صرفهم عن التأثير في غيرهم فضلاً عن الاشتغال بهدايتهم ودعوتهم.

الثاني: لأجل هداية المدعو وإرشاده وترقيته، وهذا عن قصد وتخطيط وبرامج، وهؤلاء يمسكون ولا يعطون إلا القليل المستحق، وعليه المتقدمون من السالكين الذين هم راسخون فلا يعبرون ولا يتحدثون ولا يدعون إلى الله إلا لأجل:

- هداية مبتدئ.
- أو تربية سالك.
- أو ترقية سائر.

وأما لغير هؤلاء فلا.. حتى ولو مكث الرجل سنين، فلا يتأثر قلبه إلا إذا أعطى

نفسه وماله وبذل روحه بالكلية أي بمعنى: يتولى الله ورسوله والمؤمنين. ويقول الشيخ الحسن في معنى ذلك: (وعلامة الولاية الرضا بالقضاء والصبر على البلاء، والفرار إلى الله عند الشدائد والرجوع إليه عند النوائب، فمن أعطى هذه الأربعة فقد صحت ولايته لله ورسوله وللمؤمنين) ثم يفسر ذلك قائلاً: (يتولى الله بالمجاهدة) لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(ويتولى الرسول بالمتابعة) لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠].

(ويتولى المؤمنين بالاقتداء بهم).

ومازال الرجل يحقق ولايته لله ولرسوله والمؤمنين حتى يتولاه الله تعالى، فالأول إيمان، والثاني يقين، والإيمان ربما تدخله الغفلة، واليقين لا تدخله الغفلة.

وهكذا كانت حكمة العبارة المؤثرة، فالذين فاضوا من قلوبهم على لسانهم دون مراعاة للسامع، لو رجعوا إلى أنفسهم وتأملوا وتفكروا فربما ندموا على أقوالهم تعبيراتهم، أما الذين خططوا قاصدين هداية أو تربية أو ترقية، فقد تحكموا في الحقائق، وفرغوا من تهذيب أنفسهم فتفرغوا لهداية غيرهم، ولذلك فقد قالوا أنهم يراعون ثلاثة حقوق:

الأول: **حق أنفسهم**: فلا يعبرون إلا عما هو متحقق به.

الثاني: **حق المستمع**: أي على قدر حاله وفهمه وعقله دون اتساع ولا تضييق لينتفع به.

الثالث: **حق الغير**: فعبارتهم تفيد العام في عمومه ولا تدفع الخاص عن خصوصه، وتكون سالمة من الإبهام والإيهام حتى لا يقع إنكار ولا اعتراض.

العبارة غذاء للنفوس :

حاجة المستمع للعبارة كحاجته للطعام، فكما أنه يطلب القوت من أجل بدنه، فكذلك يطلب العبارة من أجل نفسه لأنها قوام المعاني وقوت لنفسه، ويتفاوت المستمعون في الانتفاع والتحصيل مثل طلب القوت تمامًا، ومن أجل ذلك لابد من

استكمال جميع الوسائل التي تجعل العبارة مؤثرة من تهذيب وترتيب وتقريب وتوضيح حتى تسوغها قلوبهم وتدركها عقولهم، ولعل في كتابنا (الدعوة المؤثرة) من وسائل التأثير ما يكفي لسد هذا الجانب، وليس في الاستعانة بالوسائل التأثيرية ما يجعل العبارة تحقق هدف الوضوح والبيان والتنسيق فحسب بل إنها تدفع أي ضرر في حاضر أو مستقبل، ولذلك كان نهى الإسلام عن التفيهق في الكلام وتكلف السجع وغيره.

ولذلك كانت القاعدة (ليس لك إلا ما أنت له آكل) فإذا كانت العبارة غذاء للمستمعين، فإنها لا تحقق هذا الغرض إلا حينما تحقق أثرها أولاً في المتحدث، فإن عبارتك لا تحقق نفعًا إلا حينما تنتفع أنت أولاً بها، ولن تحقق تأثيرًا في غيرك إلا بما أنت متأثر به، فليس العبرة بما تأثر به غيرك ولكن العبرة بما أنت تأثرت به.

إن إرشاد الناس ودعوتهم إلى الله واجب على الجميع وليس المعنى أن يتحقق هو أولاً ثم إذا استكمل ذلك يباشر الدعوة، بل عليه الأمران معًا، يدعو ويهذب نفسه، فالدعاة الماهرون يدعون وفق ما وصل كل منهم إلى درجة ومرتبة، والواجب ألا يتوقف الداعية في مرحلة أو مرتبة أو درجة تقدمت أو تأخرت لحاجة نفسه أولاً والآخرين ممن يتلقون عنه معًا، وهذا أمر دقيق لا يميزه إلا صاحب بصيرة، فالداعية العامل يعرف بسريان ما يقول في كيان المستمع من كيانه المحقق لذلك، ويرى المستمع من أفعاله ما يؤيد أقواله فلا يسأل عن الأسباب المقنعة له، ومن هنا يتحقق التأثير مهما ضعف شأن الداعية فلا يمج المستمع العبارة أو يستثقلها وإن لم يعمل بها.

التأثير لا يرتبط بالابتداء:

ومع أن الداعية المبتدئ تظهر علامة ابتدائه وتدل عليه، إلا أن ذلك لا يمنع التأثير في الآخرين، فقد تجده يشعر بفرحه عند التعبير مع أنه لا يحفظ المعاني الإجمالية بمقاصدها وربما يسوق الكثير من الأسباب والوسائل في إقناع ذاته أولاً ثم إقناع الآخرين، ومع ذلك تكون عبارته مؤثرة فكما سبق (تسبق أنوار الحكماء أقوالهم).

ولذلك كان التحذير العام وخاصة للمبتدئ من الدعاة أن يحذروا الخوض في

عرض الحقائق دون تأثرهم بها واقتناعهم التام والعمل وفق مقتضاها، وأن يكون حركة قلوبهم فاعلة بما يلقيه على الآخرين، فكيف يعرض أمراً هو فاقده؟ بل هو أحوج إليه من المستمع؟ ولذلك كان التحذير وإلا فعلى السالك أن يمسك عن الكلام والتعبير، إذا كان غير واضح، ملتبساً أو مضرًا بالمستمعين.

وكان هذا التحذير مهمًا للدعاة لأن كل أمر انتفت منه الشروط السابقة يسبب أمرين خطيرين يأكلان النور فلا يوجد أثر لعبارة أو تأثير لحديث وهما:

الأول: قلة العمل في قلب المتحدث:

ومتى وجد ذلك فلن يصل أثر لقلب سامع لأن من حكمة الدعاة أن يصنع قلبه في حديثه، ومعنى قلبه هنا أن يكون عاملاً متأثرًا بما يقول، وهذا حياة العبارة وروح الكلمة.

الثاني: منع وجود الصدق مع الله:

والصدق مع الله هو الذي يفتح للكلمة مغاليق النفوس، ويعمل على نمائها، وتوفيقها وسدادها وتحقيقها للهدف، وهذا المنع يكون بعدة صور بما يثيره من الفرح بعرضها وهو حظ نفس، واستشعاره المزية والتميز على غيره بها، ثم تعظيم الناس وهو الرياء والتصنع، وهكذا يحرم الداعية نفسه من التحقق بما يقول، فيغرق في خضم الحرمان، ولا يخرج منه إلا إذا حقق العمل في قلبه والصدق مع ربه، فإذا خرجت الكلمة صنعت السحر في المستمعين، وعاشت عبارته نبراسًا للأجيال، فكما قيل: (تعس من كان صاحب علم لا صاحب حال)، (ومن دعاوي التعبير طلب المنزلة في قلوب الناس) والحل في النظر إلى الحق سبحانه فيما يجريه على أيدي الناس.

مسألة شائكة وحل!

التعبير المؤثر والحديث المشوق يوجب إقبال الناس على الداعية مع التعظيم والتوقير له، فيؤدي ذلك إلى أن يبذلوا من عطائهم ومنحهم للداعية حبًا وتوقيرًا وإكبارًا.. فما موقف الداعية؟ أيتقبل هذه العطاءات أم يرفضها؟ وهل يليق له أن يطلبها؟ وكيف يتعامل مع كل الحالات مع قلبه ليداوم على التأثير؟ خاصة أن أكثر ضمائر المانحين من الذين يعملون في السلطة والحكم قد تكون لهم نيات أخرى!

الأصل أن السالك الداعية المؤثر لا يمد عينيه إلى دنيا أو إلى ما في أيدي النـاس، يقـول تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيـهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الحجر: ٨٨]، ولكن الإنسان لابد له من الدنيا ولا بد له من مال؟

ولذلك نُلَخِّص ما وصل إليه أهل السلوك في هذه المسألة في نقاط محددة:

- أن يأخذ الدنيا ممن وافق الشريعة والعلم.
- أدبه أن يفطن إلى أن المعطى في الحقيقة هو الله عز وجل.
- يأخذ حيث تجيز له الشريعة الأخذ وأن يتصرف حيث تجيز له الشريعة التصرف.
- ألا يطلب من الناس ابتداء فإذا وصل إلى حالة الاضطرار فله ذلك. ولكـن لا يفعل قبل الاضطرار لأن بعض كمالات العارفين أن يستحيوا من الطلب من الله عز وجل اكتفاء بعلمه جل جلاله، كما قال إبراهيم عليه السلام يوم أُلقِيَ في النار: (حسبي الله ونعـم الوكيـل) فكيـف لا يسـتحيون مـن الطلـب مـن الناس؟!

ولذلك فمن المـرجح في عصـرنا عنـد بعـض المجتهـدين أن يـنظم أهـل السـلوك تكسبهم، وأن تكون لهم حرفة مهما بلغوا بحيـث يسـتغنون عـن الكسـب والسـؤال، فعصرنا يطحن الفقير ووسائل الرزق فيه قد ضاقت إلا على أبنـاء الـدنيا فلابـد مـن ترتيب على مقتضى عالم الأسباب.

بل إن الإمام ابن عجيبة لخص شروطاً لعطاءات النـاس للـدعاة دون أن يسـألوا فقال: (حدود أهل السلوك أن لذلك شروطاً: أن لا يأخذ ممن كسبه حرام، ولا مخلط، ولا محجور عليه كالصبي والمجنون. ومنها أن يكون نظره إلى الله تعالى لأنه يقـبض مـن الله ويدفع بالله. واستدلوا أن كثيراً من العلماء كـانوا يقبضـون جـوائز السـلطان ثـم يدفعونها على أيديهم).

وكان اتفاقهم في قول أحدهم: (خذ من الله ما أجرى علـى أيـديهم ممـا وافقـك العلم على أخذه وهو الحلال الطيـب المصـحوب بـالورع أو المتفـق عليـه عنـد أئمـة الفتوى (اكتسب بالعلم وكُلْ بالورع).

وقد حدد الفقهاء وجوه السؤال للدعاة الربانيين كالتالي:

الواجب: ما يكون لسد الرمق بحيث إذا تركه مات.

المندوب: يسأل لغيره من باب التعاون على البر، وقد سأل النبي لأصحابه حينما قدموا عليه عراة. ولكثرة الخلط في عصرنا يرى بعض الفقهاء ألا يسأل الدعاة إلا عند الضرورة فقط.

المكروه: يسأل مع قدرة الاستغناء عن السؤال بأي سبب.

المباح: يسأل لحاجة غير ضرورية كسؤاله لقضاء دَيْنه أو ما يسد رمقه أو لستر عورته.

المحرم: يسأل للكثرة أو زيادة على كفايته وما فيه إلحاح وإضرار بالمسئول ﴿**لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾.

وما ذلك كله حتى يحقق السالكون الشرط في أن يروا أن المعطي هو الله، فلا يتوجهون إلى الناس، فيقل تأثيرهم، وعلامة تحقيق هذا الشرط تظهر في ثلاث:

- عدم الحرص في كل الأوقات.
- الالتزام بالحق بحيث لا يترخص بوجه غير مستقيم.
- لا يعامل الناس بقلب سقيم فلا يذم معطيًا ولا مانعاً، ولا يمدحهما إلا من حيث أمر الله.

ولتحقيق هذا الشرط كذلك أن يسلك الدعاة طريق التربية بوسيلتين:

أولاً: تربية اليقين:

فلا يعلق قلبه بالمخلوق حتى يرى أن المعطي هو الله، ويكون ذلك حاله الدائم، قال عيسى عليه السلام: عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل.

ويقول ﷺ: «**من كان همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وأتته وهي راغمة، ومن كان همه**

الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، وإن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه»، ويقول يحيى بن معاذ: لا تسكن الحكمة قلبًا فيه ثلاث خصال: (هم الرزق وحسد الخلق وحب الجاه).

وما أروع حبيب العجمي خادم الإمام الحسن البصري حينما أتى السائل فأعطاه الطعام كله فقال الإمام: أنت يا حبيب كثير اليقين قليل العمل هلا أعطيته النصف، فاعتذر حبيب حتى جاء غلام بالليل يبكي ومعه كثير طعام وعند الباب يلح على الخادم أخذ الطعام، فإنه طال عليه الرق وسيده وعده بالحرية إن أخذ الحسن البصري الطعام، فأخذه حبيب قائلاً للإمام: أنت كثير العمل قليل اليقين، فقال الإمام الحسن البصري: (تقدمناك وسبقتنا) وصارت مثلاً: يا حبيب تقدمناك وسبقتنا.. باليقين.

ثانيًا: تربية الثقة:

الثقة بالله تعالى هي عنوان قلوب الربانيين، خاصة في حال حاجتهم، فالثقة معناها في القلب ألا ترى في قلبك حاجة إلى سوى الله تعالى، وهذا أصل التعامل مع الآخرين أخذا وعطاء، فقد خرج غنى بمائة دينار ونيته أن يتصدق بها فأعطاها لأحد الواثقين بربه فماذا فعل قلبه؟ قال له الغنى: إذا نفدت فاسأل عنى فأنا فلان وائتني. فقال: لا والله، وما أسال غير الله.... يقول الغنى: ثم انصرفت وأنا متعجب من ثقته بالله تعالى.

وإذا كانت الثقة تجعل الواثق يستحى أن يرفع حاجته إلى الله فكيف لا يستحي من رفعها إلى غيره، يقول سهل بن عبد الله: (ما من وقت إلا والله تعالى مطلع فيه على قلوب عباده، فأي قلب رأي فيه حاجة إلى سواه سلط عليه الشيطان وحجبه عنه).

وبهذا يتحرر الدعاة المؤثرون فتسبق أنوارهم إلى القلوب فيقع تعبيرهم موضع السحر في المدعوين، وذلك لأن قلوبهم بالله ولله وإلى الله ومن الله وفي الله...

***

٥ - خالط الناس بخلوة فكر

الفكر سير القلب

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] وتحقيق الصديقية بالمفهوم القرآني الوارد في هذه الآيات يحتاج إلى تأمل وفكر ونظر وتفكر، يحقق به الإيمان، ثم يحقق به المراقبة ، فيعبد الله كأنه يراه، وقد أطلقوا على كل ذلك (الفكرة).

وفى تعريفهم للفكرة قالوا: انبعاث قوة الإدراك في علم الغيب ليدرك حقيقة الأشياء على ما هي عليه، وزادوا: فمن وجد ذلك فهو عارف، أي تحققت معرفته بالله تعالى.

فالفكرة بمعنى التفكر، بحيث يستعمل السالك الفكر والتأمل في استخراج المعارف والمعلومات، وبالتالي تزداد الخبرات في وقت قصير قد ينالها غيره في سنوات، وعلى هذا المفهوم قالوا: (الفكرة سير القلب) أي انتقاله بالنظر والتأمل من ميدان إلى آخر عن طريق المواقف والأحداث، وميدان الفكر كل هذه المخلوقات خاصة الناس، فالمخالطة إذن أساس جوهري ليحقق الإنسان تأمله وهو على أربع درجات يرقى عن طريقها السالك حتى يصل إلى معرفة الله تعالى:

١- يفكر في وجود الناس فيهديه الفكر إلى موجدهم وهو الله تعالى، فالتأمل في الناس يصل بك إلى رب الناس.

٢- يفكر في موجدهم فيهديه الفكر لترك الناس والإقبال على الله وحده، فالتأمل في خالق الناس يجعلك لا تتعلق إلا به تعالى.

٣- تفكيره في مخالطتهم يدعوه إلى البحث عن أحسن الوسائل والوجوه التي

يتعامل بها مع الناس والتي تليق به وبهم.

٤- تفكيره في أقدار الله على الناس وما أجرى عليهم من أحكام وأحوال، فيهديه ذلك لعظمته تعالى فيرى ما له عليهم، وبذلك يقوده الفكر إلى التأمل فيما هو واقع على الناس من أقدار وحكم ربانية فيشهد عظمة وحكمة تدبير الله وقدره.

يقول الجنيد: (أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد)، ويقول الحسن: (الفكرة مرآة حسنة تريك حسنك من سيئك).

وهذه هي الفكرة التي تعدل ساعة منها عبادة سبعين سنة، كما في الحديث.

وهكذا فإعمال القلب بالتأمل والفكر وشغله بالفكرة وأنت تخالط الناس، لأن المخالطة ميدان التفكر، تحقق معنى سير القلب إلى الرب تعالى، فالفكرة تقودك إلى الوصول لأنها سير القلب، فالسير إلى الله خلاصة الفكر ولا يوجد فكر إلا بهذا الاختلاط مع الناس الذي يسمى حينذاك (خلوة فكر). ولذلك كان قولهم: (من لا فكرة له لا سير له ومن لا سير له لا وصول له) وكما ترى في هذه الدرجات أنها في ميادين غير الله لتصل بك إلى الله، وهذا هو معنى قوله ﷺ: «**تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تُقَدِّرون الله حق قدره**».

يقول ابن عباد: الفكرة التي ألزمها الله تعالى العبد وحض عليها هي سير القلب في ميادين مخلوقاته ومصنوعاته، وأما الفكرة في ذات الله تعالى فلا سبيل إليها: (يعتبر المتفكرون في آياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته).

الفكرة سراج القلب :

يقول الشيخ الشرقاوي: أي كالمصباح الذي يضيء فيه فيستنير به، وبالنور تنجلي حقائق الأمور، فيظهر به الحق حقاً، والباطل باطلاً، فيعرف به عظمة الله وجلاله، ويطلع على خفايا آفات النفس ومكائد الشيطان وغرور الدنيا.

ولذلك فالقلب الخالي من الفكرة خال من النور، ولا إضاءة له، كالبيت المظلم، حيث لا يكون في البيت المظلم إلا الجهل والغرور، وأهل الدنيا إذا تفكروا، فعلام

يتأملون؟ وإلى أي نتيجة يحققون؟ فكما قيل في ذلك: إنهم يفكرون في المصنوعات وهذا حسبهم، أما العارفون فإنهم يتأملون ويفكرون في الصانع.. ولذلك ففكرهم سراج القلب.. وهذا سر النور، فإذا فكر القلب في عظمة الحق فهو منور بنور الحق، وإذا خلا من التفكير في الحق دخله التفكير فيما سواه وهي ظلمة، وكما قيل: (ولا تجتمع الظلمة والنور أبدا)، بل كيف يرى المنافع والمضار إن لم يكن في قلبه نور؟!

وبهذه الفكرة التي هي مصباح وسراج القلب يعلو شأن السالكين: فينصرون الحق ويصلون إلى الإيمان ثم ينتهي بهم الحال إلى معرفة الله، حيث لا ترقية في درجات الإسلام والإيمان والإحسان إلا بها، يقول كعب الأحبار: (من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر التفكر).

ولما كان من علامة ذهاب الفكرة أن ينطفئ السراج فلا إضاءة، فمن علامة ذهاب الإضاءة أن تجد القلب تارة يخطئ وأخرى يصيب، فيفوته السير وينتفي عنه الخير، يقول تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وذلك لثلاثة وجوه:

١- لأن النور يهدي إلى الحق فتقبل عليه، ويبين الباطل فتدبر عنه.

٢- لأن النور يريك الحقيقة فترى الحق عيانًا وبفقدها بالتالي لا يصح معه ذلك.

٣- لأن النور يريك نقصك وشواهد ما يجري عليك وعلى الناس جميعاً.

ومن ذلك يمكننا القول: لا سلوك ولا سير ولا حقيقة ولا علم ولا عمل ولا معرفة إلا بهذه الفكرة.

كيف تحقق الفكرة؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، نتعرف على مجالات الفكر، التي يتحقق فيها التأمل والتفكير وهى أربعة عند أهل السلوك:

الأول: وجود الدنيا: بزخرفها وزينتها وجواذبها حتى يتميز السالكون عن غيرهم.

الثاني: وجود الشهوات: التي تمنع عن المقصود وبالتالي فالسالكون يرجعون عنها حتى لا تكون عقبة في طريقهم.

الثالث: وقوع الغفلات: التي تصرف عن المراد والهدف ولابد من انتفائها والعمل على ذلك عند السالكين وإلا حادوا عن الحق.

الرابع: حصول الهفوات: وهى من طبيعة تصرفات البشر، والسالكون يعملون كذلك على انتفائها حتى لا تصرفهم عن الفهم.

وهذه المجالات لا تظهر إلا بالمخالطة، والفكر لا يجول إلا في وجودها، ولكن على السالكين أن تكون لهم خلوات فكر، يتدبرون أحوالهم ويتفقهون أمورهم، فالفكرة أخت الخلوة، وليست الخلوة في اعتزال الناس وحياة الكهوف وإنما هي مخالطة بمعنى الاعتبار في الحياة مع الناس بهذه المجالات، ولذلك كان الاعتكاف سنة نبوية ليسلم صاحبها من كل ما سوى الله تعالى، وبذلك يستدعي الأنوار ويعيش في جوها وقد قيل في ذلك: **الفكرة لا تنضج إلا بالخلوة.**

ومن أراد أن يحقق الفكرة فليعلم أن الناس في التحقيق ثلاثة:

الأول: منفرد بقلبه لا بشخصه: فهو مع الناس في الظاهر ومع الله في الباطن، وهذا حاله حال أهل الكمال.

الثاني: منفرد بشخصه دون قلبه: وهذا سالم إن توافرت الشروط، متعرض لنفحات الرحمة.

الثالث: منفرد بهما معًا: وهو صاحب الخلوة، وهو واحد من ثلاث خلوات:

١- **خلوة ليسلم:** وشرطه القيام بواجبات الوقت وسلامة الناس من سوء ظنه.

٢- **خلوة ليغنم:** وشرطه المحافظة على السنن مع الجد في العمل وعدم التكاسل والتقاعس.

٣- **خلوة لينعم:** وشرطه التبري من الأقوال ويكون صاحب أعمال وأحوال.

ووفق هذه القواعد التي وضعها أهل السلوك يتضح أن الخلوة سواء كانت للسلامة أو الغنيمة أو النعيم كلها تحتاج إلى عمل وجهد ومجاهدة وترق، حتى تكون العبرة بالأعمال والأحوال والحق والممارسة ثم الديمومة والاستمرار والثبات عليها.

جولة في درجات الفكرة:

من سنن الله في كونه أنه جعل الترقي طريقًا للوصول للكمال، وما زال الإنسان في تصعيد بجهده وسعيه وطموحه، ومن امتلك العلا رمقته أنظار السالكين كنجم ساطع في السماء، ولكل أمر حد أدنى وحد أقصى وبينهما منازل ودرجات ومراتب، والفروق بينهم دقيقة ولكنها بين راق وأرقى، فهي ليست تمايزًا بين أمرين، وإنما ترق مثل صادق وصديق.

أردنا بهذا التمهيد أن نجلي شبهة قد تعتري البعض حينما نتحدث عن الحد الأدنى والأقصى لجولان الفكر والتأمل في القلب، والفكرة التي ترقى الإنسان على نوعين:

الأولى: فكرة تحقيق للإيمان والتصديق.

الثانية: فكرة تنقل القلب إلى المراقبة والشهود.

وبينهما مراتب ودرجات، الأولى لأصحاب التأمل والثانية للراغبين في الوصول، والفكرتان لابد منهما لطالب الكمال.

وتفصيل ذلك كالتالي:

(التصديق والإيمان).

يقول تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، والفكرة هنا سير القلب بالتفكير في مخلوقات الله ومصنوعاته والاهتداء لمعرفة الخالق الصانع وقدرته وعلمه وغير ذلك من صفاته.

ومن لوازم تحقيق هذه الفكرة التفكير في عظمة الله وشرف نبيه -ﷺ- وما جاء من أمر الدنيا والآخرة ومما كان ويكون.

وهي كما قيل: (لأولي الاعتبار) بمعنى السالكين العاملين، يقول الله تعالى: ﴿قُلِ

انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ويقول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ويقول تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

وقد أجمل أهل السلوك مراتب هذه الفكرة وما يلحقها في التالي:

١- يعتبرون بالنظر لوجود المخلوقات حيث هي.

٢- يعتبرون بموجدها من حيث حسن فعله.

٣- يهديهم ذلك لجمال وصفه.

٤- ثم يهديهم ذلك لمعرفته بما أعطاهم من قوة النظر في ملكه تعالى.

المراقبة والشهود:

ويعني بها التفكير في عظمة الخالق سبحانه والتأمل في التصريف الجاري في خلقه بحكمته وحكمه، وقد أطلقوا على الوصول إلى هذه المرتبة: (شهود العيان)، والعيان مرتبة وراء الطمأنينة بمعنى تحقيق الأمر كأنه رأى العين فلا يحتاج إلى دليل ولا برهان.

كبر العيان عليَّ حتى أنه ... صار اليقين من العيان توهما

ومن لوازم تحقيق هذه الدرجة ومن معانيها جولان القلب في دائرة التعظيم والإجلال لله سبحانه.

وقيل هي: (لأرباب الشهود والاستبصار) بمعنى الذين شاهدوا الحق فعرفوه، واستبصروا عن العمل فأبصروه، يمشون في الناس تارة بنور الحق، وتارة بنور التحقيق، وتارة بنور معرفتهم بالله تعالى وعلمهم به، وتارة بعلمهم وممارستهم وسعيهم وجهادهم، ومدار كل ذلك: علم ومعرفة بالله وعمل وتطبيق أو شهود واستبصار.

* * *

الفهـــــرس

❊ ❊ ❊